

فلسفة اللاهوت المسيحي

أ.د. عصمت نصار

دار الهداية

فلسفة

اللاهوت المسيحي

العصر المدرسي المبكر في القرون الخمسة الأولى

بقلم

أ.د / عصمت نصار

دار الهداية
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

رقم الايداع ٢٠٠٨/١٦١٢٧

الترقيم الدولى 977-5502-87-x

إهداء

إلى اللوجوس في زمن اللغو

إلى المعلم في عصر المتعالمين

إلى المخلّص في دنيا الدنس

أهدي هذه النظرات

تصدير

لما يخطر ببالي مطلقا أن أقوم بتصدير كتاب خارج تخصصي في العلوم اللغوية ذات يوم عملا بالمثل الشائع (أعطي العيش لخبازه ولو أكله كله) ولكنني ما حيلتي وقد فوجئت بأخي وصديقي الأثير د/ عصمت نصار يمنحنى شرف كتابة تصدير لكتابه الجديد نظرات في فلسفة اللاهوت المسيحي، وربما أوقعته في حسن الظن بي تلك المساجلات الدائمة التي لم تتوقف يوما بيننا منذ أن تعارفنا فتزاملنا وتصادقنا فتآخينا فكان نعم الأخ والصديق، وربما يكون ما حفزه لذلك ما لمسه في العبد الفقير إلى المعرفة وصدق النصيحة وأمانة الكلمة فأوكل إلي عبئا تتضاءل قدراتي الفكرية حياله.

وهذه القصة تبدأ منذ وقت قصير بمقياس الزمن، ولكنه كان وقتا ثرا ممتدا إلى أعماق أعماق الماضي فاختصر كثيرا من المسافات وحطم العديد من القيود فجعل العقل هاديا والقلب صافيا لاستقبال الرسالة مكثفة ودقيقة.

لقد دأب صاحب التصدير منذ نعومة أظافره على القراءة في الفلسفة وكان لتخصصه في علوم اللغة المقارنة وفلسفتها علاقة قوية بإعمال الفكر في شتى قضايا اللغة والحياة، أضف إلى ذلك بعدا آخر هو دراساتي وقراءاتي المستمرة في علم الأديان المقارن ومعرفتي الجيدة بعدد من اللغات السامية منها العبرية والسريانية مما مكنني من قراء نصوص العهدين القديم والجديد باللغتين العبرية والسريانية فضلا عن البحوث اللغوية المقارنة في علم النص، وقد ساعدتني سفراتي في الاطلاع على الثقافة الأوربية بشقيها الغربي والشرقي، كل هذا جعلني أفتش في فكر كل من لقيتهم بحثا عما يشبع نهمي في معرفة أوسع ومناقشة القضايا اللاهوتية بعقل واع متفتح، وكدت أفقد الأمل في العثور على

ضالتي لطول رحلة البحث المضنية التي امتدت عشرات السنين حتى التقيته زميلا في نفس الكلية وتحاورنا بلا كلل في سفراتنا الطويلة بين القاهرة وبني سويف ذهابا وإيابا ومازالت حواراتنا الفلسفية والمعرفية المستفيضة مساجلات قصرت أمامها كل المسافات وضاقت أمام استكمالها كل الأوقات وعجزت عن وضع حدود لتنوع موضوعاتها وتشعبها، ومن هنا كانت البداية.

لذلك، كم أتمنى أن يكون تصدير الكتاب على مستوى الكتاب ومؤلفه الذي عرفت دأبه وشغفه بالنقاش والمساجلة عن قرب، فالدكتور عصمت نصار يشغل وظيفة في القلب والعقل أكبر وظائفه الأكاديمية كوكيل كلية الآداب ورئيس لقسم الفلسفة بآداب بني سويف، لما يتميز به من نظرات عميقة وأفكار تنويرية وأدب وتواضع جم في تعليم طلابه واستنهاض العقل بدل النقل، وقبول الرأي الآخر في هدوء تغلفه مسحة الثقة بالنفس في وقت عزت فيه هذه القيم العلمية والأخلاقية.

والكتاب الذي نحن بصدده يتعرض لعدد من المسائل الشائكة - في تصوري - وقد بذل جهدا ضخما في تتبع جزئياته كما يلاحظ في جل مؤلفاته السابقة، إلا أن هذا الكتاب ينماز بخصوصيات العرض الأمين والصادق والموضوعي إلى أبعد درجة في قضايا شائكة يصعب أن يقف المرء منها موقفا حياديا، واستطاع المؤلف باقتدار تنحية التحيز العقدي في مناقشة قضايا المركزية مثل عقيدة الخلاص والفداء والصلب وألوهية المسيح في فترة زمنية مبكرة تجاوزها المفكرون والفلاسفة العرب لاعتقادهم بمحدودية أثرها في المباحث اللاهوتية المسيحية وتهرب من مناقشتها بموضوعية كثير من مفكري الغرب. ومن هذه القضايا: قضية التعاليم الأخلاقية في الكتاب المقدس وعلاقتها بالفضائل العقلية والقيم الاجتماعية، وقضية صحة الأسفار المقدسة، وقضية طبيعة المسيح بين اللاهوت والناسوت، وقضية الخلاص والسعادة

الأبدية باعتبارها قضية محورية في الديانتين اليهودية والمسيحية وإن بعدت الشقة بين منطلقات كل منهما، وقضية السلطتين الإلهية والزمنية، وقضية التأويل وتفسير الآيات الإنجيلية بين الإشراق والعقل، وقضية الهرطقة والخروج على تعاليم الكنيسة والعلاقة بين اللاهوتي والناسوتي والمسيح المخلص والمسيا وإن كنت أري غلبة السرد التاريخي على التحليل في مواضع في الفصلين الأول والثاني وغلبة التحليل على الثالث، وربما يبرر هذا برغبة المؤلف تغطية القصور في هذا الفترة الزمنية.

ويلاحظ أيضا أن المؤلف قد قفز - أحيانا - في رشاقة للابتعاد عن تعميق القضايا الشائكة تفصيليا معطيا القاريء مساحة من الحرية لاستنتاج ما بين الأسطر وراغبا بنفسه عن الدخول في متاهات نقض البنية العقائدية لإحدى الديانات السماوية الرئيسة وما تتضمنه أفكارها ومعتقدات ترتبط بالبنيات الثقافية والاجتماعية والميثولوجية.

ورغم كل القضايا التي حفل بها الكتاب والجهد المبذول في تحليل الخطاب الإنجيلي قراءة نقدية واعية تجلت في تحديد نسقي البنية العقدية لخطاب اللاهوت الفلسفي اليهودي والغنوسي وخطورة النسق الثاني في تفسير العقيدة الكريستولوجية وحصر التيارت الجانحة في اتجاهات ثلاثة : غنوسي وناسوتي وتوفيقي متوسط بينهما وهذا عمل رائع بكل المقاييس إلا أن الأمانة التي ألقيت على عاتقي تقتضي التعبير عما تراءي لي من جوانب غائمة تمنيت أن أجد لها تفسيرا وردودا حاسمة من المؤلف، ومن أهمها أنه قد تكرار مناقشة آراء بعض الشخصيات التاريخية ودورها في أكثر من موضع من فصول الكتاب الثلاثة على طريقة التصعيد التدريجي في درجة المعرفة ولكنه يثير البلبلة لدى القاريء غير المتخصص، وقد لوحظ في مواضع أخرى من الكتاب أن المؤلف كان واعيا وراصدا لدور اليهود في تأليب الامبراطوريات على المستضعفين في الأرض،

ومثال ذلك تحريض الإمبراطورية الرومانية على المسيح الناصري وتلاميذه أمثال القديس بولس منظر العقيدة الكريستولوجية وبطرس ولوقا ويوستينيوس وإيرينيوس وغيرهما، وهذا ما ينقلنا لإشكالية اندماجهم في بنية المجتمع الوثني الروماني ثم في المجتمعات الغربية الأخرى وهو مايطرح تساؤلا عويصا عن مرحلة التحول إلى ثقافة العزلة، التي لم ألحظ في الكتاب أي رصد لها في تلك الفترة الباكرة من تأسيس الفكر اليهودي، فتحول اليهود من الانفتاح والاندماج إلى الانغلاق والحياة داخل الجيتو له أسبابه ومراحله التي كنت أتوق إلى رصد المؤلف لإرهاصاتها الأولى بداية من ظهور المسيح وحتى القرن الخامس الميلادي، ومن الملاحظ أيضا أن المؤلف قد تتبع حرص اليهود على هدم العقيدة المسيحية أكثر من حرصهم على الدعوة للتبشير بديانتهم المغلقة أيضا، وهو ما يحتاج في رأيي إلى وقفة وتحليل لجذورها في هذه الفترة من تاريخ اليهود وعلاقتهم بالإمبراطورية الرومانية الوثنية ثم تحولها إلى المسيحية في القرن الرابع الميلادي.

ومن قراءة هذا الكتاب ومناقشة قضاياه مع المؤلف عدة مرات أرى أنه سيكون إضافة جديدة إلى المكتبة العربية بصفة عامة والمكتبة الفلسفية بصفة خاصة ويفيد منه القاريء والباحث الأكاديمي إفادة كبيرة وسيفتح آفاقا واسعة ويطرح كثيرا من التساؤلات التي ستكون سببا في رعاية دراسات معمقة عن اللاهوت المسيحي لنفس الفترة الزمنية التي شغلت الباحث، وكلي أمل أن تستمكل هذه الموضوعات في أطروحات ورسائل للدرجات العلمية الأكاديمية، متمنيا لأخي وصديقي موفور الصحة والعافية ومحبة في الله من تلاميذه ومريديه وأصدقائه وتفوقا علميا لا تحده حدود.

القاهرة في ٢٠٠٨/٩/٩

أ.د/ أحمد دراج

تقديم

لم تتعرض الأبحاث الفلسفية التي تناولت العصر الوسيط إلى القضايا اللاهوتية التي أثيرت في عصر الآباء اعتقاداً من أغلب الباحثين أن أثرها كان محدوداً على المباحث الفلسفية المسيحية، وأن ميدان دراستها أقرب إلى تاريخ اللاهوت منه إلى تاريخ الفلسفة. وتنزع بعض الكتابات إلى القول بأن المساجلات التي دارت بين رجالات المسيحية الأوائل والمتفلسفين والهراطقة والمجدفين لم تكن وثيقة الصلة بالقضايا الفلسفية التي طرحت في العصر الوسيط، كما أن مثيريها لم يكونوا من الفلاسفة الخلّص، ومن ثم لم تؤسس اعتراضاتهم أو دفوعهم على أسس جدلية فلسفية.

وعندي أن القضايا اللاهوتية مثل (تعاليم الكتاب المقدس الأخلاقية وصلتها بالفضائل العقلية والقيم الاجتماعية، وقضية صحة الأسفار المقدسة، وقضية طبيعة المسيح، وقضية الخلاص والسعادة الأبدية، والسلطة الإلهية والسلطة الزمنية، وقضية التأويل وتفسير الآيات الإنجيلية بين الإشراق والعقل، وقضية الهرطقة والخروج على تعاليم الكنيسة) وغير ذلك من الموضوعات التي حفلت بها القرون الخمسة الأولى للمسيحية وأسفرت عنها ظهور المذاهب العقدية كل ذلك لا يمكن فصله عن قضايا فلسفة العصر المدرسي والوسيط، وذلك لأن معظم رجالاتها اتخذ من النصوص الإنجيلية ورسائل بولس القاعدة الثابتة لمناقشة قضية العلاقة بين الدين والعلم، أو النقل والعقل، ووجود الله ووجود العالم، والحب الإلهي، والخير والشر، ومدينة الله ومدينة الشيطان، أضف إلى ذلك أن القديس بولس ٩ - ٦٧م الذي كتب وحده مائة إصحاح في أربع عشرة رسالة قد انتحى المنحى

الفلسفي في صياغة معظم أفكاره، ويوحنا الإنجيلي الذي كتب الإنجيل الرابع قد ساق عباراته بأسلوب فلسفي مختلف تماما عن الأناجيل الثلاثة السابقة عليه؛ الأمر الذي ينبئ عن درايته بالمناحي الفلسفية وكيفية استخدامها في صياغة الأفكار وطرح الرؤى.

وإذا ما تناولنا متن معظم القضايا اللاهوتية وعلى رأسها قضية الكريستولوجى Christology سوف ندرك أنها لم تطرح على مائدة التساجل إلا للدفاع عن الأصول الإيمانية ضد النزعات الفلسفية وعلى رأسها الغنوسية والمانوية كما أنها انتحلت عين المصطلحات الفلسفية التي كان يستخدمها المتفلسفون في مدرستي أنطاكية والإسكندرية مثل الجوهر والاتحاد والحلول واللوجوس والكلمة والثالوث، أضف إلى ذلك استعانة فلاسفة اللاهوت المسيحي الأوائل بالمنطق من جهة والنظريات الأفلاطونية والأرسطية والرواقية في تفسير وتأويل وتبرير معتقداتهم والدفاع عنها من جهة أخرى. وسوف نتناول في الفصول التالية أهم هذه القضايا للكشف عن أبعادها الفلسفية والعقدية باعتبارها المدخل الذي لا غنى عنه لفهم الفلسفة المسيحية موضحين العلاقة التي تربط بين بنية الخطاب المسيحي في هذه الحقبة والبنيات الثقافية المختلفة التي أثرت تأثيرا مباشرا في مضمونه العقدي والفلسفي.

وخليق بي أن أنبه على أن هذا المصنف يشتمل على مجموعة محاضرات ألقيتها خلال تدريسي لمادة (فلسفة العصر الوسيط) لطلاب قسم الدراسات الإسلامية بكليتي الآداب والمعلمين في جامعة السابع من أكتوبر في الجماهيرية الليبية وطلاب الفرقة الثالثة بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة بني سويف، ونزولا على رغبتهم قمت بطبعها، لذا اعتذر للقارئ عما سوف يجده فيها من الطابع المدرسي في السرد الذي يتميز بالإطناب في

العرض، والإلحاح على الفكرة في المعالجة، والإسهاب في الشرح والاكتفاء بوضع قائمة بأهم المصادر والمراجع في نهاية المصنف، وعدم توثيق المعلومات خلال صفحات الكتاب.

وحسبي في هذا المقام أن أتوجه بالشكر إلي أفضل تلاميذي في هذا التخصص وهو الأستاذ/ محمد أحمد سليمان الذي اصطفيته للقيام بمراجعة متن الكتاب والتعقيب علي مضمونه إيمانا مني بأن القراءة الناقدة هي أفضل السبل لتقويم الكاتب وثقل ملكات المتلقي وما أحوجنا إلي مثل ذلك التواصل بين الأستاذ والتلميذ في منابرنا التعليمية وفي حياتنا الثقافية أيضا.

أ. د عصمت نصار

الفصل الأول

البنية الثقافية لعصر المسيح وظهور نسق جديد

تنزع معظم الدراسات المعاصرة المعنية بدراسة تاريخ الديانات ونشأتها ومراحل تطورها إلى تحليل البنية (*) الثقافية التي ظهرت فيها المعتقدات

* البنية في اللغة: structura, structure هي مجموع الأجزاء أو الأقسام أو العناصر أو المفردات التي تتكون منها الجملة أو العبارة. وبنية الكلمة: ما تشتمل عليه من حروف، الأصلي منها والزائد والساكن فيها والمتحرك . والبنية في اصطلاح الفلاسفة مكونات الفكرة، والسياقات، والأنساق، والعناصر التي تشتمل عليها الخطابات والنظريات وتطلق على مضمون المؤلفات الحاوي للرؤى والتصورات والنزعات المتشابكة. وتحليل البنية بهذه الدلالة يعنى تحديد الأفكار الرئيسة والفرعية والثانوية والأصيلة والمنتحلة في الخطابات بغض النظر عن الحقل المعرفي الذي تنتمي إليه وذلك للكشف عن العلاقات المباشرة وغير المباشرة التي تربط بين هذه الأفكار وقدر تفاعلها مع بعضها وتعين مواطن التأثير والتأثر فيها. أما الخطابات الرمزية والمشفرة فيجب التحفير عن بنيات الأفكار التي انطلقت منها قبل تفسيرها وتأويلها وانتخاب الألفاظ التي تعبر عنها. والفلسفة البنيوية Structuralism لا يفرق أصحابها في قراءتهم للخطابات بين المحور والمركز والهيكل الخارجي والمضمون والمحتوى، والظاهر والباطن، والفوقي والتحتي، الا للكشف عن أبعاد الظاهرة أو الفكرة أو الدلالة. وقد برر تشومسكي وبلومفيلد هذا المنحة في التناول، بالرغبة في التحفير عن البنية العميقة لتلافي خداع البنية السطحية. وعلى هذا الضرب اعتبر جل البنياويين المعاصرين الخطابات العقدية والفلسفية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية والأدبية والأسطورية والفنية مرآة لغوية عاكسة للبنليات الثقافية المحيطة بها من جهة والسمات العقلية والخصال الذاتية والطبائع النفسية لمبدعي الخطابات الكامنة في المضمون من جهة أخرى.

ويعتبر سوسير وليفي شتروس الأنساق المعرفية والمدارس الفكرية والمذاهب العقدية والتيارات السياسية والصور الميثولوجية مجرد خطابات تشتمل على بنيات ثقافية متشابكة بين العقل المبدع والبيئة المحيطة به. ومن ثم يجب قراءة هذه الخطابات بمنحة تحليلي واعي للوقوف على مكوناتها واستيعاب مضامينها والتعامل معها بالتفسير أو بالتبرير أو بالتغير.

وسوف يحاول المؤلف تطبيق المنهج البنيوي في دراسته لقضية الكروستولوجى باعتبارها القضية الرئيسة التي دارت حولها المساجلات اللاهوتية والفلسفية في القرون الخمسة الأولى من ميلاد المسيح وكذا القضايا الفرعية المصاحبة لها (الخلاص والخير والشر، الإيمان والعقل، الوحي والفلسفة، السلطة الدينية والسلطة الزمنية، والتفسير والتأويل) وذلك في ضوء تحليل ثقافة العصر للتعرف على البنات المختلفة التي أثرت تأثيرا مباشرا في موضوع الدراسة مؤكدا على البعد التاريخي في التحفير لتأصيل الأفكار والكشف عن مواطن التأثير والتأثر.

البدائية والتعاليم المقدسة والأنساق الدينية المتكاملة، وذلك للكشف عن مدى علاقة مضمونها بالبنايات السياسية والاجتماعية والعادات والتقاليد الموروثة والمعاهد العلمية والفنون والآداب السائدة وذلك للوقوف على الأثر المتبادل بين جوهر هذه الديانات والثقافة السائدة.

فيؤكد البنيويون على أن الدين كظاهرة اجتماعية يدخل في علاقة تفاعلية مع الوحدات الاجتماعية الأخرى المكونة للمجتمع، وعليه يمكن تفسير أو تأويل الأصول الإيمانية للديانات وقواعدها الشرعية - التي تحدد الحلال والحرام والحسن والقبيح - وكذلك طقوس العبادات في ضوء الطابع الثقافي السائد لأي من المجتمعات بداية من صفات الإله وأقواله المقدسة وانتهاءً بتعاليمه السياسية والاجتماعية والأخلاقية وأثرها في المجتمع. الأمر الذي يمكننا من معرفة الأسباب الحقيقية التي تدفع مجتمع ما للإيمان بالدين، أو جحوده وتكذيبه أو تعديله وتطويعه لانساق أقوى منه. وبناءً على ما تقدم سوف نحاول في الصفحات التالية الوقوف على الأثر المتبادل بين البنايات الثقافية السائدة في عصر المسيح - ولا سيما في المجتمع الروماني - وبين تعاليمه التي وردت في الأناجيل ورسائل بولس تلك التي تمثل الخطاب اللاهوتي العقدي للإله المخلص، محاولين الإجابة عن هذه الأسئلة المطروحة: -

ما هي سمات الإله الذي تحمله العقيدة المسيحية؟ وهل هي تتوافق مع حاجات المجتمع؟ وهل صفات المخلص التي وردت في الكتابات المقدسة كانت مقنعة وملبية لرغبات الصفوة أم العامة؟

هل كان المخلص بطلا سياسيا أم ملكا مشرعا أم أحد الثائرين على الأوضاع القائمة؟ أم جاء خطابه مبررا للواقع؟

هل استطاعت تعاليم المخلص الاجتماعية والأخلاقية تقويم الأوضاع الفاسدة أم اكتفت بالدعوة إلى تغييرها أم تجنبت الخوض في معتركاتها ورغبت عن الصدام ضد السلطات التي تحميها؟

هل المعتقدات والمعارف العلمية والفلسفية السائدة قد أثرت في بنية الخطاب الكريستولوجى؟ وما قدر هذا التأثير والى أي حد كانت فعاليته وخطورته على الخطاب العقدي الجديد؟

* * *

أثر البنية السياسية والعلاقة بين الدين والدولة

لقد شغلت الانقسامات الداخلية وصراع النبلاء على السلطة والحروب الخارجية مع فارس وألمانيا وأسبانيا ومقدونيا وبلاد الغال الحياة السياسية في الإمبراطورية الرومانية قبل عصر المسيح، وامتدت إلى القرون الثلاثة الأولى بعد ميلاده، أضف إلى ذلك طبيعة النظام السياسي الروماني الذي كان يتشكل من ملك ينصب بالانتخاب ويعاونه في الحكم مجلسان هما: مجلس الشيوخ (السناتو) ويتألف من مائة عضو من الأشراف والنبلاء، ومجلس الجمعية الشعبية وكان يتألف من رؤساء القبائل وذلك في الفترة السابقة على عام ٥٠٨ ق.م .فقد رغب الرومانيون عن النظام الملكي، واتخذوا النظام الجمهوري الدستوري عوضًا عنه، وذلك عقب ثورتهم على آخر ملوكهم (تركوينوس سوبربيوس ٥٣٤ - ٥٠٩ ق.م)، عام ٥١٠ ق.م.

وكان الدستور الجديد يقضي بانتخاب حاكمين (قنصلين) يتمتعان بسلطة الملك الكاملة ينصبهما مجلس الشيوخ ويشرف على أعمالهما، الأمر الذي جعل السلطة الحقيقية في يد الأشراف والنبلاء والإقطاعيين الذين تشكل منهم مجلس الشيوخ، وقد بلغ عددهم ثلاثمائة عضو.أما مجلس الجمعية الشعبية فقد أصبح مجلسًا صوريًا، وقد ترتب على ذلك اتساع الهوة بين الطبقة الحاكمة(*) وأفراد الشعب، وتزايد المطامع الاستعمارية فقد خاض الرومان

(*) لقد اشترط التشريع اليوناني على من يتطلع للمناصب العليا في الدولة عدة شروط أهمها أن يكون ملما بالعلوم العسكرية ومقياس ذلك حسن بلاءه في خدمة الجيش والاشتراك في الحروب مدة لا تقل عن عشرة سنوات. ثم يتولى بعد ذلك بعض المناصب الإدارية والشئون المالية وتنظيم الدواوين في الدولة والقضاء لمدة لا تقل عن عام واحد. ثم يعين في مجلس الشيوخ لمراقبة موظفي الدولة وأعمال حكام الولايات. وتوجيه اللوم والاعتراض (فيتو) ضد القرارات التي تتعارض مع مصلحة الشعب بغض النظر عن مصدرها وذلك خلال =

عشرات الحروب في هذه الحقبة لتوسيع نفوذهم والاستيلاء على ثروات جيرانهم وتوجوا غزواتهم الاستعمارية بالحرب البونية الأولى (٢٦٤ :٢٤١) ق.م والثانية (٢١٨ :٢٠١) ق.م والثالثة (١٤٩ :١٤٦) ق.م التي تم لهم فيها الاستيلاء على معظم ممالك العالم ولا سيما مملكة قرطاجنة في شمال أفريقيا. وكذلك الحروب المقدونية التي بدأت (٢١٤:١٤٦) ق.م التي انتهت باستيلاء اليونان علي بلاد الرومان بعد التنكيل بأهلها حرقا وقتلا. ثم استولت بنفس الروح الوحشية الدموية علي بلاد الغال والقوط في فرنسا وأسبانيا. وانتهجت نفس السياسة في قمع المتمردين والساخطين على جور مجلس الشيوخ الروماني واستبداده في حكم الولايات، وقد شن الرومان العديد من الحروب الأهلية لإخضاع الثائرين عام ٨٨ ق.م التي انتهت بقتل أكثر من ثلاثمائة ألف نفس.

ولم يتخل الرومان عن دناءتهم وخستهم في حملاتهم ضد الممالك الآسيوية، التي نهبوا ثرواتها وقتلوا أطفالها وشيوخها وسبوا نسائها وانتهكوا مقدساتها وذلك عام ٦٥ ق.م. ولم تقف سياسة العنف التي استنوها عند هذا الحد بل تجاوزته إلى الصراع الدموي علي السلطة ولا سيما عقب تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ثلاث أقسام: يحكمها ثلاثة قناصل قد اجتمعت

=

عمله في التريبيون – وهو المجلس المنتخب من قبل العامة أعضاء الجمعية الشعبية للدفاع عن حقوق الشعب، وكان بعض أعضائه يعينون من قبل مجلس الشيوخ أو القناصل. وكانت فعاليته تتأرجح بين القوة والضعف تبعا لقوة الصراع بين العامة والنبلاء- ثم يختار من بينهم القناصل وكان مقياس التفاضل بينهم لشغل هذه الوظيفة عراقة النسب وكثرة المال وقوة نفوذ العائلة. وقد تحول هذا النظام إلى دكتاتورية صارمة وذلك عقب ظهور النظام الإمبراطوري الذي جعل من القيصر الإله والمشرع والقائد الذي لا ترد أوامره ولا تنقض أعماله الا بعد وفاته فيعقد مجلس الشيوخ جلسة لمحاكمته وتقييم أعماله فإذا اجتمع الأعضاء على فساده حطموا تماثيله وطمسوا اسمه وأمروا الكهنة بكتابة الأساطير التي تدرجه ضمن الأشرار الخالدين في عالم الجحيم، وإذا حكموا بصلاحه ابقوا على تماثيله وخلدوا اسمه على جدران المعابد وصورته الأساطير على انه أحد المخلصين الربانيين. ومن اشهر القياصرة المؤلهة يوليوس قيصر الذي كان الرومان يقدسونه ويحلفون بقدره في إيمانهم وأغسطس قيصر الذي أكدت الأساطير الرومانية انه شهد وهو يرقى إلى السماء بعد موته. ونيرون قيصر الذي سوف يعود ثانية إلى الأرض لإحياء مجد روما من جديد بوصفه المخلص المنتظر.

فيهم كل الرذائل بداية من غشيان المحارم، ومرورا بالسرقة والنهب والتآمر وتشكيل العصابات الإرهابية، للتخلص من الخصوم، وانتهاءً بشراء أصوات الناخبين ورشوة أعضاء مجلس الشيوخ، الذي لم يسلم أعضائه الستمائة من ذلك المتنفس السياسي القذر. وأقدر من يمثل هذا التردي الأخلاقي (يوليوس قيصر نحو٤٤:١٠٠ ق.م) الذي بدأ قائدًا عسكريًا في الجيوش الرومانية وانتهى به الأمر إلى الانفراد بالحكم وادعاء الألوهية - فنحتت له التماثيل ووضعت صورته في المعابد وشكل لعبادته مجلسًا من الكهنة لجمع القرابين والأضحيات - عقب تهميشه لدور مجلس الشيوخ الذي بلغ أعضائه تسعمائة عضو، وقد حظي بتأييد النبلاء والإقطاعيين رغم سفالته ووضاعة أخلاقه وبشاعة خصاله وقسوته في التخلص من أعدائه وخصومه ومعارضيه، غير أن تماديه في الاستبداد والطغيان، وطمعه في الانفراد بالسلطة قلّب عليه الكثيرين من أعضاء مجلس الشيوخ فتآمروا عليه، وذبحوه داخل بناية المجلس.

ولم تتوقف مخاذي الساسة الرومان بمقتل يوليوس قيصر، ويبدو ذلك في أحداث السلب والنهب واستيلاء حكومة القناصله الثلاثة الثانية (أنطونيوس ٨٣ - ٣٠ ق.م وأكتافيوس وليبيدوس) - التي تولت الحكم خلفا له - على جل أموال أعضاء مجلس الشيوخ بعد قتلهم والتنكيل بأطفالهم وأراملهم وفرض الضرائب على البعض الآخر وبيع غير القادرين على السداد في سوق الرقيق والتمثيل بكل معارضيهم وكان منهم (شيشرون ١٠٦:٤ق.م) الذي جمع بين الأدب والفلسفة في صياغة آرائه السياسية والأخلاقية فساقته انتقاداته للأوضاع السياسية إلى حتفه على يد أنطونيوس. أما الفقراء والمعدمين فقد فضلوا الانتحار خوفا من ويلات العذاب الذي ينتظرهم على يد جنود القناصله الثلاثة، وسرعان ما دارت رحا الصراع

بينهم فتآمر أكتافيوس على أنطونيوس وسلب ملكه بعد هزيمته وانتحاره وزوجته كليوباترا وخضوع الأسكندرية عام ٣١ ق.م للحكم الروماني، وانتهى الأمر بانفراده بالحكم وتنصيب نفسه إمبراطورا بعد إلغائه النظام الجمهوري.

وإذا كانت سياسة قياصرة روما قد عجزت عن تحقيق العدالة والمساواة للشعوب الخاضعة لسلطانها – تلك التي تضمن تماسك الدولة وتدعِّم ولاء الشعوب لها – ولم تفلح كذلك في اقتلاع روح العنصرية الجائرة من قوانينها، وتصرفات حكامها في الولايات الأفريقية والأسيوية، فعلى الجانب الآخر نجحت شخصية المسيح التي عبّرت عنها إصحاحات رسائل بولس، والأناجيل عن فضيلة العدالة والإخاء والمساواة والحب بين سائر البشر، وحققت بذلك حلم ملايين المستضعفين والفقراء والمعدمين الذين كانوا مكرهين على ولائهم لروما، الأمر الذي يبرر إقبال هذه الطبقة على اعتناق المسيحية لتحقق لها خلاصها من جهة وحرص قياصرة روما على تسيس رجالات المسيحية بعد عجزهم عن القضاء عليها في القرون الثلاثة الأولى؛ وذلك لحماية كيان الدولة الذي هدده ظهور المسيحية من جهة أخرى.

وإذا كانت القيم الرواقية والتعاليم اليهودية قد عجزت عن تهذيب خُلُق الحكام الرومانيين وغرس روح التسامح والدعوة للسلام والأخوة العالمية في الرأي العام القائد، فإن المسيحية قد نجحت في صياغة خطاب مضاد تمامًا للواقع المتدني للسياسة الرومانية، ويبدو ذلك في صورة المسيح الإله الذي هبط لتخليص العالم من كل الشرور، وهو الملك الشريف المتواضع نصير المستضعفين وطبيب لمرضى الأبدان والقلوب والزاهد في متاع الدنيا ومبشر الأبرار بمجد ملكوت السماء في مدينة الرب، وهو المواطن المطيع لأوامر الحكام والمستسلم لقضائهم والرافض لكل أشكال التمرد حتى

لو كان الحاكم جائرا والحكم هو الصلب. ويبدو أن هذه الروح المتسامية لم ترق للرأي العام القائد الروماني الذي انتهج سياسة العنف وزعم أن الآلهة تبارك حروب الجيوش الرومانية ونهب ثروات الأغيار، تلك الأفكار المناقضة تمامًا لقول المسيح حبوا أعدائكم.

ومن أهم الأحداث السياسية التي أثرت في الرؤى الفلسفية والعقدية المسيحية انهيار فكرة تمركز دولة المدينة، فمنذ عام ٣١ ق.م ظهرت فكرة العالمية المتمثلة في الإمبراطورية الرومانية لتحل محل العنصرية اليونانية التي شغلت حيزا كبيرا في كتابات أفلاطون وأرسطو، حيث زعم الأخير بأن اليونان وحدهم دون غيرهم القادرون على حكم العالم و (تسييس) شعوبه البربرية من آسيا وأفريقيا؛ الأمر الذي كان وراء ظهور فكرة المواطنة العالمية Kosmopolitanism عند (الكلبيّين) والرواقيين ثم اليهود، ولا سيما في كتابات فيلون الذي ذهب إلى أن اليهودية دين عالمي قادر على احتواء كافة البشر من البرابرة والإغريق من سكان البر والجزر من الأمم الواقعة في الشرق، والأمم الواقعة في الغرب، وأوربا وآسيا، وذلك لأن هذا الدين أسمى من كل الأفكار والنواميس السياسية التي وضعها الحكماء وساسة الإغريق، ثم بعد ذلك تبنّتها المسيحية وسيّما في كتابات القديس بولس.

وإذا ما نظرنا للخطاب السياسي في الأناجيل، سوف نجده اقرب إلى الروح التقريرية الحريصة على عدم الاصطدام بالسلطة، والأبتعاد تماما عن الدعوة لتغير الأوضاع فقد دعا يسوع في الأناجيل إلى طاعة السلطات الرومانية حتى لو كانت أحكامها ظالمة فينبغي الرضوخ للسلطة القائمة ودفع الضرائب دون أدنى اعتراض وذلك لان المدينة الأرضية هي مدينة الشيطان ولا خلاص فيها (أعطوا مال (قيصر) لـ (قيصر) وما لله لله) مرقس ١٢:١٤ متى ٢٢:١٥ لوقا ٢٠:٢٠

وينبغي كذلك على العبيد والفقراء والمعدمين الامتثال إلى قوانين البلاد وتنفيذ الأعمال التي توكل إليهم حتى لو كانت شاقة ولا تطيقها الأنفس (ومن سخرك ميلا واحدا اذهب معه اثنين) متى ٤١:١٥.

ويبدو تأثر الخطاب الإنجيلي بالفكر الغنوسي اليهودي الذي قسم الوجود إلى مملكتين مملكة الإله المحب الخير المتسامح رئيس العالم السماوي، ومملكة الشيطان الشرير المتجبر وزبانيته الذين يسوسون العالم المادي. وقد ربط الخطاب الإنجيلي بذلك بين الخلاص والسعادة الأبدية والعزوف عن هذا العالم الدنيوي والزهد في ملذاته من جهة وبين الشيطان والسلطة والسياسة والشر والمال والظلم والشهوات المادية من جهة أخرى. وقد فطن (مارسيل دي بادو نحو ١٢٧٥ إلى ١٣٤٣م) إلى ذلك الفصل التام بين المملكتين ومن ثم بين الدين والدولة وأوضح أن المسيح لم يعط لتلاميذه السلطة السياسية الزمنية بل وعدهم بالمجد والغبطة بجواره في العالم السماوي. ويضيف ألبير بايه أن مفهوم العدالة في الأناجيل كان ابعد ما يكون عن الدلالة السياسية بذلك المصطلح ويرجع ذلك لمغالاة الخطاب الإنجيلي في قيمة التسامح - فمن لطمك على خدك الأيمن در له خدك الأيسر ولا تشكو للمحكمة، ومن سرق ثوبه عليه أن يترك باق الثياب لسارقه، وإذا شتمك أحد الناس اطلب له المغفرة سبعين مرة، وإذا أردت أن تعاقب الخطاة عليك أن تتطهر أولاً من ذنوبك وخطاياك. وينزع ألبير بايه إلى أن الخطاب الإنجيلي لم يسع إلى إقامة دولة دينية داخل الإمبراطورية الرومانية بل على العكس من ذلك تماما كان حريصا على عدم إعطاء أي رتبة رئاسية أو سلطة كهنوتية سياسية لتلاميذه ولم ينصب أحدهم قاضيا للفصل بين رعاية الكنيسة بل فوض الرأي العام أي الجمهور في ذلك فالقاضي هو الرب وحده أما تقدير الأمور الأرضية فيجب أن يكون بالتشاور بين الاخوة، الأمر الذي يسقط

معه كل نظم البابوية والكهنوت والسلطة السياسية للكنيسة.

ويضيف شارل جنبير أن عزوف المسيحيين الأوائل عن المشاركة في الحياة السياسية والمدنية الرومانية كان وراء ارتياب الحكام الرومان في أمرهم، فقد تقاعس معظم الذين اعتنقوا المسيحية في القرون الثلاثة الأولى عن الانضمام للجيش والإقبال على الاشتغال في الوظائف الحكومية بحجة أن نظام الدولة وثني فاسد وأن ملكوت الرب قادم وأن الدنيا تلفظ أنفاسها الأخيرة وقد رفع القديس ترتوليان شعار (إني قد اعتزلت المجتمع) للتعبير عن رفض المسيحيين للمجتمع الروماني. وقد فرض الرومان على المسيحيين العديد من الواجبات المناقضة لثوابتهم العقدية مثل الاعتراف بألوهية القيصر، وتقديم القرابين للآلهة الوثنية، وسب المسيح، وتمجيد صور الآلهة الوثنية المعبودة، وقد قابل المسيحيون ذلك بالعصيان الذي استوجب من الرومان القتل والتشريد وتوجيه تهمة الخيانة إليهم والتآمر على مصلحة البلاد والاشتراك في حريق روما، وسوف نتناول في الفصل الثاني بعض مظاهر الاضطهاد الذي وقع على المسيحيين من قبل الحكام الرومان. والذي نريد إثباته هنا هو ذلك الفصل التام بين الدين والدولة في المسيحية الأولى، وقد أكدت على ذلك كتابات المدافعين عن المسيحية في هذه الحقبة من أمثال أكليمندوس السكندري وأوريجينوس وترتليانوس ثم تطورت العلاقة بين الدين والدولة على يد (أمبروسيوس ٣٣٩ - ٣٩٧م) وتلميذه أوغسطينيوس.

* * *

البنية الإجتماعية والأخلاقية والحاجة إلى مخلص

كان المجتمع الروماني يتألف من طبقتين هما طبقة الصفوة وكانت تضم الأشراف والنبلاء الأثرياء وكبار التجار وقادة الجيش وكان ينتخب منها مجلس الشيوخ والقناصل وأعضاء التريبيون، أما الطبقة الثانية فكان يمثلها الجنود وصغار الموظفين والتجار. وكان لهاتين الطبقتين حق المواطنة وممارسة الحقوق السياسية، أما المعدمون والمواطنين من حقوق ومعرضين لكل صنوف الظلم والمذلة والهوان. وكان الأشراف يستأثرون الغرباء والعبيد فكانوا غير معتبرين من المواطنين وكانوا محرومين مما كان بكل المناصب الرفيعة ويستولون على غنائم الحروب وينفردون بحق تنصيب القناصل واختيار أعضاء مجلس الشيوخ من بين طبقتهم - كما أشرنا - الأمر الذي جعل في أيديهم سلطة التشريع ووضع الدساتير وسن القوانين وتعين الكهنة وتنصيب الآلهة. وقد أدت كثرة الحروب إلى ظهور طبقتين في الفترة الممتدة من القرن الرابع ق.م إلى القرن الأول الميلادي أولهما طبقة الفرسان وكان يمثلها الجنود الشجعان الأفذاذ الذين جمعوا بين المهارة في القتال وقسوة القلب والوحشية في التنكيل بالأعداء والانغماس في الشهوات والتطلع إلى امتلاك الثروات والأراضي والعبيد، أما الطبقة الثانية فهي طبقة جباة الضرائب الذين نجحوا في تكوين ثروات طائلة خلال أعمالهم التجارية - ولا سيما تجارة السلاح والعبيد - التي كانوا يمارسونها في الخفاء وكان معظم أفرادها من صغار الموظفين - الذين استحالوا بفضل دهائهم واختلاساتهم واشتغالهم بالمضاربة والربا - ومن كبار أصحاب رؤوس الأموال. وقد وحدت المصالح بين الطبقتين الجديدتين وطبقة النبلاء وتآمروا جميعا على

مصالح الشعب ومن صور ذلك سن القوانين التي كانت تبيح للدائنين سجن أو قتل أو استعباد أو بيع أو استئجار العاجزين عن سد الدين، وتحريم زواج العوام والفقراء من النبلاء والأثرياء، ذلك فضلا عن تقديمهم الرشى للكهنة لوضع الأطر الدينية وصياغة الأساطير التي تبرر تصرفاتهم وإقناع الرأي العام أن واقعهم البائس قدر من الآلهة يجب الخضوع إليه والإذعان لصوته الذي ينطق به الحكام والأشراف. وقد حاول العوام مجابهة هذا الجور ومناهضة طبقة النبلاء وذلك عن طريق التمرد والتهديد بالنزوح عن روما وأبرز هذه الحركات تلك التي قام بها المعدمون كانت في عام ٤٩٤ و٤٥٤ و٤٤٨ ق.م والثورة التي قادها سبيريوس ميليوس للمطالبة بتحقيق العدالة والمساواة بين أفراد الشعب وتفعيل دور الجمعية الشعبية وسن قوانين لإنصاف الفقراء والمعدمين والحد من سلطة مجلس الشيوخ غير أن قوة النبلاء والفرسان المتحالفة نجحت في إخماد الثورة وقتل زعيمها عام ٤٤٠ ق.م. ولم تتوقف الثورات خلال الفترة الممتدة من (٢٨٧ - ٦٤) ق.م وكانت تنشد إعادة توزيع الأراضي الزراعية وتحديد ملكية النبلاء وخفض أسعار القمح ورعاية اسر الجنود المتقاعدين والشهداء غير أن القوى المتحالفة عسفت برؤوس قادة هذه الثورات ولم تخضع لمطالبهم، ومن ثم ظل الصراع الدموي والحقد الطبقي وكراهية الفقراء للأغنياء هي السمات السائدة للمجتمع الروماني. أما العبيد فكان واقعهم اكثر ظلمه وأعظم قساوة فكان المواطن الروماني ينظر إلى عبيده على أنهم أشياء وليسوا بشرا وكان القانون يبيح للسادة حرية التصرف في عبيدهم دون أي ضوابط فلا يعاقب النبيل إذا قتل عبدا أما إذا حدث العكس فيأمر بصلب العبد القاتل ورفاقه. وقد راجت في روما تجارة الرقيق وذلك في ظل الحروب المتتالية لقناصلة روما، وهجوم القراصنة على الممالك المهزومة، وأسر من فيها وبيعه والحكم باسترقاق

العاجزين عن سد الديون أو المعارضين لسياسة مجلس الشيوخ. وقد بلغ عدد العبيد الذين استعبدوا بعد الأسر خلال القرن الثاني قبل الميلاد مائة وتسعون ألفا. وتجاوز عدد العبيد الذين بيعوا في سوق روما في يوم واحد المائة ألف، وتراوح ثمن الواحد منهم بين سبعين إلى خمسين قرشا. وعلى الرغم من يأس العبيد من تغير حاضرهم واستسلام معظمهم للواقع المرير الا أن بعضهم تمرد وأعلن العصيان ومن ثم ظهرت العديد من ثورات العبيد في الفترة الممتدة من ١٣٥ إلى ٧٣ق.م وكان اشهرها ثورة اسبارتاكوس الذي جيش اكثر من ١٢٠ ألف مقاتل وهدد أمن روما مطالبا بإنصاف العبيد ووضع قوانين ترفع عنهم وحشية الأسياد وتحرم إلقائهم في حلبات المصارعة مع الوحوش في الاحتفالات أو ذبحهم كأضحيات لاسترضاء الآلهة، وتمنعهم من تعذيبهم خلال ساعات العمل وعلى الرغم من ضراوة المعارك التي خاضها العبيد لتحرير أنفسهم الا أن قوة الظلام كانت اعظم فعاد الأمر إلى أسوأ مما كان عليه، إذ قتل قادة الثوار وصلبوا في الميادين وعاد الباقون إلى أغلال الأسر وقيود العبودية.

وقد صحب هذا الخلل الطبقي تمزق البنية الاجتماعية الرومانية، وتبدو مظاهر ذلك في ثراء النبلاء الفاحش أصحاب القصور الفاخرة الشاغلة بالعبيد والقيان والراقصات والرسامين والشعراء والخطباء والموائد العامرة بمئات الأصناف من الأطعمة، وعلى الجانب الآخر نجد بيوت وأكواخ العوام الشاغرة من الأثاث والطعام، وقد دفع الفقر سكانها إلى بيع أطفالهم واحتراف النساء للبغاء لإسكات صرخات أبنائهن من فرط الجوع ولتسديد ديونهن للمرابين وإنقاذ أنفسهن من الاسترقاق. وقد انعكس هذا الخلل بطبيعة الحال على الأسرة الرومانية، فلم يكن للحب والعطف والتراحم والتآذر والترابط والاحترام وغير ذلك من الفضائل والقيم

الأخلاقية مكانا في البيت الروماني، ويرجع ذلك لعنف الرجال ومجونهم وخلاعة النساء واستهتارهن وخيانتهن وإهمال الأبوين لتربية أبنائهم وتعليمهم وترك هذه المهمة للعبيد في المدارس(*) التي لم تظهر في المجتمع الروماني الا في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد.

وكان المجتمع الروماني ينظر للمرأة في أول عهده نظرة دونية تحط من

---

* لم يهتم الرومان بشئون التعليم ولم تظهر المدارس في روما إلا على يد الغرباء أو الأسرى الذين قدموا إلي روما من الممالك المغلوبة مثل قرطاجنة واليونان وأسبانيا وسوريا والهند ووكانت مبادئ القراءة والكتابة وقواعد الحساب هي التي تدرس في المدارس الأولية، أما العلوم العسكرية فكانت تلقن على يد القادة في المعسكرات. ولم يكن هناك نصيب لتعلم الأدب والخطابة والشعر والفلسفة إلا في أضيق الحدود وذلك في قصور النبلاء على يد الغرباء أيضا، الأمر الذي يبرر ندرة المؤلفات الرومانية في هذه الميادين فلم يظهر في الأدب اللاتيني خلال العصر الجمهوري إلا بعض الأقاصيص الشعبية والقصائد الأسطورية التاريخية التي تمجد الملوك وتمدح الآلهة وبعض المسرحيات الماجنة التي تعكس انحطاط العادات والتقاليد الرومانية، ولم تتطور الآداب والفنون في روما الا على يد حكماء اليونان من أمثال ليفيوس اندرينيكوس عام ٢٧٢ق.م الذي ترجم الاودسة إلى اللاتينية وكتب العديد من المسرحيات على غرار المسرح اليوناني . وقد نجح الأدباء والحكماء اليونان في طبع طبقة الصفوة بطابعهم وأضحت اللغة اليونانية هي لغة المثقفين وقد اعترف بذلك شيشرون والشاعر الروماني هوراس. وقد اثر الأبيقوريون والرواقيون والشكاك والافلاطونيون والارسطيون -في مدرستي أثينا وانطاكيا ثم في مدرسة روما- على المثقفين الرومان منذ القرن الثالث قبل الميلاد ويبدو ذلك في ظهور الكتابات النقدية للسياسة والمعتقدات والأخلاق والعادات والتقاليد الرومانية، الأمر الذي أثار أعضاء مجلس الشيوخ ودفعهم إلى طرد الفلاسفة من روما عام ١٦١ق.م ورغم ذلك لم يستطع الكهنة ولا النبلاء الحد من شغف الشباب الروماني وتعلقهم بالفلسفة، فقد نزح بعضهم إلى أثينا للتلمذ على فلاسفتها واشتري بعضهم مئات الكتب ونقلها إلى روما واستحضر البعض الآخر نفرا من الفلاسفة لتأديب أبنائه، ومن اشهر الفلاسفة الرواقين الذين عادوا إلى روما بعد قرار الطرد هو باناييوس (١٨٠-١١٠ق.م) الذي أثرت تعاليمه الأخلاقية والاجتماعية على شيشرون وسينيكا وماركوس اوريليوس. وقد جابه النبلاء والكهنة الشباب المتفلسف أعضاء جماعة سبيبو بقرارات تقضي بالإعدام على من يتجرأ بنقد الحكام أو السخرية من الآلهة أو مخالفة قانون الدولة في أعمالهم الأدبية. ومن اشهر الشعراء الذين تأثروا بالفلسفة الابيقورية تيتيوس لوكريشيوس كاروس (٩٥-٥١) ق.م وقد ندد في قصيدته (في طبيعة الأشياء) بالفساد المتفشي في العادات والتقاليد الرومانية وتهكم على الآلهة المعبودة . وعلى النقيد منه ظهر الأديب ماركوس كاتيليوس فقد دعا إلى الانغماس في الذات، واتسمت أشعاره بالمجون وشاعر الرومان الأشهر فرجيل (٧١-١٩) ق.م صاحب ملحمة الانياذة. ومن اشهر المؤرخين كايوس سالوستيروس كريسبوس وفارو. ولم يكن لليونانيين الفضل في إثراء الحياة الأدبية الرومانية فحسب بل يرجع إليهم الفضل أيضا في ظهور العلوم والفنون الرومانية وعلى رأسها الطب والنحت والتصوير والعمارة والمسرح.

شأنها بوصفها مخلوق شرير، ومن ثم لا حقوق لها ولا كرامة غير أن هذه النظرة انتفت في ظل اتساع الدولة الرومانية، فأضحى للنساء الكلمة العليا في مختلف طبقات المجتمع، ويعبر عن ذلك قول الأديب الروماني (كاتون الأكبر ٢٣٤ - ١٤٩ق.م) "إن الرجال في جميع أنحاء العالم يحكمون النساء، وأما نحن الرومان الذين نحكم جميع رجال العالم فان النساء تحكمنا". وكانت العلاقة الزوجية شاغرة من الأخلاق والمودة والرحمة فالرباط الوحيد الذي كان يربط بين الزوجين هو المتع الجنسية والمصلحة المادية، وقد صور ذلك الشاعر (ديموستينس٣٨٤-٣٢٢ق.م) "إننا نتخذ العاهرات لذتنا، والخليلات لصحتنا، والزوجات ليلدن لنا أبنائنا الشرعيين". وتشير معظم الكتابات التاريخية إلى ارتباط كل مظاهر الانحطاط الأخلاقي بثراء الطبقة الحاكمة، الأمر الذي حال بين المجتمع وسن القوانين الإصلاحية، فالمشرعون هم الذين ينغمسون في اللذات، وينحطون في الرذائل، ويقيمون الحفلات الماجنة في قصورهم، ويشجعون اللواط، ويغدقون على البغايا الأموال الطائلة، ويشيدون الخمارات وساحات القمار. وعلى الرغم من ذيوع التعاليم الأخلاقية اليهودية المتمثلة في النصوص التوراتية وكذا نصائح الحكماء المصريين من أمثال بتاح حوتب وآني التي حثت على مكارم الأخلاق، والتكافل الاجتماعي، والتضامن الأسرى، وحسن معاملة النساء، وحرمت الزنا واللواط وشرب الخمر والمتاجرة في الأعراض، ووجود نصوص قانونية رومانية تعاقب الزناه بالقتل، إلا أنها لم تستطع إصلاح الحياة الإجتماعية والخلقية المنحطة في جل أنحاء الدولة الرومانية. ولم تمنع الصفوة من التباهي بمغامراتهم الجنسية إلى درجة ادعاء الملوك بأن الآلهة كانت تحل في أجساد آبائهم أو أمهاتهم فتفعل الزنا لإنجاب الأشراف وأعاظم الرجال والنساء، ومن أشهر الأقاصيص ما رواه (الاسكندر الكبير٣٥٦ - ٣٢٣ق.م) عن

نفسه "إن نكتانيبو الثاني آخر فراعنة مصر هرب إلى مقدونيا وعشق أمه أوليمبيا وزنا بها، فكان هو نتيجة هذا الزنا، وادعى أيضا أن الإله آمون كان متقمصا شخصية نكتانيبو".

وقد دونت (كليوباترا ٦٩ - ٣٠ق.م) على جدران معبد أرمنت قصة مشابهة جاء فيها أن الإله آمون قد تقمص جسد يوليوس قيصر زنا بها وقد فضلها بذلك عن سائر الجميلات في عصرها. وكان (ليكرجوس نحو ١١٠٠ ق.م) - المشرع الإسبرطي - يسخر من الرجال الذين يغارون على نسائهم ويحرمون شيوعية النساء وذلك بقوله " إنه من أسخف الأمور أن يعتني الناس بخيلهم وكلابهم، فيبذلوا المال والجهد ليحصلوا منها على سلالات ممتازة، ثم تراهم مع ذلك يحرصون على أن يختص كل منهم بزوجته دون غيره من الرجال، رغم أنه قد يكون شيخاً أو مريضاً أو ناقص العقل". ولم يجرم المجتمع الروماني المثلية الجنسية التي دعا إليها أفلاطون من قبل، فنجد الاسكندر رغم تعدد محظياته وخليلاته يعشق غلاماً وكان يؤثره بصحبته دوما وبكى على موته بكاءً مريراً وقتل الطبيب الذي عجز عن شفائه وأنفق ما يساوى عشرين مليون جنيه على مراسم دفنه وذبح قبيلة برجالها ونسائها وأطفالها قربانا للآلهة لتصفح عن عشيقه. ولم تكن رذيلة الزنا والخيانة والإباحية الجنسية هي علة انحطاط أخلاقيات المجتمع الروماني فحسب بل صاحبها الغش والكذب والسرقة والقسوة وكان نبلاؤهم يبررون ذلك بأنهم يسيرون على دين آلهتهم وملوكهم وقد كتب ديوجين (الكلبي السنوبى ٤١٣ - ٣٢٧ق.م) أنه تجول في شوارع روما بمصباحه ليبحث عن إنسان خلوق عاقل واحد فلم يجد وقد سخر بذلك القول من العادات والتقاليد الرومانية المرذولة.

وإذا ما نظرنا إلى الخطاب الإنجيلي للوقوف على القيم الاجتماعية الأخلاقية التي جاء بها يسوع المسيح لتقويم الواقع فسوف نجده يتوعد

الأغنياء ويعد الفقراء بالنعيم الأبدي فالثروة تقود إلى الجحيم والفقر يقود للملكوت كما ربط بين الظلم والجشع وظلام القلوب ووضح أن العدل لا يستقيم عند الذين يقدسون المال. وقد أثارت هذه التعاليم بطبيعة الحال السلطة الحاكمة الرومانية وكذلك الكهنة الوثنيين وأحبار اليهود من الفريسيين والصدوقيين وأعطت الأمل في الوقت نفسه لاتباعه من الفقراء والمعدمين في أن التقوى والورع والزهد في الدنيا سوف يحقق لهم الخلاص والنعيم الأبدي. وإذا ما أردنا قراءة هذا الخطاب قراءة سياسية اجتماعية سوف نجده اقرب إلى الإقرار بالواقع وتهدئة الأوضاع أي أنه أبعد ما يكون عن الروح الثورية في الإصلاح. وقد اعترفت نصوص الأناجيل بذلك، فبشارة المسيح لم تأت إلا لإنصاف الفقراء في الآخرة حيث الملكوت السماوي للآب "طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله" لوقا ٢١:٦.

وبارك المسيح العلاقة الزوجية وحرم الزنا تماما والعلاقات الجنسية الشاذة ونظر إلى الطلاق على أنه رخصة في الناموس اليهودي لا تعطى إلا لقساة القلوب ووصف المطلقين بغير علة الخيانة بالزناة " كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني. وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني" لوقا ١٦:١٨. كما جعل العذرية أو الرهبانية اختيارا فرديا طلبا للعفة وإهلاكا لشهوات البدن. وقد تعرض الخطاب الإنجيلي كذلك للبنية الاجتماعية، فخص اتباعه بطبقة الفقراء الزاهدين في متاع الدنيا وأمر الأغنياء الذين يطلبون الخلاص بالتنازل عن أموالهم وتوزيعها على الفقراء وقد أراد بذلك إلغاء نظام الطبقات. وجعل معيار الشرف في طاعة أوامر الرب وليس في الأعراق والأنساب غير أن الخطاب الإنجيلي لم يستطع الإفصاح صراحة عن دعوته للمساواة الكاملة بين معتنقي المسيحية بل نجده يعود ويتحدث عن مجتمع السادة والعبيد والملاك والأجراء بنفس الصيغة التقريرية الموافقة

للواقع الروماني ومن الأقوال الصريحة في ذلك "طوبى لذلك العبد الأمين الذي سيجده معلمه ينهض بعمله بأمانة" لوقا ١٢:٤٣ " وتعسا للعبد الخبيث الكسول - للعبد البطال - أن معلمه سيطرحه إلى الظلمة الخارجية" متى ٢٥:٣٠. ويعقب ألبير بايه على هذه التعاليم أنها لم تفلح في رفع الظلم عن كاهل العبيد ولم تنقذ المستضعفين من قسوة العوز والفقر. ولا يستبعد في الوقت نفسه تأثر الخطاب الإنجيلي بالأوضاع السياسية والاجتماعية والأخلاقية القائمة في زمن كتابة الأناجيل أي في الفترة الممتدة من ٧٠ إلى١٤٠ ميلاديا، كما يؤكد أن كتاب الأناجيل لم يستندوا في صياغة التعاليم المقدسة إلى أقوال مكتوبة بل اعتمدوا علي روايات شفهية خاضعة بطبيعة الحال إلى الثقافة السائدة بالإضافة إلى وجهة نظر أصحاب الأقلام المحررة للأناجيل، الأمر الذي يبرر اضطراب العديد من القيم الأخلاقية والرؤى الاجتماعية والتصورات السياسية الكامنة في الخطاب الإنجيلي الظاهر والمستتر على حد سواء.

* * *

البنية الدينية والإله الفادي المتجسد

لقد نجح ساسة الرومان في صبغ حياتهم السياسية بالصبغ الدينية ليسهل عليهم تسييس العوام وإقناعهم بأن كل الأحداث والقوانين والأوضاع الاجتماعية ما هي إلا أقدار ساقتها الآلهة ومن ثم لا دخل للقياصرة ولا للنبلاء فيها لذا كان يجب عليهم الامتثال إلى أوامر الآلهة، وما أكثر الأساطير التي صاغها الكهنة لتقوية الانتماء والولاء للإمبراطورية الرومانية وأشهر هذه الأساطير تلك التي ترد بناء روما إلى الآلهة فتحكى الأسطورة أن روملوس ابن الإله مارس (إله الحرب) وريا سيليفيا أميرة البالونجا حفيدة الإلهة فينوس ربة الحب والجمال قد هبط وقام بتشييد المدينة وتنظيم دروبها وروى أيضا أن الكهنة كانوا يفتشون أحشاء الأضحيات قبل انعقاد مجلس الجمعية الشعبية فإذا وجدوا في أكبادها دنسا يسيؤها فسروا ذلك بأن الآلهة غير راضية عن هذا الاجتماع ومن ثم يجب إلغاؤه وانصراف أعضائه حتى لا تحل عليهم لعنة الأرباب.

أما المعبودات فقد تعددت وتنوعت في المجتمع الروماني تبعا للموروث الثقافي للشعوب الخاضعة لهم، فنجد عبادة الحيوانات والكواكب والجن وأرواح الأسلاف والملوك بجانب أسرة الإله جوبيتر هي السائدة في المجتمع الروماني. وعلى الرغم من ظهور ديانة التوحيد في مصر في عصور ما قبل التاريخ إلا أن الكهنة قد شوهوها بحكاياتهم عن التجليات الإلهية في الوسائط الطبيعية من كواكب وجبال وأنهار ونباتات وحيوانات وطيور ذلك فضلا عن عبادة الفرعون بوصفه ابن الإله، الأمر الذي حشرها في زمرة الديانات الوثنية السائدة في المجتمع الروماني بفضل الأساطير التي صاغها كهنة الرومان للجمع

بين الآلهة المصرية والملوك والقناصلة والقياصرة . وقد انتشرت كذلك ديانة سيبيل الاسيوية (magna mater) إلهة الخصوبة عند الفريجيين وأصبح لها معابد في روما عام ٢٠٤ق.م فأضحت بفضل أساطير الكهنة (الربة الأم) حامية المدن والدول وكانت تنظم الألعاب الرياضية للاحتفال بها، و ديانة مثرا (mithra) الفارسية التي كانت تعبد الشمس باعتبارها مصدر الخير والحقيقة والنار المقدسة وصورة الإله المناقضة لصورة الشيطان اله الشر والظلم وقد انتشرت هذه العبادة في روما في القرن الأول الميلادي.

ويمكننا حصر آمال المتدينين الرومان في ثلاث غايات أولها الوصول إلى إله عالمي يجمع شتات المواطنين ويوجه ولاءهم لخدمة الدولة الرومانية، وثانيها الاهتداء إلى سبيل للتطهر من دنس الخطيئة والخلاص من عذابات الواقع الشاغل بالحروب والظلم والعنف، وثالثها اقتحام المجهول الكامن وراء الموت للتأكد من وجود النعيم الأبدي المنتظر في العالم الآخر.

أما الديانة اليهودية فكان أثرها محدودا للغاية لا يتعدى نطاق مدينة القدس والبقاع المجاورة ذلك فضلا عن المعابد المتناثرة في الإسكندرية وسوريا وليبيا وقد تعددت الفرق اليهودية وانقسمت فيما بينها، الأمر الذي اضعف شوكتهم وقد تعرضت معابدهم للهدم عدة مرات على يد الرومان الذين كانوا يبغضونهم.

وقد اجتهد الكهنة الرومان في نسج الأساطير وتأليف الحكايات للجمع بين كل هذه الآلهة في سياق واحد وقد اطلعوا أيضاً بمهمة تنصيب الآلهة وتحريم الديانات السرية وتوقيع العقوبات على الهراطقة والمجدفين، وذلك تبعا لمصالح السلطة الحاكمة من جهة ومنفعتهم الخاصة من جهة أخرى. وسوف نتناول بشيء من التفصيل أهم المعبودات والديانات ذات الصلة بقضية الكريستولوجى وألوهية المسيح وعقيدة الخلاص.

الثالوث الإلهي الروماني:

لقد أشرنا في السطور السالفة عن الدور الذي لعبه كهنة الديانات في الولايات الرومانية للتوفيق بين الآلهة المعبودة وذلك لتوحيد ولاءات العوام لإخضاعهم لقوانين الدولة، ومن أوضح الصور التي تعبر عن ذلك الثالوث الإلهي الروماني (سيرابيس وإيزيس وهاربوكراتس) . وسيرابيس هو اله روماني مستحدث بعد دمج الكهنة لصفات الإله المصري أوزوريس اله الخير والعدالة والخصوبة وبين خصال الإله ديونسوس وهو اله الخمر أو الفناء أو الحلول الإلهي الذي يخصب الطبيعة، وهو ابن زيوس كبير الآلهة اليونانية وسيملي وهي إحدى الفاتنات البشريات، وقد رويت حوله الأساطير التي جعلت منه إلهاً للسعادة والغبطة والخلاص من الشرور. وقد ظهرت عبادة سيرابيس عام (٣٢٣ ق.م) ثم انتشرت في أنحاء الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني ق.م، وقد ارتبطت عبادته بالعقيدة الأوزورية التي تؤمن بأن التوبة هي طريق الغفران والخلاص والسعادة الأبدية في النعيم السماوي، وجعلت من الحب والتسامح والورع والتنسك أسمى الفضائل الخلقية. ويشير أبكار الثقاف إلى وجود اوجه تشابه بين العقيدة الأوزورية والعقيدة المسيحية ولا يستبعد وجود اثر مباشر من العقيدة الأوزورية على الطقوس والعبادات المسيحية ويرجع ذلك الإيمان بعض الأوزوريين بفكرة الإله المخلص التي وردت في بشارات تلاميذ المسيح ورسائل القديس بولس وذلك في القرن الأول الميلادي الذي كانت فيه هاتين الديانتين من الديانات السرية.

أما الإلهة إيزيس فهي ربة الخصوبة والمياه والوفاء والإخلاص والطهارة في الأساطير المصرية، وقد انتشرت عبادتها في الديانة الرومانية منذ القرن الثالث ق.م، وقد ربط الكهنة الرومان بين صورتها المصرية وبين كل القيم المحمودة للربات اليونانيات من جمال وحب وحكمة وعفة أطلقوا عليها

الربة السماوية، وأقيمت لها التماثيل في المعابد ووضعت حولها الشموع والزهور. ويؤكد أبكار السقاف على تأثر الفكر الجمعي المسيحي منذ القرن الأول الميلادي إلى القرن الرابع بعبادة إيزيس ويبدو ذلك في تقديسهم لمريم العذراء أم المسيح المخلص الإله (حلت مريم محل سيدة السماء إيزيس) .

أما هاربوكراتس فهو الاسم المحرف لحور أو حورس ابن أوزوريس وإيزيس وهو الإله المخلص الذي ولدته أمه ليقضى على مملكة الشر وهو اله النور وحامى أرواح الآلهة الذين تجسدوا في صور بشرية على الأرض في الأساطير المصرية وكانت عبادته جزءا من العقيدة الأوزورية.

ويمضى أبكار الثقاف في مقابلته بين العقيدة الأوزورية والعقيدة المسيحية مبيناً أوجه التشابه بين ألوهية حورس وألوهية المسيح فقد ولد كلاهما من نسل إلاهى وقد صاحب ولادتهما إعجاز الهيّ فقد حملت إيزيس ومريم بوليديهما بنفخة الهية مباركة، وقد تطابقت صورة الربتين (إيزيس ومريم) - تحمل كلا منهما وليدها بين ذراعيها - في المعابد والكنائس. ويرجح أبكار السقاف قبول مدرسة الأسكندرية اللاهوتية فكرة حلول اللاهوت في الناسوت والتوحيد بين الأقانيم الثلاثة للأسرة الإلهية لوجود أصول عقدية لها في التراث الديني المصري.

ولم تقف مقابلات السقاف بين اللاهوت المسيحي والمعتقدات اليونانية والرومانية عند هذا الحد بل يمضي إلى وجود العديد من أوجه الشبه بين قضية الكريستولوجى وعلاقة الآب بالابن وبين فكرة البنوة الإلهية عند اليونان، المتمثلة في شخصية أبولو، إله التنبؤ والعرافة والإلهام والشعر عند اليونان، الذي أنجبه كبير الآلهة زيوس من ليتوس البشرية. وكذا هرقل فهو كائن بشرى قد أنجبه زيوس أيضاً من الكمين وهي إحدى الجميلات البشريات. أما عن اتحاد الناسوت باللاهوت، فيتجلى في العقيدة الأورفية التي تؤمن بأن التطهر

والعزوف تماما عن فعل الشر والإخلاص في التنسك يجعل من الإناس الأبرار آلهة على الأرض يفعلون بقدرتهم ويتحدثون بصوتهم.

كما يشير إلى أن تأليه العذراء في المسيحية كان له جذور أيضاً في الديانة اليونانية والرومانية، ويتمثل ذلك في تقديس العديد من الآلهة العذراوات مثل أثينة وأفروديث العذراء وأرتيميز وكلهن من بنات زيوس في الأساطير اليونانية والرومانية، ونانا العذراء الفرجية والدة أتيس ابن الإله. ولا يستبعد السقاف استعانة القديس بولس بهذه الميثولوجيات في صياغة العقيدة الكريستولوجية التي تضمنتها رسائله الأولى. ولا سيما حديثه عن الخلاص والإله الذي صلب ليفدى البشرية ثم قيامته وصعوده إلى السماء بجوار أبيه الإله رب الأرباب.

وتضيف العديد من الأبحاث المعاصرة المعنية بمقارنة الأديان أن المسيحية لم تتأثر في عقيدتها الكريستولوجية بالثالوث الروماني المقتبس عن الثالوث المصري فحسب بل تأثرت كذلك بالثالوث الهندي المتمثل في (برهما) الإله المطلق السرمدي وهو الأب. و (فيشنو) الطاقة الكونية الخلاقة أو اللوجوس، وهو الابن الذي لديه القدرة على التجسد في صور عديدة و (شيفا) الروح القدس الذي لديه القدرة على الخلق والإفناء، وهو الذي ينفخ من روحه في الأرحام فيمنح الأجنة الحياة، وهو الذي يقبض الأرواح عند الممات، وهو أيضا المخلص الذي هبط إلى الأرض في صورة كرشنا. وقد أطلق الهندوس على هذا الثالوث الإلهي مصطلح Trimurti أي الإله ذو الأقانيم الثلاثة وكانوا يرمزون إليه بثلاثة أحرف هم الألف والواو والميم (أوم) للتعبير عن وحدة جوهر هذه الأقانيم. وقد انتقلت فكرة الثالوث المقدس إلى البوذية وكذلك إلى التاوية وأشهر الآلهة ذات الأقانيم الثلاثة في الأساطير الصينية هو المكون من شانج تى (الامبراطور جاد) ولاوستو وبان - كو خالق العالم. ولا

يستبعد أصحاب هذا الرأي تأثر الديانات السرية بالمعتقدات الهندوسية والصينية في ظل العولمة الثقافية التي سادت العصر الهلينستي الأمر الذي يبرر تواجد فكرة التثليث في معظم الديانات الوضعية في هذه الحقبة.

الإله المخلص:

تنزع بعض الكتابات المعاصرة إلى وجود فكرة المخلص الفادي في العديد من الديانات الشرقية القديمة ومنها الديانة الهندية حيث الإله كرشنا الذي هبط إلى الأرض في صورة بشرية وقد رويت عنه الأساطير أنه ولد من العذراء النقية الطاهرة ديفاكي والملقبة بأم الإله وقد نسبت للإله كرشنا العديد من الأقوال التي تكشف عن المهمة التي تجسد من اجلها الا وهي خلاص العالم من الشرور ومن هذه الأقوال "أنا الواحد العظيم اثبت وجودي بقدرتي وعندما تقل الفضائل وتكثر الرذائل في العالم أبين نفسي واظهر من جيل فجيل لحفظ البار وهلاك الشقي وإعادة الفضيلة إلى الكون"، "و الجهال لا يعترفون بلاهوتيي وبأنني رب كل شئ ويحتقرونني بالناسوت متكلين على الشر والخبث والمكر في طبائعهم فآمالهم وحكمتهم وأفكارهم وطبيعتهم كلها فاسدة أما الرجال ذوو العقول الواعية يتكلون على طبيعتهم اللاهوتية فيعلمون أني الأبدي الكائن قبل كل شئ ويعبدونني بقلوب لا تميل إلى إلهة أخرى". وقد قدس البوذيون بوذا ووصفوه بأنه الإله المخلص الذي تجسد في رحم (مايه) ليخلص الجنس البشري من عجلة الميلاد وتناسخ الأرواح.

ومن الأساطير التي رويت عن بوذا المخلص تلك التي بشرت بمجيئه "يا أيها الأموات زينوا أرضكم لان (بوذيشو مهتو) العظيم سينزل عما قريب من (توسيا) ويولد بينكم فاعدوا كاسين لوقت ظهوره ويقولون أيضا

أن الرحم الذي يحل فيه الإله بوذا ليتجسد إنما هو وعاء فيه ذخيرة وليس أحد من البشر يكون الحمل به كما كان بوذا لانه يحل فيه بغير إفراز... ولما حملته (بهامايا) لم تعد تشتهي (رجلا) وعاشت عذراء". ومن اشهر الابتهالات التي تتلى في المعابد البوذية عن هذه العقيدة "لك التعظيم يا من ظهرت بشكل بوذا المتجسد يا رب الأرض لك المجد يا أيها الإله المتجسد الواحد الأبدي لك الاحترام يا رب الظاهر والرحمة يا مبدئ الأوجاع والأحزان يا اله كل شئ يا حافظ الكائنات يا عالم الرحمة ورمزها يا فادي".

ويضيف علماء مقارنة الأديان أن التشابه بين عقيدة المخلص عند الهندوس والبوذيين لم تؤثر في قضية الكروستولوجى المسيحية فحسب بل أثرت كذلك في كتاب الأناجيل الذين اقتبسوا بعض الأحداث والقصص التي رويت في الأساطير عن كريشنا وبوذا وحكماء الصين والفرس وحاكوها حول شخصية يسوع المسيح مثل المعجزات التي حدثت عند ولادته وحديثه مع الشيطان وقيامته من بين الأموات ثم التنبؤ بالرجعة أو القيامة الثانية في نهاية الزمان لنصرة المستضعفين والقضاء على الشيطان وإقامة العدل وصحبة الأبرار إلى النعيم الأبدي.

وتبرر العديد من الأبحاث المعاصرة اضطهاد كهنة الرومان للعقيدة المسيحية - في القرون الثلاثة الأولى - لتبنيها عقيدة المخلص السيرابيسية والديونيسوسية تلك التي كانت تبعث الأمل في قلوب المعدمين وتشد من أذر العبيد الحالمين بالبطل المنقذ الآتي لرفع الظلم عنهم. فقد أدرك الساسة والكهنة معاً خطورة هذه العقائد السرية على نظام الدولة من جهة والدين القائم من جهة أخرى. ولا سيما بعد ظهور النظام الإمبراطوري الذي جعل من القيصر إلها على الأرض ومن ثم تعبر أوامره عن المشيئة الإلهية التي لا يجحدها الا العصاة والمارقين. ولم يعترف قياصرة الرومان في القرن الرابع

بالديانة المسيحية وجعلها ديناً رسمياً الا بعد تأكدهم من مواءمتها للوضع السياسي القائم فالإله المخلص يعد الفقراء والمستضعفين بملكوت السماء ومدينة الله ويفتح باب التوبة على مصراعيه أمام العصاة والمتجبرين ويأمر المؤمنين بحب الأعداء وينهاهم عن كل أشكال التمرد والعصيان.

اللوجوس والكلمة الإلهية:

تشير الكتابات التاريخية إلى أن (هيراقليطس ٥٤٠ - ٤٧٥ق.م) هو من أوائل فلاسفة اليونان الذين أستخدموا هذا المصطلح بدلالة معرفية صوفية حدسية إشراقية، وقد أضاف على دلالته دلالات لاهوتية أخرى فاللوجوس (logos) هو العقل الأزلي، وهو علة النظام والانسجام في الكون، وهو العدل والخير والجمال، وهو الحقيقة الحاوية للأضداد، وهو القانون الثابت الواعي المسير للأشياء دون أدنى تحول فيه أو تبديل في جوهره، وهو الطاقة الإلهية الأزلية. وقد تبلورت هذه الدلالات في فلسفة أفلاطون وأرسطو وعند الغنوسيين والرواقيين وفيلون وأفلوطين واللاهوتين المسيحيين في القرن الأول والثاني، ووحد الإنجيل الرابع (يوحنا) بين اللوجوس وشخصية المسيح الإله الأزلي الذي تجسد "في البدء كان الكلمة، والكلمة عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه".

اليهودية والمسيح المنتظر:

على الرغم من تعدد الطوائف اليهودية في القرون الثلاثة السابقة على ظهور المسيح إلا أن عقيدة المخلص المنتظر قد وحدت بينها وقد دفع شعور

اليهود بالدونية والمهانة والضعف - في ظل اضطهاد الرومان لهم - إلى ترقب ظهور (المشيح) أو المهدى المنتظر وهو البطل المخلص الذي سوف يأتي لتحرير اليهود من العبودية ويعيدهم من المنفى ويحكمهم بالشريعة فيعم العدل ويسود السلم وتخصب الأرض ويشيد المذبح ويجدد الهيكل ويعقد مصالحة بين ياهوه وشعبه المختار. وكان سفر دانيال هو المرجعية النصية التي يستند إليها اليهود في ترسيخ عقيدة ظهور "المشيح" في نهاية الزمان وقد اختلفوا فيما بينهم على نسبه وسماته وشخصيته. فذهب بعضهم إلى انه داود الملك الذي سوف يبعث من جديد بشخصه وذهب البعض الآخر إلى أن روحه سوف تحل في أحد رجال نسله وقيل انه سليمان الملك أو سميه وقيل انه أيليا النبي اليهودي الغيور على ناموس الرب الذي رفع إلى السماء في عاصفة من نار في مركبة تجرها خيل نارية وترك روحه تحل في أبدان الأنبياء من بعده وقد نسب العهد القديم لشخصية ايليا عشرات المعجزات الخارقة وأطلقوا عليه صفة المشيح الذي سوف يعود في نهاية الزمان لنصرتهم يأتي من بين السحاب ممتطياً أتان شأن كل الأنبياء وقيل أن ميلاده في بيت لحم أو أورشليم. ولم تعترف جل الفرق اليهودية(*) بألوهية المسيح الناصري، ولم تعتبره مخلص آخر

---

* فقد نشأت العديد من الفرق العقدية اليهودية عقب الخلاف الذي شب بين الأحبار حول صحة الأسفار التوراتية ودلالة نصوصها ومن اشهر هذه الفرق الحصيديين أو الحسيديين وهي فرقة باطنية صوفية اعتمدت على الحدس والمعرفة الإشراقية في فهم النصوص التوراتية ويرد إليها المحاولات الأولى للتأويل الرمزي وقد اشتق اسمها من اللفظة العبرية الحصيدي وتعني المجاهد.

وفرقة الفريسيين الذين نعتوا أنفسهم بالفقهاء الربانيين والمفكرين الأحرار والعارفين الحكماء وجمعوا في تعليمهم بين التعالي والكبرياء والتعصب الطائفي وبين مظاهر الزهد والتقشف في الباس الحصيدي والطعام وقد ظهر أحبار هذه الفرقة في عهد المكابيين في القرن الثاني ق.م وقد تظاهروا بحمل لواء المحافظين على حرفية النص وقداسة التعاليم وأداء الطقوس بيد انهم أضافوا العديد من الفرائض على ما ورد في أسفار الشريعة- وذلك في التلمود- وتشددوا في ضرورة التعبد بها مثل تلاوة ستة وعشرين صلاة أثناء غسل الأيدي، وجعلوا تركها ضربا من ضروب المروق الذي يحرم صاحبه من الحياة الأبدية ويحشره في أتون الجحيم وقد اشتهر الفريسيون بحركتهم التبشيرية التي كانت تسعى لنشر اليهودية بين الوثنيين الرومان وكانت تلعن كل من يرفض اعتناق دينهم وتنعته بالنجاسة التي تستوجب القتل والسطو على المال والأعراض. وتنقسم فرقة الفريسيين إلى =

شعبتين اولهما الهلليلين وكانت اقل تعصبا مع الأغيار واكثر اعتدالا في تطبيق الشريعة، وثانيهما شماين وتمثل الاتجاه المحافظ المتعصب الرجعي في العقائد والعبادات. . وعلى مقربة من هذه الفرقة نشأت جماعة الجليليين وكانوا اكثر تعصبا وحدة مع جل الطوائف اليهودية والمذاهب الوثنية على الرغم من تأثرهم بالعديد من تعاليم الأغراب الفريسيين وقد قتل زعيمهم يهوذا الجليلي على يد الرومان في النصف الثاني من القرن الأول ق.م .

أما فرقة القنائيم فقد ظهرت في القرن الأول ق.م وهي طائفة من الفريسيين وتتميز بالعنف والتعصب والشغف بعقيدة المسيح المنتظر.

وفرقة الربانانيين أو الكتبة أو نساخ الشريعة وقد لقبوا بهذه الألقاب لاضطلاعهم بنسخ النصوص المقدسة وحفظ أسفار التوراة وتعليمها وتفسيرها وقد ظهرت هذه الفرقة في أخريات القرن الثالث ق.م ويرد إلى أحبارها كتابة التلمود الذي يشتمل على التعاليم الشفهية لفقهائهم التي قاموا بتدوينها أو التعاليم الإلهية غير المكتوبة التي تنزلت على الأبرار منهم. وقد ادعى المتعصبون منهم أن التلمود أهم من النصوص التوراتية وأن تعاليم حاخاماتهم قد تنسخ الشريعة بعد مناقشة الرب خلال الطرح الروحي الصوفي والاتصال المباشر بالله الذي لا يتأبى الا لعلماء هذه الطائفة. وقد جمعوا بذلك بين تعصب الفريسيين وشطح الحصيديين .

وفرقة الصدوقيين وينسب أحبارها إلى صديق ابن اخيطوب ابن هارون وكانوا على النقيض تماما من الفريسيين في العقائد والعبادات ومن مظاهر ذلك قدرتهم الفائقة على التأقلم مع الغرباء والتملق للرؤساء وتجنب الصدام مع السلطات الحاكمة وذلك عن طريق التظاهر بالخضوع والولاء لهم وقد تملقوا ساسة الرومان لاجتناب غضبهم، الأمر الذي يفسر قوة سلطانهم وسيطرتهم على الكهنوت اليهودي بجانب اشتغالهم بجباية الضرائب في الدولة الرومانية، الأمر الذي عاد عليهم بالثروات الطائلة والحظوة لدى الولاة ويمثل الصدوقون الاتجاه المادي النفعي الدنيوي في الفكر العقدي اليهودي ويبدو ذلك في إنكارهم البعث وخلود الروح وتبنيهم المذهب الأبيقوري في اللذة ولم تؤمن هذه الفرقة الا بالأسفار الخمسة من التوراة وعلى الرغم من ذلك فكانوا يتعسفون في تنفيذ الأحكام التي يصدرها محفلهم الكهنوتي (السنهدريم) ولا يترددون في قتل معارضيهم وقد ظهرت هذه الفرقة في النصف الأخير من القرن الثاني ق.م. وتختلف هذه الفرقة عن فرقة السامريين وهم الذين لم يتقيدوا بكل تعاليم اليهودية وقد عبدوا العديد من الآلهة الوثنية بجانب عبادتهم لإله بنى إسرائيل الأمر الذي يبرر اتهامهم من قبل معظم اليهود بالنجاسة والتجديف، ومنعهم من المشاركة في إعادة بناء الهيكل، وقد أقام كهنة هذه الطائفة هيكلا خاص بهم على جبل الطور يحجون إليه ثلاث مرات في العام وقد تعرض للهدم عدة مرات، ولا يعترف السامريون الا بالأسفار الخمسة وادخلوا عليها العديد من معتقدات وطقوس الديانات الشرقية القديمة، ويعدون السامرة أو نابلس هي الموطن الحقيقي لليهود وليس أورشليم.

فرقة الاسينيين وتمثل التيار الصوفي اليهودي في القرن الثاني ق.م إذ كانت تجمع في تعاليمها السرية بين الفكر العقدي الفريسي والتعاليم الفيثاغورية التي ربطت بين الحكمة العقلية وحياة الزهد والتقشف والمجاهدة الروحية للتطهر والظفر بالخلاص الأبدي، وتختلف هذه الطائفة عن النذيريين الذين كانوا يهبون أنفسهم لخدمة المعابد اليهودية أو تهبهم أمهاتهم قبل ولادتهم لهذا العمل، وكان يوحنا المعمدان من هذه الجماعة التي لا يجمع بين أفرادها الا البتولية والرهبانية والتنبؤ والعمل بالقضاء.

فرقة الابيونيين وهي من اكثر الفرق اليهودية تمسكا بنصوص التوراة وقد دخل أعضائها المسيحية وآمنوا يسوع كمخلص للفقراء والمعدمين وقد هاجمت تعاليم بولس وكل النصوص الإنجيلية التي الهت المسيح وقد ظهرت هذه

الزمان، الأمر الذي يبرر اضطهاد اليهود للمسيح وتلاميذه عند ظهوره، وتسفيههم من أقواله، وتشويههم لصورته، والوشاية به عند الولاة الرومان، وتخويف الساسة من دعوته، ثم وصفهم بولس - المنظر الأول للعقيدة الكريستولوجية - بالمروق والتجديف. وقد صورت الأناجيل العديد من المواقف المحتدمة بين أحبار الصدوقيين والفريسيين من اليهود وبين المسيح، ومن اشهر الأقوال التي كان يرددها الأحبار والعوام عن يسوع الناصري في القرون الثلاثة الأولى إنه "كذاب ومحتال وقد نال جزاء تجديفه فصلب وسكنت روحه في لجات الجحيم بين القار والنار وأن أمه مريم أتت به من العسكري باندارا عن طريق الخطيئة وأن المعابد النصرانية هي مقام القاذورات والواعظون فيها أشبه بالكلاب النابحة".

وترد الكتابات المعاصرة الخصومة القائمة بين اليهود والمسيحيين حول شخص المسيح المخلص (المشيح آخر الزمان) إلى سببين: -

أولها: أن نسب المسيح الأرضي الذي ورد في إنجيلي متى ولوقا يرده إلى يوسف رجل مريم وكان من الزهاد الفقراء أي انه لم يكن من أحبار الصدوقيين أو الفريسيين ومن ثم كان من الطبيعي مهاجمته ومعاداته وقد أوردت الأناجيل بعض المساجلات التي دارت بينهم وبين المسيح تلك التي وصفهم فيها بالنفاق والتعصب ونعتهم بأبناء الأفاعي ومن أقواله في ذلك "على كرسي موسى جلس الكهنة والفريسيون فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا

=

الفرقة في القرن الأول الميلادي ولهم إنجيل خاص كتب بالارمية ولكدت نصوصه على بشرية المسيح.

فرقة الثينيم وهي اقرب للطائفة منها إلى الفرق العقدية إذ كانت تضم الخدم الذين يقومون بتنظيف المعابد ومساعدة الكهنة على أداء الطقوس وكان معظمهم من غير العبرانيين غير انهم كانوا يعاملون معاملة رجال الكهنوت اليهودي. ويرجح المؤرخون أن معظم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية في أول عهدها كانوا من الطوائف الثلاثة الأخيرة.

يفعلون". متى ٢٣ و"أيها الحيات أولاد الأفاعي! كيف تهربون من دينونة جهنم؟ لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء وكتبة، فمنهم تقتلون وتصلبون، ومنهم تجلدون في مجامعكم، وتطردون من مدينة، إلى مدينة لكي يأتي عليكم كل دم زكي سفك على الأرض، من دم هابيل الصديق إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحق أقول لكم: إن هذا كله يأتي على هذا الجيل!" متى ٢٣.

وثانيها: إن اليهود كانوا ينتظرون مشيحا أو مخلصا محاربا قويا يقودهم لقهر جميع الأمم ويعيد مجد سليمان فالمسيا في العقيدة اليهودية صفة كانت تطلق على ملوكهم باعتبارهم نواب الله وخص بها داود - ابن الرب - وأبناؤه كما أطلقت على الأبطال مثل كورش. ثم وسم بها أنبياء اليهود وأكابر الكهنة من الصدوقيين والفريسيين وعندما جاء يسوع الناصري التف حوله اليهود وراحوا يسألونه -بحسب رواية الأناجيل - هل أنت المسيح•؟ هل أنت المخلص ابن المبارك؟ فلم يصرح بأنه المسيح الا لتلاميذه سرا. ولما حاوره أحبار اليهود واطلعوا على تعليمه التي تعكس دعوته للحب والسلم والتسامح، فأدركوا انه ليس الرجل الذي ينتظرون وعلى الرغم من ذلك اجتهد المؤلون المسيحيون في القرون الخمسة الأولى للربط بين شخص يسوع وشخصية المسيا والمشيح التي وردت في العهد القديم. ويضيف أبكار السقاف أن الفريسيين والصدوقيين لم يقتنعوا بان يسوع النجار هو المسيح

•وردت كلمة المسيح في العهد الجديد ٤٥١ مرة وجاء معظمها في سياق روائي خبري يصف يسوع الناصري بأنه المسيح الحي، أو ابن الله، أو ابن الرب، أو ابن الإنسان، أو النبي، أو عبد الله، وقد وردت على لسان بطرس صراحة وهو يصف يسوع بها في حضرته وذلك بقوله "أنت هو المسيح ابن الله الحي" متى١٦:١٦. ولم ترد على لسان يسوع صراحة أي انه لم يقل أنا المسيح الا عقب قيامته ونصح تلاميذه بعدم إفشاء هذا السر وذلك بقوله " وأما انتم فلا تدعوا سيدي لان معلمكم واحد المسيح وانتم جميعا اخوة. ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لان أباكم واحد الذي في السماوات، ولا تدعوا معلمين لان معلمكم واحد المسيح." متى ٨:٢٣-٩-١٠.

المنتظر على الرغم من تأكدهم من انتسابه ليوسف رجل مريم الذي ينحدر من نسل داود وان المسيح لم ينكر هذه الحقيقة بحسب رواية الأناجيل ولكن ضعفه واستسلامه وخضوعه للحاكم الروماني ثم صلبه هو الذي أكد لهم أن يسوع لم يكن سوى أحد القديسين والأبرار والأتقياء شأن يوحنا المعمدان الذي أعلنها صراحة بحسب رواية إنجيل يوحنا انه ليس المسيح المنتظر ولم يصدق الفريسيون أيضا أن مريم كانت حبلى بفعل الروح القدس وذلك لان الرواية قد نسبت إلى صفورة زوجة موسى من قبل. كما يشير ألبير بايه إلى أسباب أخرى كانت وراء جحود اليهود لشريعة يسوع الناصري منها تجرؤه على نسخ الشريعة اليهودية:

فتروى الأناجيل أن يسوع قد أباح لتلاميذه العمل يوم السبت وذلك بقوله ردا على استنكار الفريسيين "السبت إنما جعل لأجل الإنسان، لا الإنسان لأجل السبت". (مرقس ٢:٢٣) و (متى ١٢:١) و (لوقا ٦:١) . وأضف إلى ذلك تهكمه على الطقوس السامرية ولا سيما العماد والتضرع للهيكل والصوم والمبالغة في تنظيف البدن وبين أن السلوك الأخلاقي أهم من أداء الطقوس الشكلية لمن يريد الخلاص وان تطهير النفس هو الأجدر من غسل الجسد فاقبح الرذائل تنطلق من الداخل أي من الأنفس الدنسة والأرواح الشريرة. كما جعل العشاء الرباني والعماد بالروح القدس (الافخارستيا) عوضا عن العماد بالماء اليهودي وقد خالف بذلك التعاليم التي اجتمعت الفرق اليهودية على تقديسها ومن ثم كان من الطبيعي تكذيبهم له والوشاية به عند الرومان.

والجدير بالإشارة في هذا المقام، أن المسيح لم يحاكم على يد الرومان بل حوكم على يد اليهود في السنهدرين(*)، فقد سيق بليل إلى كبير الكهنة

(*) ترجع لفظة السنهدرين إلى الأصل اليوناني sunhedrion وكانت تعني مجلس قضائي أو محفل وقد =

ليحقق معه فسأله عن تعاليمه فأجابه يسوع سل الذين سمعوا مني فطلب كبير الكهنة بعض الشهود من اليهود وعقد جلستين لمحاكمته - كانت الأولى في الهزيع الأخير من الليل وكانت غير رسمية أما الثانية فعقدت في الصباح الباكر - وقد تعرض يسوع قبل الجلسة الرسمية إلى التعذيب واللطم والشتم وكل أشكال الإهانة من قبل الحراس وسفلة اليهود دون أدنى اعتراض منه. وبدأت المحاكمة بالاستماع إلى الشهود فادعى اثنان منهم أن يسوع كان يحرض على هدم الهيكل وانه زعم أن في مقدوره إعادته ثانية في ثلاثة أيام. فاعتبرت المحكمة هذه الشهادة أولى التهم التي وجهت ليسوع فسأله رئيس الكهنة "هل أنت ابن الله؟" فلم يجبه المسيح إجابة قاطعة إذ قال "إن قلت لكم لم تؤمنوا، وان سألتكم لم تجيبوا" فأعاد رئيس الكهنة عليه السؤال، فأجابه المسيح أنت قلت وسوف يجلس ابن الإنسان عن يمين الله ويكتب له المجد فقام رئيس الكهنة معلنا إن المسيح قد جدف وألحد وان المحكمة ليست في حاجة إلى شهود فصاح القضاة إن هذا التجديف يستوجب الموت لصاحبه ثم ساقوه على الفور إلى مقر الحاكم الروماني (بيلاطس البنطي36x) وادعوا أن يسوع كان يحرض الناس على الامتناع عن دفع الجزية، وكان يتآمر على مصلحة البلاد، وانه قد اعترف بتدبيره مؤامرة للاستيلاء على الحكم وإعلان نفسه ملكا على اليهود. بيد أن الحاكم الروماني بيلاطس أدرك أن كل هذه التهم ملفقة وأن يسوع برئ مما نسب إليه ولكنه لم يجرؤ على الحكم ببراءته

=

استخدمت في اللغة الآرمية بنفس المعني، وقد انتحلها اليهود وأطلقوها على مجلسهم الأعلى الذي حاكموا فيه المسيح وتلامذه بوصفهم مجدفين وخارجين على أصول العقيدة اليهودية. ولم يظهر هذا المجلس الا عام ١٩٠ ق.م .و كان أعضائه من الكهنة الصدوقيين والشيوخ (رؤساء الأسباط والكتبة من الفريسيين) وكان يرأسه اعلم الكهنة وأكثرهم حكمة وخبرة بالكهنوت وعلم اللاهوت بالإضافة إلى نشاطه في تسيس شئون الطوائف اليهودية. وكان يطلق علي هذا المحفل ab-beth-din (بيت العدالة) وكان يعقد داخل الهيكل أو بالقرب منه. أما عن سلطاته فكانت متعددة ومعظمها خاص بكيفية تطبيق الشريعة وتفسيرها والفصل في الأمور الفقهية المختلف عليها والحكم بالإعدام على المجدفين وترك التنفيذ للحاكم الروماني.

ولا سيما عقب صيحات اليهود بتهمة جديدة ألا وهي تهيج الجماهير والإخلال بالأمن في الجليل، وقد وجد بيلاطس في تلك التهمة الأخيرة حجة لتفويض (هيرودسx39) حاكم الجليل للفصل في هذه القضية وعلى الفور أرسل إلى هيرودس من يطلب منه حضوره، فحضر مسرعا - لأنه كان موجودا بأورشليم لقضاء عيد الفصح - فراح الأخير يحقق مع يسوع فيما نسب إليه دون جدوى، ولم يجرؤ هيرودس أيضا على الفصل في القضية وإدانة يسوع أو تبرئته فما زالت ذكرى رأس المعمدان التي أمر بقطعها تؤرقه في نومه ويقظته فأعاد القضية ثانية إلى بيلاطس. الذي راح بدوره ثانية يسأل الجماهير المحتشدة من اليهود بأي ذنب اقتله، واقترح عليهم أن يقوم بتأديبه ثم إطلاقه ويعفوا في الوقت نفسه عن شخص يدعى برأبا الذي حكم عليه بالإعدام لارتكابه جريمة القتل، غير أن الجموع طالبت بصلب يسوع فأعلن براءته من دمه وأعلن اليهود "دمه علينا وعلى بنينا" فامسكوا به وراح الجنود الرومان يجلدونه بقسوة فسالت دمائه ثم ساقوه إلى دار الولاية ووضعوا على رأسه إكليلا من الشوك للاستهزاء به وكاد بيلاطس أن يطلق سراحه غير أن كهنة اليهود ذكروه بان قيصر قد تعهد باحترام الناموس اليهودي وأحكام الكهنة في الأمور العقدية وقال رئيسهم "إن يسوع يدعي انه ابن الرب أي يساوي نفسه بقيصر سليل الآلهة كما أننا لا نعترف بملك علينا سوى قيصر". فأمر بيلاطس جنوده بتنفيذ الحكم فساقوا يسوع مع لصين إلى بوابة الجلجلة بأورشليم، وأثناء السير خارت قوى يسوع وسقط مغشيا عليه من فرط الآلام ثم استأنف المسير بعد أن حمل أحد المارة صليبه عنه ثم شده الجنود على الصليب ودقوا في يديه ورجليه المسامير وراح كهنة اليهود يسألونه ساخرين إذا كنت مخلصا حقا فخلص نفسك وإذا كنت ابن الرب فاطلب منه إنقاذك. ولم ينطق يسوع الا بهذه العبارات "الهي اغفر لهم" ثم ردد مقولة

داود في مزموره "الهي الهي لما تركتني؟، يا أبت إليك استودع روحي" ثم سقطت رأسه على كتفه واسلم الروح.

ولا نقصد من سرد أحداث واقعات المحاكمة الا إثبات بعض الأمور أهمها أن اليهود وليس الرومان هم المسئولون عن صلب المسيح، وان التهم الموجهة إليه ترد إلى حقد الكهنة على مكانة يسوع بين الجمهور التي كادت أن تفقدهم سلطانهم وتزعزع عقيدتهم ويبدو ذلك في التهم السياسية التي الصقوها به لاستثارة الولاة الرومان عليه والحكاية من هذه الأوجه لا تختلف عما حدث في محاكمة (سقراط٤٧٠ - ٣٩٩ق.م) فكلاهما كان متهما وهو برئ وكان على الحق وخصومه على الباطل والحفاظ على السلطة هو الدافع الأول للخصومة.

وقد أثارت رواية الصلب والحكايات المترتبة عليها العديد من اعتراضات ونقوض الهراطقة والفلاسفة في القرون الخمسة الأولى ومن اشهر هذه الانتقادات: - غيبة البعد العقدي في هذه القصة ولا سيما عقيدة الخلاص والفداء واستند المعترضون فيما ذهبوا إليه على سلبية حوار يسوع مع خصومه ومحاكميه أثناء التحقيقات ومظاهر الضعف الإنساني التي بدت عليه أثناء تنفيذ الحكم وعدم إعلانه صراحة بأنه ابن الإله المخلص.

وراق للبعض الآخر من الأبيقوريين التشكيك في رواية الصلب والأحداث المواكبة لها مؤكدين على وجود العديد من مواطن الاضطراب فيها ولا سيما إذا ما قورنت بالأحداث السابقة واللاحقة على المحاكمة وسقوط المسيح ويتساءلون أين الجموع المؤيدة للمسيح التي قابلته بالترحاب عند دخوله أورشليم قبيل القبض عليه فقد غابوا تماما عن مسرح الأحداث وما جدوى طلب يسوع من أبيه إعفائه من كأس العذاب والصلب ثم رضوخه بقوله "لتكن مشيئتك لا مشيئتي" وما سر اختلاف الروايات

الإنجيلية حول حوار المسيح مع محاكميه، وهل حادثة الصلب تنبئ عن عظمة ملكوت المسيح وتحث على التفاؤل وتبعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين به وتؤكد خلاصهم أم العكس؟، وما هو الأثر الذي خلفته أحداث ما بعد الصلب؟ فهل دفعت اليهود والرومان للاعتراف بالمسيحية؟، وهل جعلت من المسيح شخصية تاريخية شأن الأبطال والقياصرة؟

وقد حاول بولس ومن بعده علماء اللاهوت الرد على هذه الطعون وانتهوا إلى أن عقيدة الصلب والفداء "الصليب للهالكين جهالة، أما لنا نحن المخلصين فهو قوة الله".

* * *

ونخلص من العرض السابق لأهم ملامح البنية الثقافية الرومانية والخطاب المسيحي الجديد إلى عدة نتائج : -

أولها: انه لا يمكن الفصل بين الصفات الإلهية التي نسبت إلى يسوع المسيح بمنأى عن البنيات السياسية والاجتماعية والأخلاقية وما تحمله من ثوابت ومتغيرات وقيم اجتماعية وأخلاقية، فالإله المتجسد والمخلص الذي ضحى بنفسه من اجل تطهير البشر لم يأت من اجل معالجة الواقع المعيش بل تبشير المستضعفين والمظلومين والمستعبدين بالمجد والسعادة والغبطة في مدينة الله السماوية، كما انه لم يتوعد الظالمين بويلات العذاب الا في العالم الأخروي أيضاً، الأمر الذي يقضى تماما على مفهوم المخلص المنتظر الذي كان راسخا في العقل الجمعي الوثني واليهودي على حد سواء، فقد سقطت فكرة الثورة على سلطة الواقع وتلاشت صورة البطل من مسرح الأحداث وحل محلها الإله المسالم المحب العادل الذي صلب واستسلم لناموس مدينة الشيطان ولكنه انتصر في النهاية بقيامته من بين الأموات وحديثه إلى تلاميذه وتبشيرهم بالمجد الأبدي في العشاء الأخير.

وثانيها: أن حرص الخطاب الإنجيلي على المقابلة بين مدينة الله ومدينة الشيطان، وعالم الأخيار الروحي وعالم الأشرار المادي قد فتح الباب على مصراعيه أمام الفكر الغنوسي بكل أنساقه وجعل عملية الربط بين الجانب اللاهوتي والجانب الناسوتى في شخص المسيح من الأمور غير المقبولة عقليا، ومن ثم لا يمكن البرهنة عليها كما أن وجود هذه الازدواجية في النص دفعت اللاهوتيين إلى التأويل للحيلولة بين إلحاق الشر بالبعد المادي الناسوتى لشخص المسيح. وذلك يبدو بوضوح عند القديس أوغسطين الذي سوف نتناول آراءه في نهاية حديثنا عن هذه القضية.

وثالثها: أن دعوة المسيح إلى حب الأعداء وعدم مقابلة الشر بالشر كانت وراء رفض العقل الجمعي الروماني - الذي ألف الروح القتالية وتعايش في كنف ثقافة العنف - للعقيدة المسيحية. أضف إلى ذلك أن شخصية يسوع - التي صورتها رسائل بولس وشذرات الأناجيل - الملك الإله الذي هبط لخلاص العالم فتآمر عليه الاسافل والجهال فصلبوه وسفكوا دمه شأن اللصوص والعبيد - لا تتناسب مع التصور الجمعي الروماني لجوبيتر أو قيصر أو الكهنة تلك الصورة التي كانت تعبر عن القدرة والعظمة والسطوة والسيطرة لا يمكنها التصديق بان ذلك الذي صلب هو الإله وقد استمرت هذه النظرة الدونية للقيم المسيحية خلال القرون الخمسة الأولى وقد ظهرت بوضوح في الاعتراضات التي وجهها الساسة الرومان لباباوات المسيحية عقب سقوط روما عام ٤١٠م في يد القوط تلك التي جاء فيها أن المبادئ المسيحية لا تصلح لان تكون أساسا تقوم عليه دولة، فدعوتها للامساك عن رد الشر والتسامح يؤدى بالضرورة إلى انهيار أية دولة تأخذ بها. ومن الجلي أن الأمراء المسيحيين الذين آمنوا بقدر كبير بالعقيدة المسيحية هم سبب هذه المصائب الهائلة التي حدثت لروما. وقام القديس

أوغسطينيوس للرد علي هذه الاتهامات وأوضح أن المسيحية لم تأمر المؤمنين بها بالاستسلام للمعتدين ولا الإحسان إليهم أثناء الحرب، بل منعتهم من الاعتداء على غيرهم. وأكد أن علة هزيمة الرومان ترجع إلى فساد نظم الحكم واستبداد النبلاء، وأصحاب الثروات، وشعور المواطنين بالظلم، الأمر الذي اضعف ولاءهم إليها وهي أمور سياسية واجتماعية لا دخل للمسيحية فيها. ويضيف على ذلك أن سقوط روما قدر إلهى يرجع لمشيئة الله العادلة الخيرة وعلى ذلك يجب علينا الوقوف على العبرة والدرس الإلهي الكامن وراء الحدث المتمثلة في دعوة الرب للرومان لكي يخلصوا في إيمانهم بالمسيحية وتحرير أنفسهم من دنس الوثنية، وإصلاح أحوالهم بالحب والتعاون فيما بينهم، الأمر الذي يجعل من مدينتهم خير ممثل لمدينة الله.

ورابعها: أن الخطاب التقريري الذي ساد النص الإنجيلي عند تعرضه للأوضاع السياسية والاجتماعية قد ساهم مساهمة فاعلة في كتابات المدافعين عن المسيحية في القرون الثلاثة الأولى، ولا سيما ترتليانوس الذي ذهب إلى أن المسيح لم يكن ملكا أو بطلا بالمعنى السياسي، كما انه لم يحرض تلاميذه على الثورة أو عصيان الحكام، ولم يشرع في بناء مدينة أرضية، و لم يسن قانوناً مناقضا للقانون الروماني السائد، ولم يمتنع عن دفع الضرائب، ولم يتمرد على أحكام القضاء، الأمر الذي يؤكد أن التعاليم المسيحية لا تشكل أي خطر على أمن الإمبراطورية الرومانية بل على العكس من ذلك فان تعاليم المسيح الأخلاقية والاجتماعية تعمل على تقوية انتماء المواطنين للإمبراطورية. وقد أكد ذلك القديس أوغسطينيوس أيضا واستند على أقوال بولس في رسالته إلى أهل رومية التي جاء فيها "لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة لأنه ليس سلطان الا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم

دينونة فان الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة. أفتريد أن لا تخاف السلطان؟ افعل الصلاح فيكون لك مدح منه لأنه خادم الله للصلاح! ولكن إن فعلت الشر فخف لأنه لا يحمل السيف عبثا إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشر لذلك يلزم أن يخضع له ليس بسبب الغضب فقط بل ايضا بسبب الضمير فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا. إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه. فأعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لمن له الجزية الجباية لمن له الجباية. والخوف لمن له الخوف. والإكرام لمن له الإكرام."بولس إلى رومية ١٣:١ - ٧. وعلى الرغم من اعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية الا أن موقف الكنيسة لم يتغير من الأمور السياسية في القرون الخمسة الأولى، غير أن التطور الذي أضافه أوغسطينوس يبدو في نقله العلاقة بين الدين والدولة من درجة الفصل التام إلى درجة التجاور أي أن المواطن المسيحي يجب أن يخضع لقوانين الإمبراطورية ويمتثل لأوامر الحكام ويدفع ما لقيصر لقيصر وما لله لله شريطة الا تتعارض الأمور السياسية مع ما أمر به الدين وهذا التحفظ الأخير هو الذي يميز كتابات بولس وترتيليانوس عن تصور أوغسطينيوس لعلاقة الدين بالدولة وقد أراد اوغسطنيوس ومن قبله أستاذه امبروسيوس الحد من شعور الاغتراب الذي كان يشعر به المسيحيون تجاه الدولة ويتيح الفرصة لرجال الدين أن يتدخلوا في الأمور السياسة باسم الحلال والحرام والزود عن الشريعة ويطمئن في نفس الوقت النبلاء والأمراء والولاة على سلامة سلطانهم وكراسيهم فالمسيحي لا ينشد ملكوت الدنيا بل المجد في مدينة الله التي يسود فيها السلم والعدل ويحكمها الحب والاخوة الإنسانية. وترى أستاذتنا الدكتورة زينب الخضيرى أن أوغسطينيوس كان واعيا بثقافة عصره لذا لم يستطع حسم القضية أو وضعها في صياغة سياسية دقيقة، فقد دعا المواطنين المسيحيين إلى

المشاركة الإيجابية في الإمبراطورية أي المدينة الأرضية من جهة، وأمرهم بالمحافظة على دينهم والامتناع عن المساهمة في فعل ما يتعارض صراحة مع أوامر المخلص ونصوص الشريعة من جهة ثانية، ونهاهم عن عصيان القوانين أو التمرد على الحكام أو الثورة ضد الأحكام الظالمة إذا ما خالفت الإمبراطورية أوامر الرب والاكتفاء بالدعاء للعصاه وطلب الهداية لهم واقتلاع الشر من قلوبهم بالإحسان إليهم، من جهة ثالثة.

ويترائى لي أن خطاب أوغسطينيوس كان سياسيا من طراز خاص لم يعرف في عصره، ويبدو ذلك في العبارات الفضفاضة التي تحتمل الإيجاب والسلب في آن واحد الأمر الذي مكن رجالات الكنيسة من الهيمنة على الأمور السياسية واقتسام السلطة بينهم وبين الإمبراطور خلال العصور الوسطى وذلك تحت شعار "اعدوا العدة وهيئوا الأرض لاستقبال المسيح العائد لتشيد مدينة الله" الأمر الذي يستوجب استشارة أحباء الرب من الباباوات في المباح والمحظور بداية من العادات إلى تنصيب الإمبراطور فمدينة الله هي الأيقونة التي لعب بها أوغسطينيوس على مائدة الساسة فيجعلها تارة في السماء تنعم بالحب الإلهي في حالة ضعف الكنيسة وعجزها عن مقاومة السلطان، وعندما تتبدل الأحوال وتضعف السلطة السياسية والكرسي الإمبراطوري يضعها تارة أخرى على الأرض فينهض الأباء والأساقفة لتشيد أعمدة مدينة الرب ليتم خلاص الإمبراطورية للعودة في نهاية الزمان.

والجدير بالإشارة في هذا السياق موقف القديس امبروسيوس الذي رفض مصادرة الكهنوت لصالح النظام الإمبراطوري ويبدو ذلك في رده على الإمبراطور ثيودسيوسx395م الذي أراد الانضمام إلى المجامع اللاهوتية بوصفه رئيسا للكهنة ليجمع بذلك بين السلطتين الزمنية والدينية

في يده فقال له القديس امبريسيوس "أن هذه الملابس الأرجوانية تجعل مرتديها أمراء وقياصرة لا كهنة" ويعد هذا الموقف من أهم الدروس السياسية التي أثرت في الفكر السياسي في العصر الوسيط، فيمكن للكاهن - عند القديس امبروسيوس - أن يتولى المناصب السياسية باعتباره حاكما وراعي شعب الرب، المنوط بتأهيل المؤمنين وإرشادهم إلى دخول مدينة الله، أما الحاكم الروماني فلا يمكن أن يصبح كاهناً لأن الروح القدس - التي تمثل الرابطة بين الرب وبنيه من القديسيين - لا تهبط على الأباطرة وأصحاب السلطان، وقد أكد هذا الموقف في منعه الإمبراطور من دخول كنيسة ميلانو للتعبير عن غضب رجال الدين عليه عقب المذبحة التي أقامها عام ٣٩٠م في سالونيك دون استشارة الكنيسة أو تصديقها على حكمه. وقد نجح القديس امبروسيوس منذ هذا التاريخ في تقييد الكنيسة لتصرفات الإمبراطور وأحكامه. أضف إلى ذلك الخطاب الذي أرسله امريسيوس إلى الإمبراطور (فالنس ٣٧٨x) يذكره فيه بأنه خادم للمسيحية ومن ثم لا يجب عليه مناصرة أعدائها من الوثنيين بل منعهم من إقامة شعائرهم الشيطانية ولا تشجيع الهراطقة والفلاسفة الذين يثيرون النقاش والجدل حول العقيدة الكريستولوجية وذكره بان واجبه تجاه أمن الإمبراطورية يلزمه بالدفاع عن المسيحية باعتبارها الدين الرسمي للدولة. ويبدو أن أوغسطينيوس قد استوعب درس أستاذه فجعل الكنيسة هي الممثل الأوحد لناموس الرب على الأرض وما دام الله هو الملك المعبود دون غيره فيجب الانصياع إلى أوامر خلفائه في المدينة الأرضية. وقد انتقل هذا الرأي من طور الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل منذ القرن التاسع الميلادي حيث الإرهاصات الأولى للنظام الباباوي الكاثوليكي الذي بات في العصور الوسطى نظاما جعل من رجالات الدين المصدر الأقوى والسلطة الأعلى لتسييس كل

شئون المجتمع في أوروبا وأمسى الحاكم المدني مجرد موظف عند الكنيسة. وظهرت محاكم التفتيش عام ١٢٢٤م لتقضي تماما على الأصوات المعارضة للسلطة الجديدة فالبابا هو خليفة يسوع الذي اخذ على عاتقه تشيد مدينة الله على الأرض وحصد كل الرؤوس الضالة وتطهير الأنفس الشيطانية بسيف العدالة اللاهوتية.

وإذا ما أردنا تحليل الواقعات التاريخية في العصر الوسيط سوف نجد أن الخطاب السياسي الروماني الذي اتسم بالعنف والديكتاتورية والاطاحية والاستبداد والعنصرية والطبقية بالإضافة إلى الأطماع الخارجية قد ظهر ثانية على مسرح الأحداث في قناع جديد أطلق عليه المسيحية الكاثوليكية فقد عاد يوليوس قيصر في صورة الباباوات الذين كنزوا الذهب وتاجروا في الدين وقمعوا الحريات واضطهدوا الخصوم وجيشوا الجيوش باسم الصليب، الأمر الذي يثبت تهافت الخطاب السياسي المسيحي.

وخامسها: أن المسحة المثالية التي شكلت البنية الأخلاقية في الخطاب الإنجيلي كانت وراء إقبال أصحاب الديانات السرية وفقراء اليهود على الدخول فيها وقد نجحت في تفعيل الخطاب الرواقي والفيثاغوري وقضت تماما في الوقت نفسه على صورة اسبارتاكوس محرر العبيد ووضعت عوضا عنها صورة العبد المتفاني في خدمة سيده المستسلم للمشيئة الإلهية، ذلك الذي سوف ينتصر في نهاية العالم ويسود الجميع في ملكوت السماء وذلك جزاءً عادلاً بطاعته لأوامر الرب، أضف إلى ذلك حرص الخطاب الإنجيلي على فتح باب التوبة أمام العصاه والمذنبين الأمر الذي رغب الخطاة في الخلاص المسيحي الذي يمنح الغفران والغبطة الأبدية للذين يقرون ويعترفون بذنوبهم فقد وجدوا في ذلك الخطاب المتسامح سبيلاً أرحب للرضى الإلهي من الخطاب اليهودي الذي جعل تطبيق الناموس وما تحتويه نصوصه من

عقوبات شرطاً للتطهر والمغفرة.

وسادسها: أن فكرة وحدة الجنس البشري أو الاخوة العالمية التي روجت لها الرواقية واليهودية في سفري التكوين والخروج والمسيحية في رسائل بولس قد تبلورت في كتابات القديس أوغسطينيوس الذي وظف فكرة الحب الأفلاطونية لخدمة المسيحية وذلك للتأكيد على أن الحب هو أساس الوحدة البشرية وأن الانحراف عنه هو الذي يولد البغض والحقد والشر وأن المخلص لم يهبط إلى الأرض الا ليعيد دستور الحب للبشر وإصلاح ما فسد ويهدم قلاع الشر ويبشر بمدينة الله، وقد نجح أوغسطينيوس بذلك في مصادرة الفكرة لصالح النسق العقدي مع تبريره لوجود الموانع السياسية والاجتماعية التي تحول بين وحدة الجنس البشري في منظومة واحدة بالقدر والمشيئة الإلهية التي تحرك التاريخ.

وسابعها: أن مواطن التشابه الواضحة بين شخصية المسيح من جهة والشخصيات الميثولوجية في الديانة الديونيسيوسية والأوزورية والسيرابيسية من جهة أخرى لا يمكن تجاهل أثرها في التصور الكريستولوجي سواء عند اللاهوتيين المحافظين أو عند الهراطقة أو عند الفلاسفة المؤولين، الأمر الذي يؤكد اثر البنية الثقافية على البنية العقدية في القرون الثلاثة الأولى، أضف إلى ذلك انه على الرغم من مناهضة رسائل بولس للمعابد الوثنية وتماثيل الكهنة والقياصرة والطقوس الماجنة والاحتفالات الدينية الموسيقية الا أن الكنيسة لم تستطع تحريم النحت والتصوير والموسيقى والغناء وذلك لرسوخها في البنية الثقافية للشعوب الخاضعة للإمبراطورية الرومانية، وقد تحايلت على ذلك التعارض - بين النصوص المقدسة التي تحرم التماثيل والمعازف وبين الموروث الثقافي - بمصادرة الأخير لصالح الثوابت العقدية وذلك عن طريق توجيه الرسم والأيقونات وجهة إيمانية تعمل على ترسيخ العقيدة في النفوس ومن

أمثلة ذلك جعلها صورة الأرنب البري ترمز إلى الشهوة وقد رسم تحت قدمي العذراء للتعبير عن طهارتها وانتصارها على كل الرغبات المادية. وقد اقتبست الكنيسة هذه الدلالة من العقل الجمعي الروماني الذي كان يحرم أكل الأرنب باعتباره من الحيوانات النجسة، و كذلك في العقيدة اليهودية. ورمزت بصورة التفاح إلى خطيئة آدم وقد اقتبست هذه الدلالة من القصص التوراتية التي تروي أن حواء حملت لأدم التفاحة المحرمة فأكلاها فخرجا من الجنة بيد أن الفن الكنسي قد غير هذه الدلالة فصور المسيح وهو يمسك في يديه تفاحة كاملة للتعبير عن الخلاص وغفران الخطيئة الأولى وإصلاح ما فسد. أضف إلى ذلك استلهام القصص المقدس في الرسم وقد ظهر ذلك بوضوح في الصور والتماثيل التي زينت جدران وساحات الكنائس في اخريات القرن الخامس الميلادي. ويشير زاهر رياض إلى أن المسيحيين الأوائل قد استخدموا الرسم للتعبير عن أيقونات أو إشارات أو كلمة سر تحدد هويتهم وفحوى رسائلهم أو تعيين أماكنهم وذلك خلال سنوات الاضطهاد الأولى التي كانوا يتعبدون فيها سرا داخل السراديب والكهوف. وقد أثارت قضية التبرك بالإيقونات وتعليق الصور في الكنائس خلافا بين اللاهوتيين المحافظين في الإسكندرية والكاثوليكيين الرومان في أوروبا وذلك منذ بداية القرن السابع الميلادي. أما ظاهرة إقامة التماثيل للمسيح والقديسيين وإدخالها في الكنائس أو أقامتها في الميادين فقد ظهرت في الفترة الممتدة من ٣٧٨ الى٤٢٠ م وقد أثارت هي الأخرى جدلا بين اللاهوتيين في القرن الثامن الميلادي. وقد تجاهل المؤيدون لعبادة التماثيل النصوص الصريحة التي حرمت الصور والتماثيل والأيقونات في سفر الخروج ٢٠، ٢، ٥، والتثنية ٤، ٢٥، ٢٦، والمزامير ٩٧، ٩٩، ٦، ٨، وأعمال الرسل ٢، ٢٣، ٢٥ . وإذا ما انتقلنا إلى الموسيقى والغناء فسوف نجد أن آباء الكنيسة قد حاولوا منذ منتصف القرن الرابع الميلادي الربط بين الشعر

والموسيقي بالإنشاد المنغم المستوحى بطبيعة الحال من نصوص العهد القديم والجديد وأقوال الآباء وذلك ليسهل حفظها وإضفاء الطابع الديني على الاحتفالات الاجتماعية والسياسية. ولم يجد المسيحيون الأوائل اعتراضا جوهريا على إدخال الموسيقي في الكنائس ومصاحبتها لأداء الطقوس وذلك استنادا على ما كان يحدث في المعابد اليهودية وقد نجح القديس امبروسيوس وتلميذه القديس أوغسطينيوس ثم القديس (بنديكت٤٨٠ - ٥٤٧م) في إضفاء الطابع الروحاني المقدس على الموسيقي التي كانت تصاحب الصلوات والاحتفالات الدينية وقد عبر عن ذلك القديس أوغسطينيوس في اعترافاته إذ نجده يربط بين جمال الأنغام ودقة العزف والتوقيع وبين الإحساس بالخشوع وانشراح القلب بالإيمان ويقول في ذلك "و أما التراتيل الموقعة على نفس كتابك العزيز وشعائر ديانتك المقدسة، فقد كنت احب أن أنزلها من عواطف قلبي منزلة سامية كما تستحق. وفي الحقيقة إن تلك الآيات المقدسة كنت اشعر بأنها تحرك في نفسي روح الخشوع والتقوى والمحبة، إذا احسنوا ترتيلها واحكموا توقيعها. بخلاف ما إذا جرى العكس".

والذي نريد توضيحه في هذا السياق أن العقيدة الكريستولوجية لم تخل من اثر الموروثات الشعبية المتمثلة في القصص الأسطوري وبعض العادات والطقوس المقدسة بالإضافة إلى الفنون وعلى الرغم من معارضة بعض اللاهوتيين لمعظم هذه المظاهر الا أن الكنيسة قد نجحت إلى حد كبير في مصادرتها جميعا لصالح القيم الإيمانية وذلك بعد تسليمها بعجزها عن تحريمها.

وثامنها: أن اللاهوتيين الأوائل عكفوا على تبرير تجسد الكلمة وذلك بعد عجزهم عن إقناع اليهود في القرون الثلاثة الأولى بان المسيح هو المسيا المنتظر وفشلهم كذلك في دحض الغنوسيين الذين كانوا لا يرون مبررا

لوجود جسد للمسيح. ومن ثم نزع اللاهوتيون المحافظون إلى أن المسيح قد تجسد في صورة يسوع لطمأنة الحيارى وهداية المتشككين في وجوده، حيث كان قبل التجسد في صورته المجردة. فالأنبياء قد أخبروا عن وجود الرب وقد آمن الناس بموجب تصديقهم لهذه الأخبار فحسب "لكن إلهنا الذي احبنا - لما رأى عجزنا وفشلنا في إدراكه - صار إنسان مثلنا" "الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شهدناه ولمسته أيدينا، من جهة كلمة الحياة". ١يو ١:١ فالكلمة التي أرسلت للأنبياء وتجسمت على لوحى العهد أيام موسى هي التي ظهرت ظهور العيان في جسد يسوع وراح أوائل اللاهوتيين يؤكدون على أن الفلسفة لا تستطيع البرهنة على وجود الله أو الوصول إلى الحقائق الإيمانية وذلك لان وسيلتها في الإدراك العقل الذي لا يسلم الا بما ألفه أو قدر على تصوره ومن ثم فأصحاب البصائر الروحية من الأبرار والأتقياء والأصفياء هم اقدر الناس على إدراك حقيقة الرب الكامنة في أنفسهم والاتصال بالمسيح الحي عن طريق الحدس والإشراق والمعرفة الوجدانية. فتواضع المسيح وحبه للبشر ورحمته بهم هي التي دفعته للنزول إلى اليم وخوض الحرب لإنقاذ أحبائه الذين أوشكوا على الغرق وكادت جنود الشيطان أن تسحقهم. تجسد ليخلص ذرية آدم من سقطة أبيهم البشري ويعلن على الأرض السلام ويبعث الأمل في القلوب ويبشر بالملكوت السماوي، وتألم على الصليب ليكتب لنا النعيم في مجده السماوي بعد ما منحه أبوه كل من يرغب في السير على دربه فجعل شرف الانتساب إليه هو التصديق بكلمته "السيد المسيح كلمة الله المتجسد. الكلمة المولودة من الآب ولادة أزلية إلهية. هو ابن الله بالطبيعة، صار لنا أخا بكرا بالجسد وبالتالي صرنا أولادا للآب بالتبني. (... مولودا من امرأة تحت الناموس ليفتدى الذين هم تحت الناموس لننال التبني. ثم بما أنكم أبناء أرسل روح ابنه إلى

قلوبكم صارخا أيها الأب أبانا . إذا لست بعد عبدا بل ابنا وإن كنت ابنا فوارث الله بالمسيح" "فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم اخوة قائلا اخبر باسمك اخوتي وفي وسط الكنيسة أسبحك ...من ثم كان ينبغي أن يشبه اخوته في كل شئ". عب ٢:١٠ - ١٨ والمسيح ليس هو المسيا بالمفهوم اليهودي ولا هو الكلمة اللوغوس بالمفهوم الأفلوطيني ولا هو الجوهر النوراني بالمفهوم الغنوسي بل هو يسوع الناصري الإله الذي خلق العالم والمسيح المخلص صاحب المجد السماوي.

والذي نريده من العرض السابق هو توضيح أن المسيحيين في القرون الخمسة الأولي قد حاولوا إيجاد نسق إيماني يجمع بين صفة المخلص والإله الخالق والنبي وابن الله ونور العالم المتجسد في شخص يسوع الذي ولد من رحم العذراء واتصل نسبه الأرضي بداود الملك، وذلك للتخلص من الموروث الدلالي لهذه الصفات في الحقول الدينية والفلسفية السابقة على ظهور المسيح. ويضيف كريستيان فان نيسبن أستاذ اللاهوت بكلية الأباء اليسوعيين بفرنسا والقاهرة انه لم يكن في مقدور الكنيسة الأولى الاكتفاء بنقد الغنوسيين أو الهراطقة أو الفرق اليهودية أو أصحاب المذهب الروحي الذين يفصلون بين القدرة على الاتصال المباشر بالله عن طريق المجاهدة الروحية وأصول الإيمان المسيحي بل كان لزاما عليهم توضيح الأصول الإيمانية والكروستولوجية الصحيحة وذلك من خلال رسائل القديس بولس، كما بين أن المدافعين الأوائل بداية من القرن الثاني قد رتبوا دفوعهم ترتيبا منطقيا عقليا ويرجع ذلك لإحاطة معظمهم بالفلسفات اليونانية والهلينستية الرومانية ومنهم القديس (يوستينوس نحو ١٠٠ - م١٦٥) الذي نجح إلى حد كبير في جعل الفلسفة مدخلا للإيمان وربط بين اهتداء هيراقليطس وسقراط وأفلاطون إلى الوحدانية وبين الإشراقات والتجليات النورانية للكلمة أو

اللوجوس قبل ظهوره وتجسده. وقد سار على دربه - في الدفاع عن المسيحية ضد اتهامات الهراطقة واليهود وإدعاءات الساسة الرومانيين - كل من أريستيدس وأثيناغورس وأكليمندوس السكندري واورجينوس وأثناسيوس وغورغوريوس العجائبي و (يوسبيوس القيصري نحو٢٦٥ - ٣٤٠) .

وتاسعها: أن علماء اللاهوت المسيحي قد اجتهدوا منذ القرون الثلاثة الأولى في مصادرة جل الثقافات المحيطة لصالح عقيدتهم الكريستولوجية ويبدو ذلك بوضوح في تأكيدهم على الوحدانية ونقض كل الأنساق المعارضة لألوهية المسيح، ويؤكد سانت موس أن علماء اللاهوت المسيحي الأوائل لم يفلحوا في الدفاع عن عقيدتهم الا منذ الربع الأول من القرن الرابع الميلادي وذلك بفضل المجامع المسكونية المؤيدة من السلطة السياسية الرومانية غير انه يعود ويوضح أن المسيحية قد انتصرت على خصومها - اليهود والفلاسفة والوثنيين - ولكنها هزمت إمام الهراطقة والمجدفين الذين عمدوا إلى نقض البناء العقدي من الداخل، وتفكيك الثوابت الايمانية، والتشكيك في المقدس من أقوال الرسل والقديسيين.

وعاشرها: أن مقابلة العقل الجمعي الروماني بين مدينتهم التي تمثل القوة والعظمة والنبل والهها قيصر الذي يعبر عن المجد والسلطان والقدرة المطلقة من جهة وبين مدينة الله السماوية المسيحية التي شيدت للفقراء والمعدمين والمستضعفين وعلى رأسها المسيح المخلص يسوع اليهودي الذي صلب مع اللصوص من جهة أخري كانت من أهم عوامل نفور الرومانيين من المسيحية اعتقادا منهم بأنها تقدم لمعتنقيها صورة مغايرة تماما لطموحاتهم المادية. وقد أكد ذلك حبيب سعيد في حديثه عن علة عزوف الرومان عن المسيحية بقوله"كانت الدولة في نظر العالم الوثني القديم، الخير الأسمى، والمثل الأعلى. ففي خدمتها والولاء لها، تمثلت كل الفضائل الأدبية. لذلك

استعار العالم الروماني عبادة الإمبراطور من بعض العبادات الشرقية القديمة، وجعلت الوثنية هذه العبادة أسمى مظاهر الخلاص والولاء. ففي الإمبراطور الروماني تجسمت فكرة الدولة. وكان المذبح الذي أقيم لعبادته رمزا للقوة الأدبية العليا في الدولة".

***

البنية الفلسفية وقضية الكروستولوجى اللاهوتية

من الخطأ الاعتقاد بأن المدارس والنزعات والاتجاهات الفلسفية التى سادت في العصر الهيللنستي لم تؤثر في بنية النسق اللاهوتي المسيحي وليس أدل على ذلك من كتابات علماء اللاهوت أنفسهم الذين أكدوا أن العديد من رسائل القديس بولس وإنجيل يوحنا قد كتبت للرد على أصحاب البدع والهرطقات من الغنوسيين والأبيونيين والسحرة ومدعي الألوهية والفلاسفة الوثنيين.

ولا غرو في أن المدارس الفلسفية الثلاث قد لعبت دورا كبيرا في النسق اللاهوتي المحافظ وكذا في هرطقات أصحاب اللاهوت الفلسفي الذين وصفوا بأنهم أعداء المسيح وأخيرا في كتابات المؤولين والمفسرين لنصوص الكتاب المقدس وسوف نحاول في الصفحات التالية إبراز مواطن التأثير والتأثر بين الفلاسفة ورجال الدين المسيحي ولا سيما فيما يختص بالقضية الكريستولوجية وطبيعة العلاقة بين الفلسفة والدين.

مدرسة الإسكندرية:

على الرغم من تباين النزعات الفلسفية (الهرمسية، الغنوسية، والأفلاطونية المحدثة، الفيثاغورية المتأخرة، والأرسطية، والأبيقورية، والرواقية) في مدرسة الإسكندرية، إلا أن هذه النزعات سرعان ما تفاعلت مع بعضها البعض وأنتجت نسقا فلسفيا جديدا مفعما بالأساطير والسحر والدين منذ القرن الثاني قبل الميلادي، وذلك بتأثير من الفكر المصري التليد المتمثل في الأقوال المنسوبة إلى الإله المصري تحوت رب الحكمة والفنون ويقابله عند اليونان هرمس، والفكر الغنوسي بتياريه الفارسي والهيلليني، والفكر اليهودي الفيلوني، وقد عبرت عن ذلك كتابات روادها من أمثال:

هيباتيا HYPATIA، وأمونيوس ساكاس AMMONIUS، وأفلوطين، ويوحنا الفيلوني PHILOPONUS، وأولمبيودورس OLYMPIODORUS، ويحصر أستاذنا الدكتور مصطفى النشار خصائص هذه المدرسة في: المزج بين علمية الاتجاه وصوفية الروح، وسيادة النظرة التوفيقية، وشيوع النزعة الدينية وغلبة الروح الشرقية.

وقد أثرت هذه البوتقة الفلسفية في الفكر المسيحي الجديد، ولا سيما في القرون الخمسة الأولي من ميلاد المسيح، ويرجع ذلك إلى التقاء فكرة الخلاص الفلسفية التى صاغها الهرامسة والغنوسيين وأفلوطين مع الفكر اللاهوتي المسيحي الذي يعلّم بعقيدة الفداء وخلاص العالم من الخطيئة الأولي، ورغم وجود ذلك التقارب بين الفكريين الفلسفي واللاهوتي لم يقبل كل منهما المقدمات التى انطلق منها الآخر، فالفلاسفة ينتظرون الخلاص على يد فيلسوف يخلصهم من دنس المادة عن طريق المعرفة والتأمل العقلي، أما اللاهوتيون فمخلصهم هو الإله الذي تجسّد لغفران الخطايا ونشر السلام والمحبة بين البشر وقيادة الإنسانية للسعادة الأبدية عن طريق الإيمان. وقد حاول كل منهما مصادرة الفكرة الرئيسة (المخلّص) لصالح نسقه، وإذا ما حاولنا تقييم محاولات التوفيق بين النسقين فسوف ندرك أن معظمها قد باء بالفشل، إذ نزع التيار الهرمسي والغنوسي والأفلوطيني إلى تطويع وتطوير فكرة المخلص اللاهوتية لتتناسب مع النسق الفلسفي، غير أن التيار اللاهوتي وعلى رأسه القديس بولس رفض هذا المنحى وحكم على أصحابه بالتجديف، وأراد بذلك الفصل بين دائرة الفلسفة ودائرة اللاهوت، وترتب على ذلك ظهور التيار الفلسفي المسيحي المبكر الذي وصفه المحافظون بتيار الهراطقة وأصحاب البدع، وقد نجح هذا التيار في إثارة قضية الكريستولوجي والزج بها في آتون التساجل والتناظر الذي أدى بدوره إلى

ظهور العديد من المذاهب اللاهوتية المتفلسفة، وعندي أن عقيدة الكريستولوجي اللاهوتية المسيحية هي المعضلة الحقيقية التى حالت بين التأليف بين الفلسفة واللاهوت في نسق منطقي متسق الأفكار، وذلك لأن إله الفلاسفة واحد كامل عقل محض سامي مطلق مجرد جوهر أزلي خالد لا يتحول ولا يتجسد، وأن السبيل إلى معرفته والاتصال به هو التأمل، في حين أن الإله اللاهوتي المسيحي يحوي جوهره الابن الذي يشارك الآب في كل صفاته وتجسد لخلاص العالم، وأن السبيل للاتحاد به هو العماد والأفخارستيا، الأمر الذي كان ينظر إليه الفلاسفة على انه درب ميثولوجي أسطوري لا يقبله العقل وأنه لا يضيف جديدا على ما كان يؤمن به الوثنيون ومؤلهي البشر في مصر واليونان أو الهند أو الصين، ويبدو أن التعاليم الأخلاقية المسيحية لم ترق للرواقيين المتأخرين من أمثال (سنيكا نحو ٥ ق.م-٦٥م)، و (أبيكتاتوس نحو ٦٠-١٠٠م)، و (ماركوس أوريليوس ١٢١-١٨٠م) الذين كانوا يسعون لبناء نسق عملي أخلاقي على أسس فلسفية، ولم ترض كذلك التيار الأفلاطوني الذي كان يقوده - آنذاك- أمونيوس ساكاس ولا تلميذه أفلوطين وذلك لأن النسق الإيماني المسيحي قد هبط بالإله إلى الأرض ووحد بينه وبين يسوع المسيح، وهذا يتعارض تماما مع عالم المثل الأفلاطوني الذي ينظر إلى العالم المادي باعتباره زيف أو ظلال باهتة للحقيقة، وأن الإله الذي يمثل الحقيقة الأزلية المطلقة لا يمكن لجوهره المجرد المتفرد أن يتشخص أو يتصل بالمادة، أما النسق الأفلوطيني فالواحد عنده هو الأصل، فالإله هو الذي فاضت منه أو انبثقت عنه الروح الكلي والنفس ومن ثم لا يمكن مساواة جوهر أحدهما بجوهر الإله، وهذا يتناقض مع عقيدة الثالوث أو الأقانيم الثلاثة التى توحد بين جوهر الآب وجوهر الابن وتجعلهما بالإضافة للروح القدس ماهية الإله أو صفاته التى هي ذاته السرمدية.

وإذا ما حاولنا الوقوف على الجانب الإيجابي للصراع بين الفلسفة واللاهوت في هذه الحقبة سوف نجده واضحا في تيار المؤولين والمدافعين عن أصول العقيدة الذين تأثروا بفلسفة فيلون من جهة، وثالوث أفلوطين من جهة أخرى، فقد دفعهم الطابع الفلسفي السائد آنذاك إلى تعلم أصول الجدل وقواعد المنطق لصياغة الدفوع والردود وتأويل النص المقدس لإزالة اللبس والتعارض والغموض، ومن ثم جاءت آراؤهم مفعمة بالروح اللاهوتي العلمي الأفلاطوني، والتفسير الصوفي المجازي، والتأويل الرمزي أما أصول الإيمان الكريستولوجية فقد جعلوا منها مسلمات إيمانية ومن ثم حصروا دائرة التفلسف في وظيفتي التفسير والتبرير " أومن كي أعقل وأعقل كي أومن"، ويبدو ذلك بوضوح عند أكليمندوس السكندري وأوريجانوس اللذين اجتهدا في صياغة العقيدة الكريستولوجية صياغة عقلية تجمع بين الروح الفلسفية والتعاليم اللاهوتية وقد أسسا بذلك فلسفة اللاهوت المسيحي، ولم يسلم أنصار هذا الاتجاه من تهمة الهرطقة التى وجهت إليهم من قبل اللاهوتيين المحافظين.

والجدير بالإشارة في هذا السياق أن التساجل الفكري الذي كان يدور بين الفلاسفة ورجالات المسيحية الأوائل في القرون الأربعة الأولى قد استحال في القرن الخامس إلى صدام وصراع في متنفس من التعصب واستبداد الساسة، الأمر الذي كان وراء اضطهاد فلاسفة الإسكندرية وقتل ونفي بعضهم وإكراه البعض الآخر على الدخول في المسيحية وكان ذلك أثناء حكم الإمبراطور (زينون٤٧٤ - ٤٩١م) وسوف نحاول في السطور التالية توضيح مواطن التأثير والتأثر بين أفكار مدرسة الإسكندرية والفكر اللاهوتي المسيحي، وذلك قبل الخوض في نظريات الهراطقة التى عبرت أصدق التعبير عن ذلك التأثر.

وتعد الهرمسية(*) من أوائل التصورات الفلسفية التى أثرت في بنية العقيدة الكريستولوجية التى حاول صياغتها الهراطقة أو صناع اللاهوت الفلسفي، وقد أشار إلى ذلك (جيوردانو برونو ١٥٤٨ - ١٦٠٠م) الذي كان ينظر إلى الهرمسية على إنها أصل كل الديانات، وبيّن أن حديثها عن أصل الكون يشبه إلى حد كبير ما جاء في سفر التكوين، كما إنها تنبأت بنزول ابن الإله لهداية البشر، وأكد أن إنجيل يوحنا تأثر بصفات المخلص الإلهي التي روته أقاصيصها، الأمر الذي يبرر اهتمام علماء اللاهوت في العصر الوسيط بترجمة متونها إلى اللاتينية على يد (مارسيليو فيشينو١٤٣٣ - ١٤٩٩م) . ولا

* لقد اختلفت الكتابات التاريخية حول تحديد شخصية هرمس الذي ترد إليه التعاليم الهرمسية، فنزع بعضها إلى أن هرمس هو"تحوت" إله المصير والحساب الأخروي والعلم والحكمة والعدالة، وصاحب المعجزات والأفعال الخارقة، وتصوره بعض الأساطير بأنه قلب رع وجوهره وكلمته وهو اللوجوس الذي خلق العالم وسائر الموجودات - عند المصريين-، وقيل أنه أحد الحكماء المصريين الذين اشتهروا بوفرة العلم بمختلف فروعه، وقيل أنه هرمس إله الرعيان والصيد، وراعي شئون التجارة والمسافرين، ومنظم الألعاب الرياضية، ومرشد الأرواح، وطاهي الطعام الرباني الذي يقدم على موائد الخالدين، ورسول زيوس، وابنه من مايا في الميثولوجيات اليونانية، وهو أيضا اله النار عند الرومان. وقد وحد الكهنة اليونانيون بينه وبين الإله المصري تحوت، وقيل أنه هرمس البابلوني الذي عاش في بابل وأعاد بناءها بعد الطوفان، وقد اشتهر بالحكمة وسعة العلم ومقصد الراغبين في تعلم الحساب والموسيقى والهندسة، ذلك فضلا عن الفلسفة، وتذهب بعض الروايات إلى أن هيرقليطس وفيثاغورس قد تتلمذا عليه.

= وذهب الشهرستاني وابن كثير إلى أن هرمس هو إدريس أو اخنوخ أو إيليا صاحب الكرامات والمعجزات الذي سوف يعود في نهاية الزمان في أسفار العهد القديم، وترد بعض الدراسات الفلسفية الفكر الغنوسي والفيثاغوري والأفلاطوني والنظريات الإشراقة إلى التعاليم الهرمسية الأخلاقية .

وقد اختلف المؤرخون أيضا حول زمن كتابة التعاليم الهرمسية، فيرى البعض إنها كتبت في القرنين الأولين للميلاد بينما يرى البعض الآخر إنها كانت روايات شفهية يتناقلها الكهنة المصريون باعتبارها الحاوي لما تبقى من الموروث الديني المصري، وذلك منذ القرن الثالث قبل الميلاد، ويرجح أستاذنا الدكتور النشار أن هذه الروايات الشفهية قد ظهرت إبان القرن العاشر قبل الميلاد، وقد تأثر بها شعراء الإلياذة وكتاب أنساب الآلهة الإغريقية وأحبار اليهود وفلاسفة اليونان ثم اللاهوتيون المسيحيون في مدرسة الإسكندرية التى اختلط فيها الدين والعلم والسحر والفلسفة والتصوف، وانصهروا جميعا في بوتقة اللاهوت المسيحي. وتكشف الدراسات المعاصرة عن إحدى البرديات الهرمسية عام ١٩٩٢م يرجع تاريخها إلى القرن الثالث الميلادي وقد كتبت باللغة اليونانية العامية وتحوي متونها أجزاء من إنجيل: الراعي المنسوب لهيرماس، ويرجح المحللون المعاصرون أن نصوصها مقتبسة من تعاليم هرمس "تحوت" لذا يمكن درجها ضمن الأعمال الهرمسية.

غرو في أن الهراطقة الأوائل من أمثال سيمون الساحر وسرنت وميناندر العراف وكايوس وثيوداس قد تأثروا جميعا بالسحر الهرمسي والطلاسم التى كانت تتلى قبل صنع الخوارق أو استحضار الجن، أما الجانب الأخلاقي والصوفي الذي كان يعتبر الإيمان بالله هو طريق الخلاص والسعادة الأبدية قد تأثرت به تعاليم الآباء اللاهوتيين المسيحيين الأوائل.

وتشير بعض الدراسات المعاصرة إلى وجود العديد من أوجه الشبه بين الأقاصيص التى رويت عن هرمس وبين شخصية يسوع المسيح، وان هذا التشابه قد بلغ حد التطابق في التعاليم الكروستولوجية التى جعلت من المسيح ابن الله وكلمته واللوجوس الذي خلق العالم وظهر في صورة بشرية مع احتفاظه بالطابع الإلهي الذي انبثق عنه، ثم عاد ثانية إلى أبيه الإله بفضل إخلاصه في حبه وعبادته، وهذه الصفات كلها قد نسبتها الميثولوجيات المصرية إلى توت أو تحوت أو هرمس، أضف إلى ذلك حديث الهرامسة عن الأصل الإلهي للنفس البشرية ونظريتي الحلول والاتحاد بين اللاهوت والناسوت وفكرة الخلاص من أسر المادة وفكرة الإنسان الكامل الذي يحمل رسالة الاستنارة وإرشاد الناس لما ينفعهم في دنياهم ويكتب لهم المجد في الآخرة. تلك الأفكار التى تبلورت في اللاهوت الفلسفي الغنوسي وكتابات الأساقفة المؤولين السكندريين في القرن الثاني الميلادي لتفسير العقيدة الكروستولوجية. أما اللاهوتيون المحافظون فلم يقبلوا حديث الهرامسة عن الإله الواحد السرمدي المجرد المفارق الذي لا يتصل بالمادة ولا يتجسد، ولكن الكائنات الروحية التى خلقها هي التى تستطيع ذلك، وأن الوحي والإلهام هما اللذان يجعلان العقل البشري ينطق بكلمة الإله. لأن مثل هذا التصور يتعارض مع قانون الإيمان المسيحي الذي يرى في يسوع ابن الإنسان والمسيح الرباني جوهر الله الواحد بالإضافة للروح القدس.

ولا يقطع كاتب هذه السطور بأن اللاهوتيين المسيحيين الأوائل قد انتحلوا بعض التعاليم الهرمسية بعد اطلاعهم عليها اطلاعا مباشرا ولكن المؤكد وجود أثرها في كتاباتهم عن طريق الغنوسية أو الفيثاغورية أو الأفلاطونية أو الرواقية، ويبدو ذلك في تعاليم أمنيوس ساكاس أستاذ اللاهوتيين المسيحيين المؤولين في مدرسة الإسكندرية.

وتشير بعض الدراسات المعاصرة إلى وجود أثر مباشر للتعاليم الهرمسية على بعض علماء اللاهوت المسيحيين الأوائل من أمثال: إريجانوس وترتليانوس وايرانيوس واثناسيوس، الذين اعترفوا بكتاب: "الراعي" المنسوب لهيرماس المصري وإدراجهم له ضمن الكتب المقدسة التى ترد إلى مصدر إلهي، - وقد ظهر هذا العمل في أخريات القرن الأول الميلادي، وكان يحوي العديد من النصائح والتعاليم الأخلاقية والقصص الرمزي في أقسام ثلاث: "الرؤى"، "والتعليم"، "التشابهات"، وكانت شذراته تحث على الإيمان والصبر والزهد والصدق والعطف على الفقراء والرفق بالضعفاء ومسالمة الأعداء، وكلها تتفق مع وصايا المسيح، غير إنها لم تثر قضية التثليث ولم تتعرض للعقيدة الكريستولوجية، بل جاء في الرؤية الأولى التى رواها هيرماس أن ملك يدعى جبريل أمره أن يعلّم الناس بوجود اله واحد أزلي أبدي وهو الذي خلق العالم بكل ما فيه من موجودات، وطلب منه أيضا تبشيرهم بظهور المخلّص الذي أرسله الله لهدايتهم ويُعرف بورعه وتحلّيه بمكارم الأخلاق وباعترافه بأنه عبد الله ورسوله وكلمته الذي يعمل بإرادته وبعدائه للشيطان وذريته الذين ادعوا النبوة لتضليل الناس وقيادتهم إلى درك الرذيلة ومعقل الشرور. وقد استقبل الآباء الأوائل هذه التعاليم بالإجلال والتقديس وكانوا يعلمون بها قبيل ظهور التعاليم البولسية وشذرات إنجيل يوحنا التى حوت عقيدة التثليث المغايرة لهذه التعاليم فسرعان ما تبدلت

نظرة اللاهوتيين إلى التعاليم الهرمسية عقب صدور قانون الإيمان النيقوي الذي تعارض معها، بيد أن متونها الهرمسية ظلت تتلى في المجالس الخاصة بعد إدراجها ضمن اللاهوت السري الذي لا ينبغي على العوام تداوله أو تناقله ويحذّر على الأساقفة التعليم به.

وإذا ما انتقلنا إلى الغنوسية(*) Gnostizismus سوف ندرك أنها تشكل الجانب الأعظم من فكر الهراطقة ونظرياتهم الكريستولوجية، ولم يقف أثرها عند هذا الحد بل امتد إلى الكتابات المقدسة، ويبدو ذلك بوضوح في إنجيل يوحنا الذي تجمع الدراسات اللاهوتية على انه كتب من أجل الرد على الفكر الغنوسي الذي ذاع في القرن الأول الميلادي، وتشير بعض الدراسات المعاصرة إلى أن القديس بولس قد تأثر بالتيار الغنوسي، ويتمثل ذلك في إلحاحه على تصوير قدر الشر الموجود في العالم بأنه غضب من الإله نتيجة لخطيئة آدم الأولى وأن الخلاص من هذا الشر سوف يتحقق على يد ابنه الذي أرسله لتخليص البشرية ومنح المجد والغبطة والسعادة لاتباعه، ويضيف

---

* ترد لفظة الغنوسية إلى الكلمة اليونانية Gnosis وتعني: المعرفة الباطنية لعلم ما فوق الحس، وقد تطور هذا المصطلح واضحى مذهبا دينيا فلسفيا يؤمن بأن المادة أصل كل شر، وإنها سجن زجت فيه الروح بعد سقوطها من العالم الإلهي، وأن السبيل للخلاص من هذا المصير يكمن في الاستنارة والمعرفة الإشراقة الحدسية الإلهامية والحكمة العقلية والعلم الذي يعينها على العودة إلى أصولها النورانية الطاهرة لتتحد ثانية بالمصدر الإلهي الخير المحض الذي فاضت عنه. وقد اختلف المؤرخون حول أصولها فردها البعض إلى جذور هرمسية مصرية أو إلى الميثولوجيات الفارسية ولا سيما أسطورة كيومرث التي قالت بأصلين للوجود هما يزدان وأهرمن وتؤمن بثنائية الخير والشر ووجود إلهين أولهما: نوراني خيّر سامي متسامح مجرد عن المادة، والثاني: اله شرير يحكم العالم المادي ويقود الشياطين ويخلق الشهوات والغرائز في كل الكائنات، ويردها البعض الآخر للفلسفة الهيللينية وسيما هيرقليطس وفيثاغورس وأفلاطون. وينزع العديد من الباحثين المعاصرين إلى انه من العسير رد الفلسفة الغنوسية إلى ثقافة بعينها أو إلى مصدر واحد وذلك لان فكرة :صراع مملكة الخير والشر، ونورانية الروح، وانبثاق اللوجوس عن اله نوراني خالد، وان تطهير الأرواح الآثمة التي ضلت سبيلها إلى الشهوات الحسية مرهون بقدرتها على العرفان واستقبال الشرارات أو الإلهامات الإلهية بإرشاد من مخلّص، تواترت في جل الثقافات العريقة واصطنعت نسقا مركبا من بنية هاتيك الثقافات في العصر الهللينستي ثم تطورت على يد متفلسفة اليهود وعلى رأسهم فيلون السكندري الذي صبغها بالصبغة اللاهوتية، ثم تلقفها الهراطقة المسيحيون واصطنعوا منها اللاهوت الفلسفي ثم تغلغلت في كتابات المؤولين الذين أسسوا فلسفة اللاهوت.

تشارلز بوتر أن يوحنا صاحب الإنجيل الرابع لم يسلم أيضا من الأثر الغنوسي، ويبدو ذلك في أسلوبه الفلسفي وعبارته الأولى التي أرسى فيها أصول العقيدة الكريستولوجية "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله" وهي مقدمة فلسفية غنوسية، أضف إلى ذلك استخدامه لفظة اللوجوس وهي أيضا من المصطلحات الفلسفية التي استخدمها فيلون في تأويلاته لأسفار التوراة. كما أن أعمال الرسل المنسوبة إلى لوقا لم تسلم من الأثر الغنوسي ولا سيما بعد الإضافات والتعديلات التي قام بها ماركيون زعيم الغنوسية في منتصف القرن الثاني الميلادي إذ حرص على إبراز البعد اللاهوتي في شخص يسوع وأهمل الجانب الناسوتي منه لأنه كان يعتقد بان جسد المسيح كان نورانيا غير مادي وإن بدا في صورة بشرية، ويضيف جون لوريمر أن خطر الغنوسية على المسيحية لم يكمن في كونها ديانة منافسة لها في أيامها الأولى، ولكنه يكمن في تسللها إلى أقلام اللاهوتيين الذين وضعوا أصول العقيدة، وقاموا بتفسير النصوص المقدسة.

وإذا ما انتقلنا إلى الأثر الفيثاغوري سوف نجده بوضوح في مقولة فيثاغورس: " أن الأرواح تنقسم إلى آلهة وبشر وأناس متألهة وبين هؤلاء وأولئك أرواح ليست آلهة وليسوا بشر". تلك التى طورها الفيثاغوريون المتأخرون في القرن الأول الميلادي، ويبدو ذلك في ادعاء بعض الكهنة الفيثاغوريين الألوهية وأن روح الإله قد حلت في أجسادهم وأن أرواحهم البشرية اتحدت بالروح الكلي الإلهي ومن أشهر هؤلاء (أبولونيوس الطواني ٤ - ١٠٤م) الذي يرد إليه بناء نسق اللاهوت الفلسفي في الفيثاغورية الجديدة(*)، وقد نسبت إليه مقولات رائعة في الحكمة العقلية والتعاليم

(*) الفيثاغورية الجديدة أو الفيثاغورية المتأخرة مصطلح أطلقه المؤرخون المعاصرون على الحركة الفلسفية التي جمعت بين الهرمسية الغنوسية الفارسية والميثولوجيات الهندوسية وفلسفة أفلاطون وأرسطو والرواقية واللاهوت اليهودي بجانب تعاليم فيثاغورس التي ألفت بين الحكمة العقلية والرياضيات (الحساب والفلك =

الأخلاقية صاغها في ثماني وتسعين رسالة، بالإضافة إلى المعجزات والتعاويذ السحرية الأمر الذي كان وراء ظهور الدراسات المقارنة بين شخصية المسيح وشخصية أبولونيوس الطواني.

فذهب رالستون سكينار في كتابه: " أبولونيوس والمسيح" إلى وجود تشابه كبير بين ما روي عن الفيلسوف الفيثاغوري ويسوع الناصري يصل إلى درجة التطابق، ويستنتج من ذلك أن القصص الواردة حول شخصية المسيح في العهد الجديد قد تأثرت بكتابات المؤرخ فيلوستراتوس عن أبولونيوس، ولا سيما تلك التى تروي قدرته على إحياء الموتى وشفاء المرضي ومخاطبة الطيور والرياح وتسييرهم وفق رغبته ...ألخ، ذلك فضلا عما روي عن أمه التى تجلى لها الإله واخبرها إنها سوف تلد ابنا من روحه أو عقله أو نفسه وكلمته، وإنها سوف تحمل به مثل سائر النساء ولكن ما يميزه عن البشر هو

=

والموسيقى والهندسة) والتنسك والتأمل الروحي والسحر والعرافه تلك التعاليم التي ظهرت في القرن الأول قبل الميلاد، ويعد انتيخوس العسقلاني وبوسيدونيوس١٣٥-٥١ق.م ويولس مينديس وفارو ١١٦- ٢٧ق.م ونجيديوس فيجليوس ٩٨- ٤٥ق.مإيدورس السكندري ٢٥ق.م من أشهر رجالها، وتشير الدراسات المعاصرة أيضا إلى أن هذه الحركة - الفيثاغورية الجديدة - لا ينبغي النظر إليها على أنها حركة إحياء لتعاليم فيثاغورس بل الأصوب اعتبارها امتدادا لها، فالفيثاغورية لم تندثر في القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد بل ظلت كسابق عهدها جماعة سرية انعزالية. وتؤمن الفيثاغوريه بوجود اله واحد خير مفارق للعالم حكيم ومدبر وان التنسك والتحلى بالفضائل الاخلاقيه فى العمل وحب الحكمه وطلب العلم من اقدر الوسائل التى تمكن الإنسان من الاتحاد بالله أو ترفعه إلى درجه الالوهيه وكان فيثاغورث يؤمن بالقدر بوصفه العلم الالهى والاراده الحكيمه المدبره للكون وينظر للسحر والتكهن والعرافة والقدرة على صنع المعجزات على انها منح الاهيه لا ينبغى على من يدركها ان يسيء استخدامها .

وقد طور الفيثاغوريون المتاخرون هذه الأفكار في العصر الهيللنستى ومكنهم من ذلك اطلاعهم المباشر على التراث الديني للثقافات الشرقية العريقة. ولعل السبب الرئيسي وراء إقبال جمهرة المثقفين في روما وأنطاكية والإسكندرية على التعاليم الفيثاغورية يرجع إلى نظرهم إليها على إنها امتداد للديانات الروحية التليدة التي كانت ترعى الأخلاق والقيم والمبادئ السامية وتمنح المستضعفين والمظلومين والزاهدين والفقراء والمعدمين الأمل في حياة أخروية أفضل وقد عجزت الديانة الرومانية عن تحقيق ذلك ولم يعن كهنتها إلا بأمور الصفوة وجمع النذور والقرابين المادية التي حرمتها الفيثاغورية. أما البعد الفلسفي لهذه المدرسة فيتمثل في تطويرها لعقيدة تناسخ الأرواح وإمكانية حلول اللاهوت في الناسوت والربط بين تعلم الحكمة وبين الخلاص ووضعها قواعد التأويل الرمزي للألفاظ والأعداد، وقد تأثر اللاهوتيون في اليهودية والمسيحية بجل هذه الجوانب .

قدرته الخارقة على صنع المعجزات بالإضافة إلى المجد الإله الأبدي المستمد من أبيه، وما روي أيضا في عشرات القصص الخرافية عن ميلاده المبارك، وأخيرا ما روي عن محاكمته من قبل الحاكم الروماني دومتيان - الذي اشتهر بمحاربته للفلاسفة - ودفاعه عن نفسه الذي جاء فيه أنه ليس زيوس أو جوبيتر ولكنه كلمته وحكمته والناطق بتعاليمه الأخلاقية المرشدة للناس. ويبدو أثر أبولونيوس الطواني بوضوح في ظاهرة ادعاء الألوهية في القرن الأول الميلادي من قبل بعض السحرة الذين دخلوا المسيحية وزعموا انهم خلفاء المسيح وعلى رأسهم سيمون الساحر واتباعه، أما الأثر الفلسفي والأخلاقي الفيثاغوري فقد أثر في مؤسسي الأفلاطونية الحديثة وعلى رأسهم أمونيوس ساكاس الذي جمع في تعاليمه بين التنسك والزهد الأخلاقي والعلوم الرياضية والسحر واللاهوت، وقد انعكست هذه التعاليم في كتابات المؤولين المسيحيين السكندريين الذين انتحلوا نظرية تناسخ الأرواح الفيثاغورية وراحوا يؤكدون إن روح المسيح هى الملهمة للعلماء والفلاسفة منذ بدء الخليقة وانه حل وتجلى قبل ظهوره الاخير فى شخصيات عده فى العهد القديم وذلك فى محاولتهم الربط بين شخصيه المسيح وبين فكرة المسيا أو المخلص الذي ينتظره اليهود ذلك فضلا عن اقتباسهم للنظريات الفيثاغورية حول الدلالات الرمزية للأعداد.

ويؤكد تلميذنا الدكتور محمد جمال كيلاني في دراسته الرائدة عن : الفيثاغورية الجديدة على وجود اثر فيثاغورى مباشر في تأويلات اكليمندوس السكندرى لنصوص الكتاب المقدس ويبدو ذلك في وضعه دلالات لاهوتية جديده لبعض الألفاظ التي وردت في إصحاحات العهدين القديم والجديد مثل لفظة "الطيور" التي تشير عنده إلى علماء اللاهوت الأرثوذكسي القادرين على رؤية الناموس والنظام الكوني بنظرة شاملة، فالمؤمن وحده هو القادر على الإحاطة بحقيقة الحكمة الإلهية في خلقه للوجود .

كما يمكننا ملاحظة وجود نظرية الحلول التي تنزع إلى إمكانية ظهور الإله في أي هيئة مادية عند الفيلسوف الفيثاغورى (بوسيدونيوس١٣٥ - ٥١ق.م) و (بلوتارخوس من ٤٦ - ١٢٢م) فقد ذهب كلاهما إلى وجود اله واحد منزه عن المادة غير أن روحه يمكن أن تحل في صور وكائنات متعددة. وهذا قد اخذ به الانتحاليون في القرن الثاني الميلادي خلال معالجتهم لقضية الكريستولوجى، فقد أنكروا ناسوتية المسيح وذلك لأنه اله قد اخذ هيئة بشرية غير مادية وذهبوا مع نيومينيوس الفيلسوف الفيثاغورى الذي عاش في - القرن الثاني الميلادي - إلى عدم إمكانية اتصال الإله المجرد أو الآب بالمادة أو بالعالم المحسوس، وقد تأثر الغنوسيون المسيحيون بحديثه عن الإله الثاني أو الابن الذي يمكنه الاتصال بالعالم المادي ويتجسد في صورة بشرية لخلاصهم.

المدارس الفلسفية اليونانية والرومانية:

لم يكن بمدرسة أثينا الفلسفية أثر يعتد به في الفكر المسيحي خلال القرون الأولى، وذلك لان طلابها قد عكفوا على دراسة كتابات أفلاطون وأرسطو، ومن ثم أضحى أعلامها شراحا لهاتين الفلسفتين وعلى رأسهم (برقلس٤١٠ - ٤٨٥م) PROCLUS، الشارح الأعظم للالهيات الأفلاطونية أما موقف رجالاتها من المسيحية فيبدو بوضوح في سخريتهم من القديس بولس خلال رحلته التبشيرية، وانتهى أمر هذه المدرسة برحيل فلاسفة الأكاديمية السبعة ديوجينس Diogenes وهرمياس Hermias ويولاليوس Eulalius وبرسكيانوس Priscianus ودماسكيوس Damascius وإيزيدوروس Isidorus وسمبليكوس Simplicius إلي فارس، على أثر قرار الإمبراطور (جوستنيان ٥٢٧ - ٥٦٥م) بإغلاقها عام ٥٢٩م. ويشير فردريك كوبلستون إلي النكوص الفلسفي الذي اتسمت به المدارس اليونانية في القرون الثلاثة الأولى قبل الميلاد

موضحا أن معظم الأفكار التي ظهرت في هذه الأونه كانت مولدة أو منتحله من المدارس السابقة فقد انتحلت الرواقية الفيزيقا من هيراقليطس والأخلاق من الكلبيين وأخذت الرواقية المذهب الذرى من فلسفه ديمقريطس والأخلاق من الكورينائيين. ويعنى ذلك أن المدارس الهيلينيه التي ظهرت في هذه الحقبة لم تسهم في بناء انساق جديدة تتواءم مع ثقافة العصر الشاغلة بتناكح الأفكار.

أما الفكر الروماني فقد عجز عن خلق نسق فلسفي جديد يجمع شتات الديانات السرية الهيلينية العريقة والنحل الشرقية التليده ويرجع ذلك إلي طابعه العملي الذي كان همه الأول هو طبع المواطنين بطابع أخلاقي وسياسي يحقق الاستقرار والتماسك للإمبراطورية .

الأمر الذي يبرر ظهور مذهب الشك والنزعات الفردية في الأكاديمية الجديدة والأبيقورية من جهة والأفكار الغنوسية والفيثاغورية الجديدة والأفلاطونية المحدثة من جهة أخرى وذلك لسد الفراغ الروحي والديني في الثقافة المادية السائدة آنذاك .

ونخلص من حديث فريدريك كوبلستون إلى أن كل الأفكار الفلسفية التي طرحت إبان ظهور المسيحية لم تؤثر في بنية القضية الكريستولجية التي نحن بصددها تأثيرا مباشرا. وتؤكد بعض الدراسات المعاصرة على أن زعماء الرواقية الرومان (سينكا ٤ق.م - ٦٥م، ابيكتيتوس نحو٥٠ - ١٣٠م، وماركوس أوريليوس١٢١ - ١٨٠م) لم يكن لهم أثر مباشر في تشكيل بنية العقيدة الكريستولوجية المسيحية في القرون الخمسة الأولى.

ويرد أميل برهييه علة عدم قدرة الفكر المسيحي في القرون الأولى على التأثير في الفلسفة الهيلينية أو مدرسة أثينا والأكاديمية المتأخرة إلى ثلاثة أسباب:

أولها أن رسائل بولس وشذرات الأناجيل قد تحدثت عن العالم على

أنه مخلوق من عدم وان اله قد خلقه دفعة واحدة في أيام ستة وهذا التصور إن كان مقبولا في الفكر اليهودي فانه كان غريبا تماما على الفكر الأفلاطوني الأرسطي والرواقي أما السبب الثاني فيتمثل في حديث المسيحية عن الإله الذي تجسد وهبط إلي الأرض لخلاص البشرية من شرور ارتكبتها أراوحهم قبل وجودهم المادي، وقد نظر الفلاسفة الأفلاطونيون والمشائيون المتأخرون في القرن الأول الميلادي إلي هذا التصور الدرامي على انه من الميثولوجيات التي لا يمكن تصديقها أو التسليم بصحتها إلا عن طريق التأويل الرمزي. وثالث هذه الأسباب يرجع إلى إفراط المسيحية في السمو الأخلاقي والزهد والتقشف المستند إلى تعاليم لاهوتية تختلف بطبيعة الحال عن نظرية التطهر الفيثاغورية أو الدعوة للحب والاخوة العالمية التي تبنتها الرواقية ويقول في ذلك (فالمسيحية في بدايتها لم تكن تأملية على الإطلاق بل كانت مجهودا للتآزر الروحي والمادي معا في أوساط الجماعات المؤمنة وان الفكر الفلسفي لم يتأثر تأثرا كبيرا بمجيء المسيحية) . ويضيف أميل برهييه على ما تقدم أن رسائل القديس بولس قد تأثرت بالعديد من الأفكار الرواقية الأخلاقية منها النظر إلى البشر نظرة عادلة خالية من العنصرية والطبقية فكل البشر متساوون في عبوديتهم لله.

وقد تأثر اللاهوتيون الأوائل بإبيكتيتوس الرواقي في رده كل تعاليمه إلي الإلهام الإلهي وجعله للمسيح مصدر الحقيقة المطلقة والمعين على تحقيق الغايات.

ويمضى أميل برهييه مؤكدا على وجود مسحة فلسفية واضحة في كتابات اللاهوتيين الأوائل ومنهم (يوستينوس الفيلسوف الشهيد ١٠٠ – ١٦٥م) الذي ساير تعاليم القديس بولس في استخدامه لنظرية التجلي الإلهي للتأليف بين الحكمة الهيلينية ولاهوت المسيح (فيسوع المسيح هو الذي تجلى

لسقراط وأفلاطون واخبرهما عن اصل الواحد والجوهر الإلهي وهو أيضا الذي ظهر لموسى ثم تجسد في صورة بشرية) غير أن تلميذه تاتيانوس ذهب إلي أن الفلاسفة لم يدركوا الحقيقة الإلهية وعقولهم بل بقدرة أرواحهم على الاتصال المباشر بالروح القدس وعليه فمعرفة الفلاسفة بالله معرفة ناقصة والمسيحيون دون غيرهم هم اللذين عرفوا حقيقته بقوة إيمانهم.

ولم يقف الأثر الفلسفي عند ذلك بل يرى أميل برهييه بأنه المسؤول عن ظهور الهراطقة ولا سيما الغنوسيين ومن نحى نحوهم من اللاهوتيين المسيحيين من أمثال يوستينوس الذي حاول ربط محاورتي فيدروس وفيدون لأفلاطون وبين اللاهوت المسيحي في قصة مثيولوجية (ففي الأصل كانت مبادئ ثلاثة : الله الطيب، ثم ايلوهيم أو الأب من الجنس المذكر، وعدن من الجنس المؤنث ومن زواج ايلوهيم من عدن تولدت سلسلتان من أثنى عشر ملاكا، من مجموعهم تألف الفردوس وفى الفردوس خلق الإنسان وتلقى من ايلوهيم البنوما أو النفس الروحي، ومن عدن النفس، وانتقل أيلوهيم وكان لا يزال إلى ذلك الحين جاهلا بالله الطيب، إلى أعالي الخليقة مثله مثل النفس في فيدروس وهاجر عدن ليتأمل الله الطيب، وانتقاما منه أدخلت عدن الخطيئة إلى قلب الإنسان ورغب ايلوهيم في إنقاذ الإنسان فأرسل باروخ، أحد ملائكته إلى موسى أولا ثم إلى هرقل، وأخيرا إلي عيسى الفادي، الذي صلبه أحد ملائكة عدن فترك جسده على الصليب).

ولا يقطع أميل برهييه بان هذا الأثر الفلسفي اليوناني والروماني قد انتقل إلى المسيحية مباشرة أو عن طريق مدرسة الأسكندرية وفيلون.

ويؤكد معظم الباحثين المعاصرين على عدم وجود أي اثر من اللاهوت المسيحي على المدارس الفلسفية في هذه الحقبة فلم تتأثر الكتابات الرواقية باللاهوت المسيحي وهذا لا يمنع من وجود بعض مظاهر التعاطف

من قبل الرواقيين تجاه المسيحيين، وكذا إعجاب اللاهوتيين الأوائل بالأخلاق الرواقية، واقتباس منهم بعض الأفكار الفلسفية مثل فكرة : الخلاص والمحبة والعناية الإلهية. وتشير الباحثة ماسة أحمد رؤوف إلي بعض أوجه التشابه بين تعاليم ابيكتيتوس الأخلاقية في كتابه "المحاورات" وبين رسائل بولس إلي أهل كورنثوس، وتكشف كذلك عن مضمون الرسائل المتبادلة بين سنيكا والقديس بولس المفعمة بالاحترام المتبادل بينهما واتفاقهما على العديد من الفضائل الأخلاقية وعلى رأسها التسامح مع كافة البشر وجعل المحبة دواء للبغض والعداوة، ذلك عن ميل سينكا للتعاليم المسيحية وعدم رضاه عن سياسة نيرون تجاه المسيحيين.

أما التأثير غير المباشر فيمكن التماسه عند فلاسفة اللاهوت المسيحي من أمثال: القديس يوستينوس الذي تأثر بمفهوم اللوجوس الرواقي، وذلك في حديثه عن الكلمة أو الجوهر وانبثاق الابن عن الآب الذي يشبه توليد النار من النار، فخروج الابن من الآب – عنده – لم ينقص من لاهوت الآب شيئا، وذلك لأن جوهر الابن غير مساوي لجوهر الآب لأنه تابع له، ووافقهم أيضا في القول بان جذور اللوجوس قد انتشرت في البشرية جميعها ولم تجتمع وتتحد إلا في شخص يسوع، غير أن هذا التوفيق قد وضع يوستينوس في دائرة الاتهام لأن معتقده يخالف معتقد اللاهوتيين المحافظين الذين يساوون بين جوهر الآب وجوهر الابن. ولا يمكننا رد فكرة انبثاق اللوجوس عن الإله التي ترددت في كتابات أكليمندوس السكندري وأوريجينوس وترتليانوس إلى الأثر الرواقي فحسب كما (يشير إلى ذلك أميل برهييه)، بل نضيف إليه الأثر الغنوسي والأفلوطيني والهرمسي الذي شكل بنية فلسفة اللاهوت السكندرية، والذي نريد إثباته هو أن تصور الألوهية الرواقي كما ذكرنا لم يكن له تأثير مباشر في بناء العقيدة الكريستولوجية عند اللاهوتيين المحافظين.

وتضيف الباحثة أن الأثر الأفلوطيني لم يكن واضحا في القرون الثلاثة الأولى وذلك يرجع إلى عاملين أولهما: أن أفلوطين في كتاباته المبكرة لم يكن سوى شارحا أو معقبا على النسق الأفلاطوني ومطورا لفلسفه أستاذه امونيوس سكاس، وثانيهما: أن تسوعاته لم يطلع عليها إلا اللاهوتيون المتأخرون من أمثال (غرغوريوس النيصى٣٣٥ - ٣٩٤م) أضف إلى ذلك أن افلوطين لم يتعرض للاهوت المسيحي من قريب أو من بعيد على الرغم من تصديه للاهوتين المسيحيين الذين انتحلوا الغنوصيه من أمثال كيرينثوس المصري الفيلوني - الذي كان حلقة الوصل بين الغنوسية والفيلونية وساتورنينوس الأنطاكي وماركيون السنوبي وكاربوكراتس السكندري وباسيليديس وفالنتينوس الشاعر المصري ويترتب على ذلك تهافت الزعم القائم بان ثالوث افلوطين (الله، العقل الكلى، النفس الكلية) قد اثر في قانون الإيمان النيقوى الذي يوحد بين الأقانيم الثلاثة فعلى الرغم من وجود بعض الكتابات التي تشير إلى اطلاع القديس اثناسيوس البلدي السكندري (٢٩٥ - ٣٧٣م) على بعض تاسوعات أفلوطين التي ظهرت بين اللاهوتيين المسيحيين في مطلع القرن الرابع إلا إن القضية الكروستولوجية قد بدأت في كتابات بولس الرسولي المبكرة في منتصف القرن الأول وكذا في إنجيل يوحنا في القرن الثاني وقد استند اثناسيوس علي كتاباتهما في وضعه لقانون الإيمان النيقوى. أما اثر افلوطين على غرغوريوس النيصي فلم يتعد تلك المسحة الصوفية التي أضافها الأخير على كتاباته اللاهوتية تلك التي جعل فيها الحب والإيمان بالمخلص السبيل الأوحد للسعادة الأبدية أما القديس اوغسطنيوس فقد تأثر إلى حد كبير بتاسوعات افلوطين ويبدو ذلك في رده كل أشكال الجمال إلى المصدر الإلهي باعتباره اصل كل الكمالات والجمالات وكذا في ربطه بين الأقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) وبين ثالوث

أفلوطين وقد حاول بهذا الربط رد الأقنوم الثاني والثالث إلى الأب أو الإله الواحد الذي فاض عنه الابن والروح القدس دون وجود فارق زمني يفصل بينهم وقد سايره كذلك في حديثه عن الصفات الإلهية ولاسيما الخيرية والعلم والقدرة، وينزع أستاذنا الدكتور مصطفى النشار إلى أن اوجه الشبه التي توجد في كتابات اللاهوتيين الأوائل بين أقانيم افلوطين والثالوث المسيحي لا يمكن ردها إلى فلسفة الأول وذلك لان افلوطين نفسه قد تأثر في تاسوعاته بثقافة عصره ولا سيما التاسوعة الخامسة التي تحدث فيها عن الأقانيم الثلاثة.

مدرسة أنطاكية:

تمثل مدرسة أنطاكية منذ نشأتها في القرن الثالث قبل الميلاد الاتجاه الأرسطي المشائي العقلاني، القائم على تحليل ظاهر النص وحرفية الكلمة، والبحث عن البعد التاريخي للنصوص لاستنباط القيم الأخلاقية والجمالية والمعرفية منها، وذلك ليتناسب مع النهج المنطقي الذي انتهجه روادها وعلى رأسهم (يامبليخوس IMBILICHUS نحو ٢٨٠ - ٣٣٥م) في تفسير النصوص وصياغة الأفكار.

أما الكنيسة الأنطاكية فهي تعد اقدم الكنائس بعد كنيسة أورشليم فيرد تاريخها إلى عام ٣٤ م على يد القديس بطرس وإلى بولس الذي أرسى فيها التعاليم الأولى اللاهوتية والقديس برنابا الذي رافق الاثنين في رحلاتهما التبشيرية وتولى من بعدهما شئونها. ومن أهم علمائها اللاهوتيين هو سمعان الأسود، ولوكيوس القيرواني واغناطيوس، ويوحنا الذهبي الفم.

وقد نجح لوقيانوس Lucianus نحو ٣١٢م في تحويل هذه المدرسة المشائية إلي مدرسة لاهوتية في القرن الثالث الميلادي عام ٢٩٠م وقد انتحى

فيها النهج الأرسطي في التفسير ورفض نهج مدرسة الإسكندرية الأفلاطونية التي انتهجت المنهج التأويلي الرمزي في شرح الكتاب المقدس على يد (اريانوس نحو ٩٥ - ١٧٥م) .

ويقابل الأنبا غريغوريوس أسقف البحث العلمي الأرثوذكسي المصري بين الطابع الفلسفي لمدرستي الأسكندرية وأنطاكية، فيذكر أن الأولى اقرب إلى الروح اللاهوتية الصوفية الرمزية، أما الثانية فكانت تعبر عن المنحى الفلسفي العقلاني الأرسطي المنطقي، الأمر الذي يبرر اهتمام اللاهوتيين السكندريين بالطبيعة اللاهوتية للمسيح، وتأكيدهم على حلول الإله في شخص يسوع واتحادهما في أقنوم واحد مع الاعتراف بالطبيعتين الناسوتية واللاهوتية.

أما مدرسة أنطاكية فقد رفضت نظرية الحلول والاتحاد وعنيت بدراسة الجانب الناسوتى من المسيح واعتبرته جوهر مغاير لجوهر الإله على الرغم من اعترافها بأنه حامل للكلمة المقدسة، ونظرت إليه على انه إنسان كامل ذو طبيعتين، ومن ثم فالجانب المقدس فيه هو الجانب الإلهي الذي يستحق العبادة والتقديس، فحسب ولا يجوز القول إن الأنطاكيين علموا بأقنومين فإنهم قالوا بأقنوم واحد ذي طبيعتين متحدتين بلا امتزاج ولا اختلاط ولا تشويش، ومع أن معلمي أنطاكية حاولوا إبراز الطبيعتين: الإلهية والإنسانية في المسيح، إلا أنهم في إطار ذلك كثيرا ما كانوا يعمدون إلى التميز بين الطبيعتين.

ويوضح سميث فانديك المسحة الأرسطية التي اصطبغ بها أعلام المدرسة الأنطاكية مبينا منهجهم في تناول النصوص المقدسة واعتمادهم على التفسير المباشر للعبارات في ضوء الدلالات اللغوية التي لفظتها، الأمر الذي كان وراء اهتمامهم بمقابلة النصوص العبرية بمثيلاتها في اللغة الآرامية أو اللغة اليونانية، وتحليل البنيات الثقافية التي كتبت فيها النصوص وكذا ثقافة

الكاتب والطبيعة المعرفية الدلالية، التي يستخدمها في صياغة العبارات ثم مقابلة صياغته بنصوص أخرى، وذلك لتحديد المعنى المراد في ضوء السياق العام لموضوع النص، وذهب منذر نزهة إلى أن هذا المنهج قد انعكس على الآراء اللاهوتية لهذه المدرسة، ويبدو ذلك في التيار الاريوسى الذي أكد على ناسوتية المسيح وتعاليم ديودوروس الطرسوسي و (ثيودوروس المصيصي نحو ٣٥٠ - ٤٢٨م) ونسطوريوس وكذا التيار الابولوناريوسى و (اوتيخوس نحو ٣٧٨ - ٤٥٤م) وأعلام المنوفوزية (*)، التي ذهب أنصارها إلى القول بطبيعة لاهوتية واحدة للمسيح وأنكروا طبيعته الناسوتية وهذا كرد فعل مباشر للتيار الأريوسى.

---

*ترد المنوفوزية Monophysitisim إلى الراهب الروماني اوتيخوس أما المصطلح فيرد إلى اللغة اليونانية ويعني الطبيعة الواحدة. وخلاصة تعاليم هذه النزعة هو اتحاد الكلمة الأزلية مع هيئة المسيح البشرية في شخص يسوع فتكونت له طبيعة واحدة وأقنوم واحد وإرادة واحدة، أي أن إنسانية المسيح قد ذابت في ألوهيته كما تذوب نقطة من العسل في الاوقيانوس. وقد أدان مجمع خلقدونية هذه العقيدة عام ٤٥١م ووضع قانونا للإيمان الكاثوليكي أن المسيح هو ابن الله الوحيد، هو رب واحد في طبيعتين بدون امتزاج. غير أن المنوفوزية لم تندثر بل أقامت لمذهبها مدارس في مصر وسوريا وراحوا يعلمون بان للمسيح طبيعة واحدة وأقنوم واحدا مخالفين بذلك تعاليم ليونطوس البيزنطي ممثل العقيدة الخلقدونية التي تعلم بان للمسيح اقنوما واحدا في طبيعتين، وكذا التعاليم النسطورية التي تعلم بان للمسيح أقنومين وطبيعتين منفصلتين.

و قد حاول الإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥م) القضاء على المنوفوزية ليثبت أن رجل السياسة لا يحافظ على أمن المدينة من الاعتداءات الخارجية فحسب بل من الهرطقات اللاهوتية التي لا يقل خطرها عن الهجوم المسلح على الإمبراطورية. وفي عام ٥٤٤م حرم النسطورية والمونوفيزية وأمر بحرق كتب أعلام هذين المذهبين وفي عام ٥٥١ م أكد هرطقة المونوفيزية ولكنه لم يصب رجالها بسوء وذلك لإرضاء زوجته التي كانت تميل لهذا المذهب وقد اخذ مجمع القسطنطينية برأي الإمبراطور أما المعارضون فقد حكم بنفيهم وعلي الرغم من ذلك كله فلم يقض على المونوفيزية بل تأسس لها عدة مدارس في سوريا على يد يعقوب بن عداي التلاوي البردعي x 578م، في نهاية القرن الخامس وأطلق عليها مدرسة اليعاقبة السريان. وفي عام ٦٨٠م عقد مجمع القسطنطينية السادس للفصل في قضية المونوفيزية وقد أثيرت في هذا المجمع قضية الإرادة اللاهوتية وانتهي أعضاء المجمع إلى القول (إنا نعترف بفعاليتين في ربنا يسوع المسيح الإله الحقيقي في طبيعته اللاهوتية أو الناسوتية دون تقسيم ولا استحالة ولا تفريق ولا امتزاج وهاتان المشيئتان الطبيعيتان الحقيقيتان لا تضاد إحداهما الأخرى). بينما ظل المونوفيزيون يؤمنون بأقنوم واحد وطبيعة إلاهية واحدة وإرادة واحدة في شخص المسيح وقد هاجروا إلى الرها واحتموا ببلاد فارس ولا تزال هذه الفرقة موجودة باسم الأقباط السريان.

وقد كان لهذين التيارين الاريوسى والابولونوريوسى الأثر الأكبر في ظهور الانقسامات الكريستولوجية في الكنيسة المسيحية ويبدو ذلك في المجامع الكنسية التي عقدت في نيقية وافسس وخلقيدونية في الفترة من ٣٢٥م إلى ٤٥١م. تلك التي حاول اللاهوتيون المحافظون خلالها رد الصدع الذى أصاب أصول الإيمان المسيحي (دون جدوى)، الأمر الذي ترتب عليه ضعف دلالة مصطلح (أرثوذكسي)، وذلك لان كل تيار من هذه التيارات كان يعتقد بأن تعاليمه هي الأصوب وهى الأصل الذي انحرف عنه خصومه ولم يحسم الأمر في القرن السادس إلا بفعل سلطة رجال السياسة. غير أن هذه الانقسامات العقدية مازالت قائمة حتى الآن.

ويرد الباحث منذر نزهة علة ظهور هذين التيارين في مدرسة أنطاكية إلى الأثر الغنوسي الفارسي الذي يفصل فصلا تاما بين الجوهر اللاهوتي الأزلي المنزه عن الاتصال بالمادة والتجسد وبين الجوهر الناسوتى المخلوق المادي الذي مات على الصليب.

وسرعان ما أصبحت الكنائس السورية معقلا لكل النزعات المناهضة لمدرسة الإسكندرية اللاهوتية منذ القرن الثالث حتى الآن.

ويشير الخورى بولس الفغالى إلي وجود تيار ثالث في مدرسة أنطاكية وان كان اقل شهرة وفاعلية من التيارين السابقين ويمثل هذا التيار (ثيودوروس الموبسيوستي٣٥٠ إلى ٤٢٥ م) والقديس يوحنا فم الذهب نحو (٣٤٧ - ٤٠٧م) فقد حاول كلاهما التأليف بين المنهج الأرسطي والمنهج الأفلاطوني في شرح إصحاحات الكتاب المقدس وقد تأثرا بإنجيل متىّ في جمعهما بين ناسوتية المسيح ولاهوتيته في نسق واحد غير انهم لم يعلما وفق القانون النيقوى في دروسهما لأصول اللاهوت والعقيدة الكريستولوجية، فقد اتهم الأول بأنه اصل البدعة النسطورية وأدانه مجمع القسطنطينية سنة ٥٥٣م

أي بعد وفاته بمائة وخمس وعشرون عاما وحكم بهرطقته وحرقت كتبه بيد أن الكنيسة الفارسية احتفظت بمعظم تصانيفه ولا سيما التي قام فيها بتفسير الكتاب المقدس وهي:

- الشروح: شرح معظم أسفار الكتاب المقدّس أي العهد القديم والجديد.
- المؤلفات اللاهوتية: شرح قانون الإيمان والأسرار وهي ما نسميّها العظات التعليمية الست عشرة. وشرح كذلك سرّ التجسّد وتحدث عن الروح القدس والردّ على أصحاب البدع .
- العظات التعليمية: هذه العظات تضمّ ست عشرة عظة. والعظات العشر الأولى تتطرّق إلى قانون الإيمان، والعظات الست الباقية تتحدث عن الأبانا (عظة واحدة) وسرّ المعمودية (٣ عظات) والقداس الإلهي (عظتان) . باللغة السريانية وقد ترجم إلى الفرنسية ومن ثمّ إلى العربية على يد الخوري بولس الفغالي .

وتبدو نزعته توفيقية في كتاباته عن الصلاة والعشاء الربانى التي تأثر فيها بترتليانوس ومدرسة الأسكندرية أما تعاليمه الكريستولجية فكان ينضوي فيها تحت راية لوقيانوس الانطاكي وأريوس إذ كان ينظر إلى يسوع المسيح على انه إنسان حل فيه اللاهوت دون امتزاج وقد استشهد في فصله بين الجوهر اللاهوتي والجوهر الناسوتي في شخص المسيح بما جاء في سفر المزامير (٦، ٨١) وهي "قلت انكم آلهة" وبين أن كل المؤمنين بالله الواحد الأزلي يمكن أن يصبحوا أبناء لله بموجب طاعتهم له فيكتب لهم ملكوت السماوات فالإنسان الكامل عنده هو الذي يسير وفق المشيئة الإلهية ولا يحيد عنها وذلك بمحض أرادته الواعية بان خيره في التبعية والرضوخ للمشيئة الربانية المتمثلة في تعاليم الأب.

وقد تميز أسلوبه بلغة الوعظ المفعم بالرمزية ولاسيما في أحاديثه عن

فضائل الصلاة الأمر الذي قربه من التعاليم الكريستولوجية لمدرسة الإسكندرية فما اكثر العبارات التي جمع فيها بين الأقانيم الثلاثة في سياق واحد على أنها ترد إلي جوهر واحد دون فصل أو تفضيل.

ويبرر عزت أندراوس ازدواجية ثيودوروس بتعدد مستويات الخطاب في مؤلفاته أي انه يتحدث للخاصة بتعاليم لاهوتية كريستولوجية تعد امتدادا لتعاليم لوقيانوس مؤسس المدرسة الانطاكية، فالمسيح في رأيه إنسان كامل وهو أداة استخدمها الآب أو الجوهر اللاهوتي الذي حل فيه بخلاص البشرية ومن ثم لا يمكن التوحيد بين جوهر الله المجرد الأذلي وبين شخص المسيح المخلوق المادي المتجسد. فحلول اللاهوت في الناسوت عنده لا يعنى اتحادا كليا أو امتزاجا مطلقا، فالروح الإلهية والكلمة المقدسة قد سكنت في جسد المسيح شأن حلول الأرواح في الأبدان ولكن المسيح قد تميز عن باقي البشر بالقدر الأعظم الذي سيطر فيه اللاهوت على الناسوت أما الأرواح الإنسانية التي تحل في الأبدان فهي من صنع الإله أيضا بيد أنها لا تمثله فلم يحل اللاهوت في جسد بشرى سوى جسد المسيح فقط أما اتحاد الأرواح البشرية بالروح القدس فهو جائز بقدر طهارة هذه الأرواح. اما المستوى الثاني فيتمثل في التعاليم اللاهوتية الوعظية للعامة وكان فيها اقرب للروح السكندرية وتعاليم مجمع نيقية. ويرى ثيودوروس أن توحيد بعض اللاهوتيين في مدرسة الأسكندرية بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح يرجع إلى عجزهم عن التفرقة بين الصورة البشرية التي ظهر فيها المسيح الإنسان وبين الروح الإلهية التي حلت في هذا الجسد.

أما يوحنا فم الذهب فقد رغب عن الخوض في المساجلات الدائرة بين الاريوسيين والاسناسيوسيين حول طبيعة المسيح ووجد في طريق الوعظ والتقشف والتبتل والتأمل الروحي والمناجاة سبيلا للفرار من آتون التصاول

وعلى الرغم من ذلك فان تفاسيره لنصوص العهدين القديم والجديد تشير إلى انتمائه للاهوتيين الخطابيين الذين جمعوا بين المدرسة الأرسطية العقلية في التفسير والمدرسة الأفلاطونية الفيلونية في التأويل ولا ريب في أن يوحنا فم الذهب قد جمع بين نهج لوقيانوس واوريجانوس في خطابه الكريستولوجى. أما عن مؤلفاته فهي مجموعة عظات كتبها في رسائل عن الرهبنة والشهوة والعذرية والتضحية من اجل المسيح.

وتختلف تعاليم أبولوناريوس عن تعاليم ثيودوريوس ويبدو ذلك الاختلاف في أن الأخير رفض تماما فكرة تجسد الإله أو الحلول أو الاتحاد حيث أكد على أن الصورة الجسدية التي ظهر فيها المسيح لم تكن صورة مادية حقيقية بل هي تبدو كذلك في العيون كما أن المسيح لم يكن له نفس بشرية مادية شهوانية أو عاقلة ولا إرادة إنسانية وذلك لان الكلمة هي التي كانت تشغل الصورة البشرية للمسيح عوضا عن النفس أو الروح التي تحل في الأبدان، وقد أدان اللاهوتيون المحافظون هذه التعاليم في عده مجامع أهمها (روما٣٧٧ - الإسكندرية ٣٧٨ - أنطاكية ٣٧٩ - ومجمع القسطنطينية المسكوني ٣٨١).

وعلى النقيض من تعاليم ابوليناريوس نجد نسطوريوس الذى عارض فكرة ألوهية يسوع المسيح حيث أكد على أن مريم البتول قد ولدت إنسانا ولادة طبيعية ومن ثم فمن الخطأ اعتبارها أم الإله.

وقد أدان مجمع روما هذا التفسير عام ٤٣٠م وحكم على نسطوريوس بالهرطقة لأنه يشكك في الطبيعة الناسوتية التي اتحدت بالطبيعة اللاهوتية في شخص المسيح ونظر ليسوع الناصري على انه نبي أو أحد القديسين قد اتخذه الإله أداه للخلاص فحسب وعليه فيسوع الناصري هو الذي صلب وليس الإله.

وسوف نتناول هذه الاتجاهات بشيء من التفصيل في الفصل التالي والذي نريد إثباته هنا هو أن مدرسة أنطاكية الأرسطية الفلسفية قد لعبت دورا كبيرا في مناقشة قضية الكريستولوجى كما أنها تمثل العلة الحقيقية لظهور التيار القائل بطبيعيتين منفصلتين في شخص المسيح وكذلك القائلين بطبيعة واحدة.

الفصل الثاني

قضية الكريستولوجى وإشكالية العلاقة بين اللاهوت والناسوت في طبيعة المسيح

ترجع هذه القضية لإصحاحات الأناجيل التي ذكرت على لسان المسيح سؤالاً يطلب منه تحديد هويته وذلك بقوله: (من يقول الناس إني أنا ابن الإنسان؟) "متى ١٦: ١٣" وقد أثارت هذه الآيات العديد من التساؤلات منذ القرن الأول الميلادي، منها: -

هل كان المسيح إلهاً حقاً؟ وهل ألوهيته كانت أزلية، أم هي مرتبطة بوجوده متشخصاً على الأرض في صورة يسوع الناصري؟ وهل الإله المتشخص في صورة مادية يولد في عام مجهول - ٧٥٠ - ٧٥٢ من بناء مدينة رومية - ويأكل ويشرب ويحاور ويعلم ويصنع المعجزات ثم يصلب ويقبر؟ وهل هذه الصورة تتناسب مع صورة الإله المجردة؟ هل الجوهر الروحي يمكن أن يحوي بداخله جوهر آخر مادي؟ وهل جوهر الآب يختلف عن جوهر الابن؟ وهل إرادة الابن الناسوتية تتفق مع إرادة الآب اللاهوتية؟ وهل الصلب كان نقطة الانطلاق للفصل بين الناسوت واللاهوت شأن لحظة الميلاد التي واكبت لحظة التقاء اللاهوت بالناسوت؟ وهل كلمة الآب وكلمة الابن تحويان دلالات مجازية، أم يمكن تأويلهما؟ وهل المعجزات التي أجراها المسيح هي البرهان على ألوهيته؟.

وقد حفلت الكتب التاريخية المعنية بتتبع الأطوار التي مرت بها العقيدة المسيحية بعشرات الهرطقات التي يرجع بعضها إلى ادعاء النبوة عن طريق

السحر، ويرجع البعض الآخر إلى محاولة تأويل النصوص المقدسة تأويلاً عقلياً، أو تفسير العلاقة بين الابن والآب تفسيرا مجازيا. وسوف نتناول في الصفحات التالية أهم المذاهب والاتجاهات العقدية التي تعرضت لهذه القضية وذلك بنظرة عقلية تحليلية محايدة بمنأى عن الروح الإيمانية وحمية التعصب، محاولين الكشف عن المصادر الفلسفية للأفكار المطروحة التى شكلت بنية اللاهوت الفلسفي، وسوف نبدأ حديثنا بمفهوم العقيدة الكريستولوجية أو الإيمان المسيحي من منظور المحافظين، وذلك ليتسنى لنا إدراك الفارق بين المنحى الإيماني والمنحى الفلسفي الذي لم يستطع اللاهوتيون الفكاك منه في صياغة معتقداتهم رغم مهاجمة بعضهم للفلاسفة وتحريم كتبهم كما بيّنا في الفصل السابق.

* * *

من الإيمان إلي علم اللاهوت

يرى معظم المحافظين من الآباء الأرثوذكس(*) أن أي تصور للفصل بين الآب والابن والروح القدس والكلمة لن يفضي إلا إلى تشويش الإيمان وظهور البدع؛ وذلك لأن قضية العلاقة بين الآب والابن علاقة إيمانية روحية فالأب هو أعرف الموجودات بالابن، والابن هو الذي أخبر وحده عن ماهية

* ترد لفظ الأرثوذكس Orthodox إلى كلمة يونانية، وتعني " استقامة الرأي"، وتطلق في معناها الإجرائي على طائفة المحافظين النصيين الذين وصفوا بالأمانة على تعاليم الرسل والآباء الأوائل، وذلك بعد انقسام الكنيسة المسيحية إلى شرقية وغربية عام ٣٩٥م. وأضحى مصطلح أرثوذكس يطلق على الكنائس الشرقية التي يحكم كل منها مجمع أساقفتها وعلى رأسهم البطريرك الذي هو أسقف المدينة الأم، التي ترتبط في شركة الإيمان والممارسة الكنسية الواحدة، بينما أطلقت كلمة " كاثوليكية" على كنيسة الغرب المنضوية تحت سلطة بابا روما. ويري بعض الباحثين أن الخلاف العقدي بين الأرثوذكس والكاثوليك لم ينعكس على الكهنوت الا عام ١٠٥٤ وقد انتشرت تعاليم الكنيسة الأرثوذكسية في بلدان أوروبا الشرقية والشرق الأوسط وأصبحت المذهب الرسمي للإمبراطورية البيزنطية، ويشكل الكتاب المقدس وقانون الإيمان النيقوي ٣٢٥م ومجمع القسطنطينية ٣٨١ والتقاليد الرسولية صلب عقيدتها. وتعلم بإله واحد هو الخالق والعالم الأزلي والأبدي في ثلاثة أقانيم والإيمان بالحياة الأخرى والبعث والحساب والجنة والنار والقدر والخلاص والقيامة ووساطة الكنيسة بين الإله والبشر والأسرار السبعة (التعميد – استخدام الزيت المقدس عند التعميد- القربان المقدس- الكهنوت- الاعتراف- الزواج المقدس- مسح المريض بالزيت) وهي مستمدة من الديانات الشرقية القديمة ولم تظهر في الفكر العقدي المسيحي الا في أخريات القرن الرابع الميلادي. وترفض الانبثاق المزدوج للروح القدس من الأب والابن، وحمل أنا بمريم العذراء بلا دنس. أما الكنيسة الكاثوليكية فقد اشتق اسمها من اللفظة اليونانية Katholikos وتعني العالمية وهي تعبر اصطلاحا عن الكنيسة الغربية بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية ولم تتبلور معتقداتها الا عام ١٠٥٤م وهي تؤمن بالترتيب الهرمي للكهنوت الذي يرأسه البابا باعتباره الممثل ليسوع على الأرض ومن ثم فهو معصوم في كل الأمور الأخلاقية والإيمانية وتستمد الكنيسة أصول عقيدتها من الكتاب المقدس والمجامع المسكونية وأوامر البابا كما أنها تقدس الأبرار والأطهار من الأباء الأوائل وترفع مريم العذراء إلى درجة الألوهية والاعتقاد في صعودها إلى السماء روحا وجسدا. وتعتبر القديس بطرس هو الأب الأول للمسيحية كما أنها تؤمن بطبيعتين ومشيئتين في شخص المسيح. أما الكنيسة المارونية ذهبت إلى أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ويرجع العديد من المؤرخين اصل الشقاق بين الطوائف الأرثوذكسية والطوائف الكاثوليكية إلى أمور سياسية وصراعات شخصية حول كرسي الرئاسه الدينية ذلك مع التسليم بوجود خلافات جوهرية في أداء الطقوس والإيمان ببعض المعتقدات التي لا تنقض المجامع المسكونية.

الآب والكلمة هي السر الذي يجمع بينهما، وقد استشهد الأب يوسابيوس القيصري على صدق هذه المقدمات ببعض الواقعات التي وردت في الكتاب المقدس تلك التي تبرهن على ظهور الآب في صورة الابن البشرية قبل ميلاد المسيح، فيقول: (إن الرب الإله ظهر كإنسان عادى لإبراهيم إذ كان جالساً عند بلوطة فما راه فخر على وجهه في الحال، رغم أنه لم ير بعينيه سوى إنسان وسجد له كإله وذبح له قرباناً واعترف له بأنه لا يجهل شخصيته، لأنه إن لم يكن معقولاً الافتراض بأنه جوهر الله الكلى القدرة غير المولود وغير المتغير قد تغير إلى هيئة إنسان، أو أن خدع عيون الناظرين بالظهور في شكل مخلوق وإن كان غير معقول من الناحية الأخرى الافتراض بأن الكتاب قد ابتدع أو لفق أموراً كهذه عندما رؤى في شكل إنسان ذلك الإله والرب ديان كل الأرض ومجرى الدينونة، فمن ذا الذي يمكن أن يدعى مبدع كل الأشياء سوى كلمته، الكائن منذ الأزل لو لم يكن شرعيا أن يدعى كذلك).

وقد اعتمد أنصار هذا الاتجاه على أسفار الكتاب المقدس مثل الإصحاح الثامن عشر والإصحاح التاسع عشر والثاني والثلاثين من سفر التكوين، والمزمور السابع بعد المائة، والإصحاح الخامس من سفر يوشع الذي يصرح فيه بأنه رأى الرب عياناً في صورة رجل، وقد اختلف الآباء الأوائل فيما بينهم حول تحديد الشخصيات التي كان يراها أنبياء العهد القديم، فذهب كل من يوسابيوس ويوستينوس الشهيد وأوريجانوس إلى أن الذي ظهر لإبراهيم وموسى وداود ويوشع هو الابن الإله المتجسد في صورة بشرية، ونزع جمهور الآباء اللاحقين إلى أن الذي ظهر ليوشع ودانيال هو ميكائيل (ميخائيل) وليس ابن الرب.

ويضيف المحافظون على ما تقدم أن المسيح هو الحكمة والكلمة الإلهية السرمدية التي خلق الآب بها الكون وسائر الموجودات وذلك على حد تعبير

إشعياء (أنه الأول والآخر) في السفر الرابع والأربعين والثالث والستين وما جاء في المزمور التسعين وما ورد في الإصحاح السابع من سفر الأمثال على لسان نبي الله سليمان الذي ردد كلمات الابن عن نفسه: (أنا الحكمة سكنت مع الذكاء والمعرفة، وقد بعثت فهما بي تملك الملوك وتقضى العظماء عدلا بي يتعالى العظماء، وبي يملك الملوك الأرض) وكذا ما رواه سليمان أيضا عن أسبقية وجود الكلمة قبل خلق العالم وذلك في الإصحاح الثامن، وإنجيل يوحنا الذي أورد في عبارته الأولى هذه الحقيقة (في البدء كان الكلمة) . وقد وردت جل صفات الإله التى تنبئ عن قدرته المطلقة في الخلق والعناية في سفر التكوين في الإصحاح الثامن والأربعين وإنجيل متى في الإصحاح التاسع عشر وما يؤكد صفة الإرادة في المزمور المائة والخامس والثلاثين، وفي الإصحاح الأول من رسالة أفسس، وقد استشهد اللاهوتيون بما ورد في أسفار العهد الجديد عن وصف الإله بالعلم والبصر والثبات والحياة. وقد وحدوا بين الآب والابن والروح القدس دون تعيين أو فصل، وأكدوا أن هذه الحقيقة ليس في إمكان العقل إدراكها فاللاهوت لا تركيب فيه على الإطلاق ولا يشتمل على تعيينات جزئية فقد تفرد الإله دون سائر الكائنات بأنه مع وحدانيته وعدم وجود أي تركيب فيه، واحد وكونه تعيينات يؤكد كماله الذي لا يتغير فكل تعيُناته أزلية لا زمن بينها.

أما عن ناسوتية الإله فقد ذهب اللاهوتيون في مدرسة الإسكندرية وفى القسطنطينية في مطلع القرن الثاني الميلادي عقب ظهور الهرطقات إلى التأكيد على ناسوتية يسوع المسيح بجانب ألوهيته، فالسيد المسيح كان له روح إنسانية عاقلة لأنه جاء لخلاص البشر وليس لخلاص الحيوانات. وأنه كان ينبغي أن تكون للكلمة الإلهية إنسانية كاملة لكي يتم افتداء الطبيعة الإنسانية. فالمسيح الإله لا يمكن أن يخلص جسد الإنسان بمفرده بدون وجود

الروح البشرية وأن الروح البشرية كونها مع الجسد فتكون هي المسئولة حتى لو كانت مسئولة بشكل ضئيل عن تصرف الطبيعة البشرية للإنسان ومن ثم فخلاص الإنسان كان في حاجة إلى الفداء لتخليصه من الخطيئة الأولى التي أدت إلى سقوطه. فالمسيح نزل لخلاص الإنسان الذي يتكون من روح هي النفخة الإلهية والجسد الذي يحتاج إلى الخلاص، ولهذا كان السيد المسيح إنسانا كاملاً فحدد الكلمة الإلهية العلاقة بين الروح والجسد لأن الجسد يشتهى ضد الروح والروح تشتهى ضد الجسد. لهذا صار السيد المسيح عوناً لكل من هو ساقط في الضعف البشرى، أيضاً أعطى عونا للروح البشرية بقوة الروح القدس فصار هناك عوناً للجسد وهو الفداء والخلاص وعوناً للروح ألا وهو قبول للروح القدس لهذا كان السيد المسيح هو الكلمة للروح البشرية وللجسد حتى يتم الخلاص القوى. لهذا يجب أن يتخذها (الروح البشرية) كلمة الإله مع الجسد لأن ما لم يُتخَذ لا يمكن أن يخلص، لأن السيد المسيح خلص الإنسان جسداً وروحاً مثلما قال القديس غريغوريوس النازيانزى عبارته المشهورة ضد أبولوناريوس في رسالة إلى الكاهن كليدونيوس "لأن ما لم يتخذه (الإله الكلمة) فإنه لم يعالجه؛ ولكن ما تم توحيده بلاهوته فهذا يخلص".

ولم يثر اللاهوتيون قضية الأقانيم equanimities[*] إلا عقب ظهور

---

* الأقنوم أو القنوم كلمة سريانية تطلق على كل من يتميز عن سواه بخصال ثابتة فيه من المجردات، وقد وضعها اللاهوتيون الأوائل في كتاباتهم عوضا عن كلمة التعيُنات، ويردها بعض اللغويين إلي اللغة اللاتينية equanimities وكانت تعني القبلي أو المبتدأ أو الصدارة، فدلالة لفظة أقنوم تختلف عن دلالة كلمة شخص التي وردت في بعض الترجمات وذلك لأن الأقانيم الثلاثة ذات مجتمعة في الله غير المشخص لان طبيعته واحدة . ويرفض اللاهوتيون اعتبار الأقنوم صفة وذلك لأن الأقانيم الثلاثة تعبر عن جوهر الإله الواحد الذي يخلو من التعدد أو التكاثر فالأقانيم هي التعيُنات، والتعيُنات هي جوهر الإله وذاته، وقد اجتهد اللاهوتيون في تبرير عدد الأقانيم، فذهبوا إلى أن رقم ثلاثة هو أول عدد كامل جامع لا يمكن لأقل منه أن يحوى الوحدانية الجامعة المانعة، وجوهر الله الذي يحوي الوحدانية الجامعة لا يخضع للتصورات العقلية، فدلالة جوهره تختلف عن =

الهرطقات، الأمر الذي دفعهم لإعادة قراءة أسفار التوراة قراءة كريستولوجية لتأصيل لاهوت المسيح من جهة وتقويم معتقد الفرق اليهودية من جهة ثانية ووضع الثوابت التعليمية للمبشرين الأوائل من جهة ثالثة. وتعد تلك المحاولات الإرهاصات الأولى لعلم التأويل المسيحي، ويعتقد جل المحافظين أن وحي يسوع لم ينقطع بعد العشاء الأخير، بل ظل متصلا في كتابات حواريه والقديسين الذين انعم عليهم برؤيته مثل القديس بولس. وقد حاول القديس ديوسقورس ٥١١م وضع صورة مثلى للعقيدة الكريستولوجية لحسم المسائل التي دارت بين الآباء الأوائل والهراطقة والمؤولين والفلاسفة واللاهوتيين في القرون الخمسة الأولى وذلك في رسالة أرسلها إلى القديس ساويرس الانطاكي 538م بطريرك أنطاكية جاء فيها (أن الله الكلمة قد اتخذ بجسد بشري كامل في كل شئ بنفس عاقلة ناطقة وانه صار معه بالاتحاد ابنا واحدا لا يفترق إلى اثنين وأن الثالوث الأقدس أي الثلاثة أقانيم في ذات الله قبل تجسده وبعده ولم يدخل عليهم زيادة بالتجسد) . ويؤكد ميشيل جرجس

=

دلالة الجوهر الفلسفي، وذلك لتفرده وكماله وأزليته لذا فهو يدرك بالإيمان وحده، وتنزع الكتابات المعاصرة المعنية بمقارنة الأديان إلى رد كلمة ثالوث إلى الكلمة السنسكريتية Trimurti وهي من مقطعين "تري" التى تعني ثلاثة وكلمة" مورتي" التى تعني شكل، وقد أكد علماء مقارنة الأديان على وجود عقيدة التثليث في الديانات الشرقية القديمة وعلى رأسها العقيدة المصرية، حيث عبادة - وأوزوريس وحورس وإيزيس- أي الإله الخيّر أصل العدالة الذي تشخص في صورة الأب وحورس المخلّص الذي بعث الطمأنينة والعدالة إلى الأرض ثانية، وإيزيس التى حملت المخلّص في أحشائها وجمعت رفات الأب ثانية أذانا بميلاد عهد جديد. وكذا في الديانة الهندوسية حيث عبادة الإله "براهمان" المطلق المجرد الذي تجلّى في أقانيم ثلاثة هي" "براهما" خالق الكون، و"فيشنو " الذي يحافظ على العالمين الروحي والمادي، و"شيفا" الإله العادل المنتقم، وفي البوذية نجد بوذا هو الابن المخلّص الذي تجلى في صورة بشرية وحملته أمه مايا في أحشائها وتجلى الإله المجرد يوم ولادته لينبأ عن ساعة الخلاص على الأرض بميلاده. وفي الديانة البابلية التى تؤمن بوجود اله واحد تشخص في ثلاثة أقانيم " آنو" أبو الآلهة وخالق السماء و"آيا" اللوجوس أو الكلمة أو الحكمة الذي علم البشر الفنون والحكمة، و"بعل"اله الأرض وحامي المدن وواهب الحياة. وعند الفينيقيين الذين كان جعلوا لكل مدينة ثالوثا مقدسا وأشهرها "ايل" هو الإله الخالق، "وتموز" هو اله الخصوبة، "وعولم" . وفي الديانة الرومانية نجد الثالوث في "إيزيس" الإلهة الأم، و "سيرابيس" وهو اله الخصوبة و"وسيل" وهي الإلهة المدافعة عن المدن.

أن الشقاق الذي قسم الكنيسة إلى فرق عقب صدور قانون الإيمان النيقوي الأرثوذكسي لم تستطع المجامع اللاحقة عليه درء ذلك الصدع العقدي بل زادت من الخصومات بين اللاهوتيين والمؤولين في القرون الخمسة الأولى وأكد أن السياسة لعبت دورا كبيرا في إشعال نار الخصومة بين كنيسة الأسكندرية وكنيسة أنطاكية.

ويبرر المحافظون عدم ظهور المسيح منذ الأزل ليبشر بشرعته المنصوص عليها في العهد الجديد بعدم تهيؤ العالم لقبوله وعجز العقول عن تفهم تعاليمه، أما ما نادى به حكماء الشرق وفلاسفة اليونان من أمثال فيثاغورث وأفلاطون من فضائل أخلاقية وتعاليم روحية فهي لا تعدو أن تكون قبساً من حكمة الابن الكلمة الكامن في النصوص المقدسة التي كان يحفظها العبريون، وقد أكد ذلك القديس يوسابيوس القيصري.

فابن الإنسان المسيح الكلمة المقدسة هو أصل كل حكمة وهو المعلم الأول ومصدر كل الحقائق وذلك بحسب ما جاء في الإصحاح السابع من سفر دانيال.

كما ذهب الآباء المحافظون إلى أن الكلمة الإلهية المتجسدة (يسوع المسيح) لم تعدل أو تبدل في الشريعة بل صوبت ما جنح عنه اليهود بفعل النفوس الشريرة التي حرفت الكلمة (فالناموس هو هو، ولكن يبدو غريباً في عيون الذين جحدوا كلمة الرب وهذا يثبت أيضاً أن المشرع واحد وهو الكلمة الأزلية) . ويرجع الخلاف بين أحبار اليهود وكهنة المسيحية إلى أن المسيح الذي كان ينتظره اليهود - كما أشرنا سلفا - ملك قوي البأس يقود شعبه إلى امتلاك العالم أما يسوع الناصري فجاء يبشر بملكوت السماء لذا أنكره أحبار اليهود وتآمروا عليه، وعلى الجانب الآخر اجتهد علماء اللاهوت المسيحي لإثبات أن المسيح ليس من الأنبياء الكذبة بل هو المخلص

الذي وعد به الرب وانتظره اليهود. أما عن مدى مشروعية التبشير في غير خراف بني إسرائيل الضالة فيبرر ذلك علماء اللاهوت بان نهي المسيح وتحذيره تلاميذه من التبشير بين الأمم "إلى طريق أمم لا تمضوا" قد نسخ منذ العقد السادس من القرن الأول بمجمع الآباء على ضرورة الخروج بالإنجيل بعيدا عن سلطة اليهود، وقد انفرد بذكر ذلك متى في إنجيله " فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس".

ويؤكد علماء اللاهوت الأرثوذكس ارتباط عقيدة الصلب بعقيدة الفداء تلك التي ترجع جذورها إلى القرابين التي كانت تقدم للإله عرفانا بالنعمة وطلبا للرزق وطمعا في الرحمة والنعيم الأخروي منذ قربان هابيل ابن آدم وأضحية إبراهيم، ذبائح موسى التي كانت تسفك بدمائها في المعابد اليهودية طلبا لغفران الخطايا ومحو الذنوب. أما القربان المسيحي فكان الأعظم والأجل والأكمل فالذبيح هو ابن الرب الذي صلب وسفك دمه من أجل خلاص العالم ويقول جون استوت في ذلك "هذه الذبائح التي حفل بها العهد القديم والتي ظل العمل بها حتى خراب الهيكل (وذلك بعد الميلاد بسبعين سنة) ... كانت ترمز بصورة مرئية إلى هذه الذبيحة العظمى (المسيح)"، "إن حتمية الألم هذه لم يكن من بديل عنها أو فكاك منها. ولذلك جرت كثيرا على لسان المسيح ولم يكن يخلو منها تعاليمه باعتبارها الصبغة التي كان عتيدا أن يصطبغ بها."، "حاشا لي أن افتخر الا بصليب ربنا يسوع المسيح الذي قد صلب العالم لي وأنا العالم" غل ١٢:٦.

ويضيف على ذلك إن عقيدة الصلب والفداء من الأمور التي لا يطيقها العقل البشري ومن ثم يعجز عن استيعابها وستظل على هذا النحو لا يقبلها الا المؤمنون "ومع ذلك فان اليوم لا محالة آت... حين ترفع الحجب، وتحل الألغاز، وتتكشف الأسرار... فنرى المسيح كما هو، ونعبده

إلى أبد الآبدين من اجل صنيعه معنا ... أما الآن فإننا كمن ينظر (في مرآة، في لغز لكن حينئذ وجها لوجه)". كما يؤكد علماء اللاهوت أن اقرب الآباء لشخص يسوع المسيح لم يستوعبوا الحكمة من حادثة الصلب، فها هو بطرس يستنكر هذا المصير بل يتنكر للمسيح قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات بحسب النبوءة، ثم يبكي نادما ورائيا، الأمر الذي يعرب عن جهله بحقيقة الصلب والفداء ولم يفصح بطرس عن حقيقة عقيدة الخلاص والفداء والصلب الا في رسالته تلك التي جاء فيها "أن المسيح تألم لأجلنا تاركا لنا مثالا لكي تتبعوا خطواته... إذا شتم لم يكن يشتم عوضا، وإذا تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلم لمن يقضي بالعدل. الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة، لكي يموت عن الخطايا، فنحيا للبر"١٨:٢ - ٢٤.

أما ما جاء من خلاف حول نسب يسوع المسيح الأرضي بين ما ذكره متّى في إنجيله وما ذكره لوقا فلا يعد تناقضاً فكلاهما قد نسب جسد المسيح ليوسف النجار، أما أسلاف النسب وسلسلة الأسباط المختلف عليها فترجع إلى نهج كل منهما في تسلسل الأنساب (النسب الطبيعي والنسب الناموسى) قد أطلق على هذه القضية (دسبوسينى) أي أقرباء المسيح من ناحية الجسد وعليه ينظر إلى آدم باعتباره ابن الرب أيضاً من ناحية الجسد ولكن يسوع هو ابنه الأوحد من ناحية الجسد والروح.

أما ما روى عن هروب يوسف النجار وزوجه مريم بولدهما يسوع خوفاً من بطش هيرودس لا يرجع لقلة إيمانهما بأن المولود هو المخلّص، بل إلى أن ملكاً قد أمرهما بالهروب والرضيع إلى مصر ثم عاد الملاك فأمرهما ثانية بالرجوع بعد موت هيرودس.

أما عن خصوصية المعمودية المسيحية واختلافها عن المعمودية اليهودية التى عمد بها المسيح، فان اللاهوتيون يؤكدون على أن المعمودية المسيحية قد

وضعها تلاميذ المسيح بالهام من الروح القدس إذ جعلوها تمنح مرة واحدة والى الأبد، وتجعل المسيحي في براءة الوليد وشريكا في موت المسيح وقيامته فعلى من يرغب أن يصير مسيحيا أن يتوب عن خطاياه ويحفظ الوصايا ويقبل الرسالة، معلنا إيمانه بالمسيح الفادي. وأن يسوع قد أعطى تلاميذه الأثنى عشر والجماعة الكنسية سلطان الغفران، واستبعاد الخاطئين غير التائبين من الجماعة، وقد اختلف اللاهوتيون الأوائل حتى القرن الرابع حول إمكانية تجديد العمادة للذين أسرفوا في خطاياهم بعد العمادة الأولى وكذا عودة الهراطقة التائبين، وقد استغل بعض الكهنة عقيدة الغفران والتوبة أسوء استغلال في العصر الوسيط حيث المتاجرة بصكوك الغفران. وتشير العديد من الكتابات اللاهوتية إلى أن شروط التوبة قد تطورت بفضل علماء اللاهوت في أخريات القرن الثالث ومن أهم هذه الشروط التى وضعت لها:

-ارتداء ثياب الفقراء، وإهمال النظافة الجسدية، والصوم، والامتناع عن أكل اللحوم، والتصدق، وعدم مزاولة بعض الحرف، والعزوف عن النساءمطلقاً. وأكد اللاهوتيون في هذه الحقبة أن عدم الانصياع لهذه الشروط ينقض عقد المصالحة، الأمر الذي كان وراء تأجيل العصاه لتوبتهم إلى سن الشيخوخة أو إلي قبيل الوفاة. وظلت هذه التعاليم سائدة حتى القرن الخامس.

والمتفق عليه أيضاً بين أنصار هذا الاتجاه أن بطرس وبولس اللذين قتلا في روما نحو عام ٦٧م لم يفصلا في قضية الأسفار المقدسة ولم يعيّنا إصحاحات العهد الجديد ولا رسائله، ولم يكن معروفاً من أسفار العهد القديم حتى هذا التاريخ إلا اثنين وعشرين سفراً (خمسة أسفار لموسى وسفر يوشع وسفر قضاة وراعوث وسفر صموئيل وسفر الملوك وسفر أخبار الأيام وسفر عزرا الأول والثاني وسفر المزامير وسفر الأمثال وسفر الجامعة وسفر نشيد الإنشاد وسفر الأنباء الصغار وسفر أشعيا وسفر أيوب وسفر أرميا

ومراثيه ورسالته وسفر دانيال وسفر حزقيال وسفر أيوب وسفر استير) أما أسفار العهد الجديد لا يوجد خلاف حول صحتها بوجه عام إلا القليل منها مثل: (رسالة يعقوب، ورسالة يهوذا، ورسالة بطرس الثانية، ورسالتا يوحنا الثانية والثالثة، وأعمال بولس، وسفر الراعي، ورؤيا بطرس، ورسالة برنابا، وتعاليم الرسل، ورؤيا يوحنا، وإنجيل العبرانيين، وإنجيل بطرس، وإنجيل توما، وإنجيل متياس، وأعمال اندراوس ويوحنا).

وقد أعتمد معظم الهراطقة والجدفين على الأسفار المرفوضة والمختلف على صحتها لإثبات ادعاءاتهم؛ الأمر الذي يبرر ذكرنا لهذه المسألة التي تعد التكأة النصية والحجة الإيمانية التي استند عليها المحافظون في وصف خصومهم بالتجديف والكذب على الرب والخروج عن تعليم الكنيسة. وتؤكد العديد من الكتب التاريخية أن الترجمة السبعينية(*) لنصوص العهد

* تشير الكتابات التاريخية إلى أن أسفار العهد القديم لم تكتب بلغة واحدة فبعضها كتب بالآرامية والبعض الآخر كتب بالسريانية أما الأسفار المتأخرة فكتبت بالعبرية وقد اختلف المؤرخون حول تحديد زمن ترجمتها على وجه الدقة فقيل انها ترجمت في الفترة الممتدة من ٢٥٠ إلى ١٠٠ ق.م وقيل أن الأسفار الأولى من هذه الترجمة ظهرت عام ٢٨٢ ق.م، ونسخت في اثنين وسبعين يوما على يد اثنين وسبعين حبرا من الذين يدقنون اليونانية والعبرية واغلب الظن أن هذه النسخ قد فقدت. أما ترجمة أسفار العهد القديم إلى اللغة القبطية فقد قام بها بتيمنوس في الفترة الممتدة من ٣٢٠ إلى ٤٢٠ بعد الميلاد، وترجم العهد الجديد من اليونانية إلى القبطية في الفترة الممتدة بين القرن الثالث والخامس بعد الميلاد ولم تظهر الترجمات العربية لبعض أسفار التوراة الا على يد أسقف اشبيلية عام ٧٥٠ م عن اللغة اللاتينية ولم يقسم محتوى العهد القديم إلى فصول الا في القرن الثالث عشر الميلادي على يد الكردينال ستيفن لانجتون ولم يقسم إلى إصحاحات وآيات الا على يد عالم الطباعة الفرنسي روبرت ستيفانز في القرن السادس عشر الميلادي.

وتنزع كتابات تاريخية أخرى إلى القول بان أسفار العهد القديم لم تظهر مجتمعة الا في القرن الثاني عشر للميلاد، وأن اقدم نصوص الشذرات التوراتية ترد إلى القرن الثالث ق.م وقد عثر عليها في القرن العشرين بالقرب من البحر الميت، أما اقدم النسخ المطبوعة للعهد القديم فلم تظهر الا عام ١٤٨٨ م وقيل أن أولى الترجمات العربية للعهد القديم ظهرت في القرن العاشر الميلادي على يد سعدية ابن يوسف. وقد اضطلعت فرقة أبناء العسال بمراجعة ترجمات الأناجيل الأربعة وإعادة صياغتها باللغة العربية في القرن الثالث عشر الميلادي وفي القرن السابع عشر الميلادي قام سركيس الرزي مطران دمشق بإعادة تنقيح النسخ العربية لأسفار العهد الجديد بعد مقارناتها ببعض الشذرات الآرامية والعبرية. وظهر الكتاب المقدس في ترجمتين عربيتين أولهما: عام ١٨٥٦م =

القديم من العبرية إلى اليونانية قد تمت بوحي من الله، فيروي ايريناوس نحو ٢٠٢م أن بطليمس الثاني فيلادلفيوس ٢٨٣-٢٤٦ق.م قد جمع اثنين وسبعين حبراً لترجمة أسفار العهد القديم في الفترة الممتدة بين عامي ٢٥٠- ١٣٠ ق.م من العبرية إلى اليونانية كل منهم على حدة، ثم جمع هذه الترجمات المتفرقة فوجدها متطابقة إلى حد التماثل، وهذا يؤكد على حد تعبير ايريناوس أن جميع المترجمين كانوا يكتبون بوحي من روح قدس.

ويجمع الأرثوذكسيون علي قداسة مريم العذراء باعتبارها أم الإله، وتعبر عن ذلك كلمات القديس ساويرس" كانت القديسة مريم نقية طاهرة من كل دنس وأثمرت من أحشائها ذاتها كما من السماء الإله المتجسد. حملت وولدت بطريقة إلاهية تماما. ليس أنها أعطت المولود الطبيعة الإلهية لان هذه كانت له قبل كل بدء وقبل كل الدهور لكنها أعطته الطبيعة البشرية بدون استحالة وذلك منها ومن الحلول الذي لا ينطق به السر الذي للروح القدس" ويبدو من القول السابق أن علة تقديس العذراء ترجع إلى مسئوليتها عن الأقنوم الثاني أي الطبيعة الناسوتية للابن فقد حملته في أحشائها وتغذى من بدنها وشرب من لبنها وما كان للإله أن ينمو الا على غذاء طيب مفعم بالروح اللاهية.

=

على يد عالي سميث المرسل الأمريكي وبطرس البستاني وكرنليوس قنديك أما الطبعة الثانية فقام بها الإرساليات الإنجليزية بمساعدة فارس الشدياق في الفترة الممتدة بين عامي ١٨٥١ و١٨٥٧م وقد اعتمدت على نسخة روما التي ظهرت عام ١٦٧١م ثم ظهرت ترجمة الآباء اليسوعيين عام ١٨٧٦م . ويؤكد المعنيون بالدراسات الشرقية وسيما المتخصصون في اللغة العبرية وآدابها أن ما قيل عن وحدة أسلوب الترجمة السبعينية هراء محض وأن تباين الصيغ لا يمكن تلافيه بين الأقلام المترجمة وإن اجتمعت. ويشير الدكتور أحمد دراج إلى البعد الدلالي بين العبرية التي كتبت بها شذرات أسفار التوراة وبين عبرية المترجمين السكندريين من جهة واللغة اليونانية الهلينستية المنقول أليها النص التي كانت اقرب إلى اللهجات العامية منها إلى لغة الأدب والفلسفة الإغريقية من جهة أخرى الأمر الذي يستحيل معه سلامة الترجمة ودقة الدلالات تلك التي اعتمد عليها بعد ذلك في الترجمات اللاحقة سواء إلى العبرية ثانية أو إلى اللاتينية أو العربية أو اللغات الأوروبية الحديثة.

وقد اعترض نسطوريوس على إطلاق صفة أم الإله على السيدة العذراء فلا تقديس عنده الا للجانب اللاهوتي من المسيح فقط، وقام القديس (كيرلس السكندرى نحو ٣٧٥ - ٤٤٤م) بالرد عليه مؤكدا عدم الفصل بين لاهوتية المسيح وناسوتيته ويبدو ذلك في قوله "من لا يعترف أن عمانوئيل أي يسوع المسيح هو اله حقيقي وان البتول مريم هي والدة الإله حيث ولدت جسديا الكلمة المتجسد الذي هو من الله كما هو مكتوب أن الكلمة صار جسدا فليكن محرما" وجاء في مجمع إفسس الثالث ٤٣١م اعترافا صريحا من مائتي أسقف بتقديس العذراء جاء فيه" نعظمك يا أم النور الحقيقي، ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الإله. لأنك ولدت لنا مخلص العالم أتي وخلص نفوسنا" غير أن كنيسة إنطاكية لم تعترف بهذا التعليم ولم تؤمن به، وقد تدخل الإمبراطور في نهاية الأمر لحسم القضية فاقر الجميع بتقديس العذراء.

* * *

أسباب ظهور الهراطقة

على الرغم من تباين الكتابات التاريخية عن الأسباب الرئيسة لظهور الهراطقة والحركات الإلحادية والنزعات الجانحة، إلا أننا يمكن ردها جميعا إلى قانون صراع الثقافات؛ وذلك لأن العقيدة المسيحية لم تكن امتدادا للثقافة اليهودية أو الديانات الوثنية أو الفلسفات الهللينية أو الهيللنستية، بل كانت مناهضة للعديد من معتقداتها وأفكارها على الرغم من تأثرها بها. كما أن تعاليمها الخلقية كانت بمثابة ثورة روحية على الواقع المادي السائد في الإمبراطورية الرومانية، الأمر الذي يبرر مقاومة كل هذه الأنساق التى شكلت بنية المجتمع الروماني - آنذاك - للمسيحية في صور متعددة. وسوف نحاول في عجالة الوقوف على ذلك الصراع الثقافي بين القديم والجديد، والثابت والمتغير، والنظر إليه من عدة زوايا: -

١- عجز العقل الجمعي عن تقبل عقيدة الكريستولوجى وأصول الإيمان المسيحي.

لم يكن من اليسير على اليهود تقبل العقيدة المسيحية وطقوسها ولا سيما العماد والأفخارستيا ووصايا المسيح التي كان يرددها بطرس وبرنابا وباقي التلاميذ لان كل ذلك كان في نظر عوام اليهود ضربا من البدع وكان أحبارهم يعتبرونه شكل من أشكال التجديف والجنوح عن الشريعة، وقد حاول بولس ويعقوب إقناع اليهود بأن ما جاء به المسيح لا يتناقض مع أصول الشريعة اليهودية، غير أن أحبار اليهود ناصبوا بولس العداء ووصفوه بالكذاب؛ الأمر الذي دفعه للنزوح إلى أوربا، فراح يخطب في أثينا محاولا

إقناع قادة الرأي - فيها - بأن الحكمة التي أتى بها يسوع لا تتعارض مع التعاليم الفلسفية الأخلاقية، غير انهم سخروا منه وانصرفوا عنه، وقد تعرّض القديس بولس إلي النفي والرجم عدة مرات، وانتهى الأمر بقطع رأسه في روما بتحريض من اليهود والفلاسفة الوثنيين وبعض الساسة. أما الذين آمنوا به فكانوا جماعات قليلة - من العبيد والنساء والفقراء والمستضعفين - ينظر لهم على انهم من أصحاب النحل السرية، وكانوا أضعف من أن يجاهروا بدعوتهم، أو يقوموا بالتبشير إلا في أضيق الحدود. وتشير الكتب التاريخية - على قلتها - إلى أن حظ بطرس ومرقس وتوما لم يكن أفضل من بولس، فجميعهم قد وقع عليهم الاضطهاد الروماني، واستشهدوا أثناء رحلتهم التبشيرية؛ الأمر الذي تعذّر معه في هذه الحقبة جمع الإصحاحات المقدسة التي كانوا يبشرون بها خاصة بعد تعمّد اليهود إرسال بعض الكهنة لتعقب المبشرين لإفساد تعاليمهم وادعائهم النبوة ونشر البدع والحكايات الغريبة والخرافات بين العوام، وقد ساعدهم على ذلك معرفتهم باللغة اليونانية واللاتينية.

أما التعاليم المقدسة التى كانت تتلى بالآرامية أو العبرية لم تنتشر إلا في نطاق ضيق جدا في فلسطين والأردن وسورية، وقد استخدم اللاهوتيون الأوائل - في القرن الثاني - اللغة اليونانية في كتابة أسفارهم المقدسة ولا سيما أولئك الذين كانوا على دراية بالفلسفة الهللينية. أضف إلى ذلك أن التعاليم المسيحية التى كانت تدعو للمحبة والوئام بين البشر والمساواة بين الجنسين والرفق بالعبيد ورعاية الأطفال وخلاص الساقطات من دنس الرذيلة وبغض الأغنياء الذين يكنزون المال وتحريم عبادة الأوثان والسجود للأباطرة، كانت تتعارض مع الأعراف والتقاليد الرومانية - كما أشرنا - الأمر الذي حال بين هذه التعاليم وانتشارها بين الإقطاعيين والنبلاء. وقد

وجه ساسة روما للجماعات المسيحية والمبشرين الغرباء النازحين من الشرق ثلاثة اتهامات وهي: أولها: الإلحاد، لموقفهم عن اليهودية ورفضهم ممارسة طقوس الوثنية وتقديم القرابين لآلهتهم والسجود لأباطرة الرومان وعبادتهم للص الذي مات مصلوبا. وثانيها: ممارسة الفحش وغشيان المحارم والإباحية الجنسية وأكلهم للحم البشر حيا وشرب دمائهم في طقوسهم الليلية، الأمر الذي يثير غضبة آلهة روما وينذر بوقوع كوارث طبيعية وبشرية ويهدد أمان الإمبراطورية. وثالثها: التآمر على أمن الإمبراطورية وامتناعهم عن دفع الضرائب والمشاركة في دواوين الحكومة وضعفهم وجهلهم بأمور السياسة وسلوكهم مسلك العبيد في اشتغالهم بالأعمال اليدوية وعدم انضمامهم للجيش لمحاربة الغزاة.

أما جل الفلاسفة في أثينا وانطاكية والإسكندرية فلم يروقهم التعاليم المسيحية بحجة إنها لم تأت بجديد عما هو موجود في كتابات فيثاغورس وأفلاطون والرواقيين في الأخلاق، أما التعالم الكريستولوجية ومسالة ألوهية المسيح فلم يقبلوها بحجة إنها تتعارض مع المنطق العقلي "فالتجسد هراء، فالإله كامل وغير قابل للتغير ولا يمكنه أن يتنازل ويصير طفلا، أما المسيح فهو رجل فقير مات على الصليب مثل اللصوص، ولم يمت موتة الحكماء مثل سقراط" من جهة، وتشابه القصص المنسوجة حول شخصية المسيح مع الأنساق الأسطورية اليونانية والرومانية والبوذية والمصرية والغنوسية من جهة أخرى، ويضيف الفيلسوف (قلسيوس الأبيقوري Celsus x178) في القرن الثاني أن أسفار التوراة شاغلة بالخرافات، وان عقيدة القيامة المسيحية لا يقبلها عاقل وان العماد يشجع على ارتكاب الرذيلة لأن إلههم يغفرها بعد المسح بالماء. وعلى الرغم من تعاطف الإمبراطور الفيلسوف الرواقي (مرقس أوريليوس ١٢١ - ١٨٠م) مع المسيحيين إلا أنه رفض الاستماع إلى

المدافعين عن العقيدة المسيحية ولم تستهوه تعاليمهم وفضّل عليها فلسفته الرواقية التي عاشها.

في حين نزع بعض الفلاسفة منذ أخريات القرن الأول لتأليف نسق يجمع بين اللاهوت والفلسفة في سياق واحد؛ الأمر الذي كان وراء ظهور العديد من الهرطقات والبدع - التى سوف نتناولها بالتفصيل في الفصل التالي.

وعلى النقيض من ذلك ظهر التيار اللاهوتي الفلسفي الذي حاول الدفاع عن المسيحية بلغة تجمع بين الثقافة الهللينية والأصول العقدية المسيحية وذلك منذ العقد الثالث من القرن الثاني، وأبرز من يمثل هذا التيار (يوستينوس نحو ١٦٥م) الذي أسس مدرسة فلسفية مسيحية في روما فيما بين ١٤٠ - ١٥٠م دافع فيها عن الإيمان المسيحي ردا على الوثنيين واليهود. وترتليانوس القرطاجي الذي أوضح حقيقة الإيمان المسيحي في كتابه "الدفاع" عام ١٩٧م وكتابه "إكليل الجنود" الذي بيّن فيه أن العقيدة المسيحية لا تمنع معتنقيها من دفع الضرائب ولا الدفاع عن الوطن والدعاء للقيصر، غير إنها تمنعهم من ارتكاب الرذائل التي اعتادها الرومان من قتل الأطفال وإجهاض النساء وتبادل الزوجات، بيد أن هذه الكتابات لم تمنع حملات الاضطهاد التي سوف نتحدث عنها بعد قليل.

٢- معارضة اليهود وكهنة وساسة الإمبراطورية الرومانية للعقيدة المسيحية.

ويبدو ذلك في تآمرهم على المسيح وتحريض الحكام الرومان عليه، ودعوتهم لصلبه، وقتل حواريه، ثم اتهام بولس بالكذب والمروق عن اليهودية لخدمة مصالحه الشخصية ولا سيما بعد إسقاطه بعض التعاليم

اليهودية من رسائله مثل: الختان وعطلة السبت، وعدم جعله قراءة أسفار التوراة ضمن طقوس العماد، وجعله الخلاص مرهونا بالإيمان بالعهد الجديد وبشارة المسيح وعقيدة الصلب والفداء. وقد قام القديس بولس الرسولي بتفنيد ادعاءات خصومه في رسائله الأربع عشرة وإصحاحاتها المائة، غير أن اليهود لم يكفوا عن محاربة المسيحية، فأوعزوا إلي النبلاء في روما بأن بطرس وبولس قد جاءوا بدعوة تفسد عليهم عبيدهم وتسلبهم سلطانهم وأموالهم، وقد نجحوا في ذلك فقتل بولس عام ٦٧م، وبطرس في نفس العام، وعقدت المحاكم الرومانية لاضطهاد المسيحيين• والتمثيل بأجسادهم في الفترة الممتدة

• تشير الموسوعة الكاثولوكيية لعصور الاضطهاد الروماني للمسيحيين، وتحصرها في عشرة اضطهادات أساسية ارتبطت بالأباطرة الذين أمروا بها، ولم يعرف عدد الذين استشهدوا خلالها بطرق مختلفة كالصلب والحرق وإطعام الحيوانات المفترسة . وهي: -

- اضطهاد نيرون سنة ٦٤م الذي بدأ عقب اتهامه المسيحيين بإحراق روما، وكان من أشهر ضحاياه القديسين بطرس وبولس.
- اضطهاد دومتيانوس سنة ٩٥م والذي ذهب ضحيته عدد من أرستقراطيسي روما، ونفي خلاله القديس يوحنا إلي باتموس.
- اضطهاد ترايانوس بين سنتي ١٠٨م و١١٢، وكان اشهر ضحاياه القديس أغناطيوس الأنطاكي.
- اضطهاد ماركوس أوبليوس سنة ١٧٧م وكان أشهر ضحاياه شهداء مدينة ليون الفرنسية والقديس يوستينوس.
- اضطهاد سبتيموس ساويروس سنة ٢٠٣م والذي منع المسيحيين من نشر إيمانهم والتبشير به، وكان أشهر ضحاياه القديستين بريتوا وفليستسه.
- اضطهاد مكسميوس سنة ٢٣٦م ضد الأساقفة والكهنة الذين اتهموا بإضعاف الروح القتالية في الإمبراطورية لرفضهم التجنيد الإجباري وكان من أبرز ضحاياه البابا بنطيانوس والقديس هيبوليتوس.
- اضطهاد داقلديانوس بين سنتي ٢٤٩م و٢٥١م والذي كان الأقسى والأكثر شمولا واتساعا إذ أجبر جميع المسيحيين من رجال ونساء وأطفال في القرى والمدن على تقديم الأضاحي للآلهة.
- اضطهاد فالربانوس بين سنتي ٢٥٨م و٢٦٠م والذي أجبر الأساقفة والكهنة على التخلي عن إيمانهم المسيحي، ومنع المؤمنين من ممارسة شعائرهم الدينية، وقد تمكن الامبراطور بنتيجة اضطهاده من سد العجز في خزينة الدولة بعد أن صادر أملاكهم وكان أشهر ضحاياه البابا سكستوس الثاني وشماسته، وأسقف قرطاجنة القديس قبريانوس.
- اضطهاد أورليانوس بين سنتي ٢٧٠م و٢٧٥ م.
- اضطهاد ديوقلتيانوس وخلفائه بين سنتي ٣٠٣م و٣١٣م والذي بدأ بطرد المسيحيين من الإدارة والجيش، =

من منتصف القرن الأول إلي أخريات القرن الثالث، وقد عانى المسيحيون خلالها من الاضطهاد العقدي والتعذيب الجسدي والمذابح الجماعية واغتصاب النسوة ونهب الأموال حتى اعترفت الدولة الرومانية بديانتهم، ومن أشهر المذابح التي تعرضوا لها تلك التي شنها الإمبراطور (نيرون كلاوديوس٣٧ - ٦٨م) قيصر روما ٥٤ - ٦٨م الذي اتهم المسيحيين بحريق روما عام ٦٤م وأمر بإبادتهم جميعا، وفي عام ٧٠م قتل (تيطس ٣٩ - ٨١م) - ابن الإمبراطور الروماني فسبسيانس - مئات المسيحيين أثناء إخماده ثورة اليهود، وحطم هيكل سليمان في أورشليم للقضاء على المقدسات اليهودية والمسيحية معا. وفي عام ٩٥م شن الإمبراطور دوميتيانس٥١ - ٩٦م حملة لجباية الضرائب من اليهود المسيحيين وقتل خلالها المئات أيضا، وفي عام ٩٩م طبق الإمبراطور تريانس القانون الذي استنه نيرون من قبل الذي يعتبر كل من اعتنق المسيحية خارج عن القانون ويجب قتله. وفي مطلع القرن الثاني تتبع اليهود مكامن المسيحيين الفارين من الاضطهاد الروماني وأرشدوا إليهم حكام الولايات لقتلهم. وفي عام ١١٢م أصدر الإمبراطور تريانس مرسوما يقضي باعتبار المسيحيين - الرافضين عبادة القيصر وتقديم القرابين لتماثيله - خونة ومارقين، وقد عقدت عشرات المحاكمات للمؤمنين بالمسيح وحكم عليهم بقطع رؤوسهم أو حرقهم أو تقديمهم أحياء فريسة للوحوش الجائعة، وفي عام ٢٤٩م بعث الإمبراطور دافيوس٢٠١ - ٢٥١م سياسة العنف الروماني تجاه المسيحيين الذين نعموا ببعض الهدوء النسبي خلال القرن الثاني، فحرّم المسيحية تحريما تاما، وقام بحرق الرقع والكتب

=

ثم أمر الإمبراطور بهدم الكنائس وإحراق الكتب المقدسة وسجن الأساقفة، وبعد تنحي ديوقلتيانوس عن العرش سنة ٣٠٥م توقف الاضطهاد في الغرب لكنه استمر واشتد في أوربا الشرقية وآسيا الصغرى وسورية ومصر. وانتهت الاضطهادات سنة ٣١٣م عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين مرسوم ميلانو.

التي ذكر فيها اسم يسوع، وأرغم المؤمنين بها على تقديم القرابين للآلهة الرومانية، والتنكيل بمن يأبى ذلك، وقد استمرت هذه الموجة من الاضطهاد الوحشي حتى نهاية القرن الثالث وذلك عقب ادعاء اليهود وكهنة الرومان، بأن الطاعون الذي انتشر في شرق وغرب الإمبراطورية ما هو إلا غضب من الآلهة وانتقاما منهم لوجود المسيحية.

وقد دفعت الاضطرابات السياسية والحروب الخارجية الحكام الرومان الى التنكيل بالمسيحيين لتجييش العوام - الذين كانوا يعتقدون أن عدم طاعة المسيحيين للآلهة الرومانية وراء هجوم الغزاة عليهم - للدفاع عن حدود الإمبراطورية الرومانية.

وفي عام ٣٠٣م أصدر الإمبراطور ديوقلتيانوس – بتحريض من النبلاء والكهنة والعرافين وفلاسفة الإسكندرية - مرسوما يقضي بمحو كنائس المسيحيين وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه.

ولم تتوقف حملات التنكيل بالمسيحيين إلا في أبريل عام ٣١١م عقب اعتراف الإمبراطورية الرومانية بالديانة المسيحية والسماح لاتباعها بالصلاة الجماعية جهارا شريطة عدم الإخلال بالنظام.

وفي عام ٣١٢م أطلق الإمبراطور قسطنطين الأكبر٢٧٤ - ٣٣٧م حرية العبادة لهم وسمح لهم بالتبشير بتعاليمهم في شتى أنحاء الإمبراطورية الرومانية، وفي عام ٣١٣م أصدر مرسوما بإنهاء عصور الاضطهاد العقدي، وإطلاق حرية العبادة للمواطنين دون التقيد بأي دين رسمي، غير أن الوثنيين والفلاسفة لم يكفوا عن تحريض الساسة في الشرق على اضطهاد المسيحيين وهدم كنائسهم وإحراق كتبهم، وفي أخريات العقد الثاني من القرن الثالث أعلن قسطنطين أن المسيحية هي الدين الرسمي لإمبراطوريته،

ورسم الصليب على علمها. كما أخذ ببعض تعاليم المسيحية في تشريعاته القانونية مثل: إلغاء البغاء، وتحريم وطأ المربين تلاميذهم، وشدد في الطلاق، وحث الإمبراطورية على كفل اليتامى والأرامل، وإعتاق الرقيق الذين اعتنقوا المسيحية.

أما الهرطقات ونقوض الفلاسفة فقد بدأت مع كتابات بولس الأولى - كما أشرنا - ولم تقف انتقاداتهم عند حد التسفيه والتشويش والتعريض بل تجاوزت ذلك إلى تحريض بعض السحرة والمشعوذين والوثنيين للتظاهر باعتناق المسيحية والعمل على إفساد عقائدها من الداخل، وقد نجحوا في ذلك أيضا، ولا سيما في ظهور المتنبئين ومدعي الألوهية ومروجي الفلسفات الهندوسية والفارسية والغنوسية، ذلك فضلا عن تزييفهم لإصحاحات الأناجيل، ونسبها لتلاميذ المسيح، وقد ظهر في القرون الأولى للمسيحية أكثر من ثلاثة مائة إنجيل شارك في كتابة معظمها أحبار اليهود وطلاب مدرسة الإسكندرية الفلسفية ومدرسة أنطاكية والأبيقوريون والشكاك الأكاديميون واليهود الصدوقيون والفريسيون والسامريون والغنوسيون.

٣- تعدد المصادر اللاهوتية وغيبة النص المقدس المجمع على صحة مصدره والمتفق على وحدة دلالة مضمونه.

لم يكن في مقدور الجماعات الأولى المسيحية المتفرقة في الكهوف والمختبئة في السراديب جمع نصوص العهد الجديد حتى منتصف القرن الثاني ويرجع ذلك إلى عدة أسباب - قد أشرنا إلى بعضها سلفا - مثل تفرّق رسائل التلاميذ الأثنى عشر(*) بين أرجاء الإمبراطورية الرومانية وفارس والهند،

*يطلق على تلاميذ المسيح الإثنى عشر الآباء الرسوليين أو الحواريين الأبرار حملة الوحي المقدس وكلمة الرب وأنبياء الروح القدس، وقد وردت أسماءهم في العهد الجديد في إنجيل "متى ومرقص ولوقا" على النحو =

وضياع بعضها وحريق البعض الأخر خلال سنوات الاضطهاد، أضف إلى ذلك عدم وجود هيئة كنسية تعنى بهذا الأمر مع زيوع الكتابات المنحولة، فقد عكف تلاميذ المسيح على التعبد في بيوتهم أو في الأديرة اليهودية المهجورة، وقد اتخذوا من يعقوب أخي المسيح معلما ومرشدا ثم ابن عمه شمعون بعد قتل الأول على يد اليهود، فلم تكن لهم كنيسة بالمعنى المتعارف عليه في القرن الرابع الميلادي. وتجمع العديد من الكتابات التاريخية على أن المسيحيين الأوائل كانوا يطالعون نصوص العهد القديم ويؤولون بعض أسفاره تأويلا جديدا، وذلك لأن التفاسير اليهودية تنكر تماما وجود أي صلة بين إصحاحات العهد القديم وبين شخصية المسيح، بالإضافة للتعاليم الشفهية التي كانت تتلى من إصحاحات الإنجيل الذي حفظه بطرس وباقي التلاميذ ذلك الإنجيل الذي لم يكن مدونا آنذاك، الأمر الذي دفع ايريناوس أسقف ليون إلى الاجتهاد في وضع قواعد لإثبات صحة التعاليم الشفهية عن طريق التحري عن سندها والتيقن من مصدرها حتى لا تختلط بأقوال اليهود المدسوسة وتعاليم أرباب البدع المنحولة وذلك في كتابيه" الرد على البدع" و"التدليل على الكرازة الرسولية" وقد حاول في الأخير وضع الأصول

=

التالي: سمعان الذي يقال له بطرس وإندراوس أخوه، ويعقوب بن زبدي، ويوحنا أخوه، وفيلبس، وبرثلماوس، وتوما، ومتى العشار، ويعقوب بن حلفى، ولباوس الملقب بتداوس، وسمعان القانوي المدعو الغيور،، ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه، غير أن هناك خلاف بين قائمة الأسماء التي أوردها متى ومرقص من جهة، ولوقا من جهة أخرى، ويتمثل هذا الخلاف حول اسم لباوس أو تداوس الذي ذكر في متى ومرقص ويهوذا أخي يعقوب الذي انفرد بذكره لوقا أما منيا الذي حل محل يهوذ' فليس له ذكر في القوائم الثلاثة. وكذا اسم برنابا . وترجع بعض الدراسات المعاصرة هذا الخلاف إلي الشقاق الذي كان قائما بين مدرسة بطرس الذي يتمي إليها متى ومرقص ومدرسة بولس التي كان يتمي إليها لوقا تلك التي حذفت اسم برنابا من القائمة للخلاف الذي قام بينه وبين بولس الذي ذكر في أعمال الرسل (١٥: ٣٦- ٤٠) . وتشير الدراسات التاريخية إلي أن معظم .أعمالهم لم تكتب، وان تعاليمهم كانت تتلى شفهية حتى نهاية القرن الأول ولا يعرف على وجه الدقة إن كان الإنجيل المنسوب إلي "متى" أو إلي "يوحنا" وكذلك الرسائل المنسوبة إلي بطرس ويهوذا من وضعهم أو نحلت عليهم أو شارك في كتابتها اللاهوتيون الأوائل، أما إنجيل توما فقد أشارت إليه بعض الدراسات على أنها من الأعمال اللاهوتية المفقودة.

العقدية لتوحيد إيمان الكنيسة على الرغم من إدراكه للبون الشاسع بين تعاليم التلاميذ وبطرس ويعقوب في الناصرة والقدس وبين تعاليم بولس ولوقا ويوحنا، غير أن هذه المهمة كانت في غاية الصعوبة. ولم تظهر الكتابات اللاهوتية إلا في القرن الثاني على يد القديس (أغناطيوس نحو ١١٠م) أسقف أنطاكية الذي يرد إليه تأسيس علم اللاهوت المسيحي وذلك في رسائله السبع التي وضح فيها أصول العقيدة الكريستولوجية تلك التي حاكى فيها رسائل بولس، وبيّن أن المسيح هو المخلّص والمكمل للوحي الكتابي.

أضف إلى ذلك تشكيك اليهود في أقوال القديس بولس الطرطوسي(*) (شاؤول) - الملقب برسول - ووصفهم إياه ب (المجدّف المتملق الآفاق)، الأمر الذي شكك العوام في صدق العقيدة البولسية، ودفع الغنوسيين إلى

(*) يؤكد الدكتور هايم ماكبي أستاذ تاريخ الأديان المقارن بمعهد "ليوبايك" بلندن في كتابه : " بولس وتحريف المسيحية" على صدق اتهامات اليهود لبولس، ويضيف أن رسائله اللاهوتية تختلف تماما عن العقيدة الأصلية التي بشّر بها المسيح، كما يرد إليه تأسيس العقيدة الكريستولوجية وتأليه المسيح التي حاكاها صديقيه لوقا ويوحنا في أنجيليهما، إذ كان لبولس السبق في تدوين اللاهوت ويتمثل ذلك في تلك الرسائل التي كان يرسلها إلي الولايات الرومية، وقد بلغ عددها أربع عشرة رسالة، وظهرت مكتوبة بين عامي٥٠ و٦٠ ميلادية، أما الأناجيل المنسوبة إلي مرقص ولوقا ومتى ويوحنا فلم تظهر مكتوبة إلا بين عامي ٧٠ و١١٠ميلادية على أقل تقدير، وقد تأثر كتّابها ومترجموها بطبيعة الحال بنصوص بولس المكتوبة، أما تعاليم تلاميذ المسيح فكانت تتلى شفهية وسرعان ما استبعدت لمخالفتها للمصادر البولسية، غير أن الأبيونيين قد حفظوها واحتجوا بها على صدق دعوتهم التي تنكر ألوهية المسيح وتصف بولس بالكذب وتحريف العقيدة، ذلك فضلا عن اختلاف كتابات بطرس ومرقص ومتى عن التعاليم الكريستولوجية البولسية وذلك رغم وضع البولسين العديد من الشذرات بين إصحاحاتها لإثبات ألوهية المسيح أما متفلسفوا اليهود فقد تلقفوا فكرة بولس عن المسيح والبسوها الطابع الغنوسي وعلى رأسهم ماركيون صديق بولس، كما يشير ماكبي إلي التدليس الذي وضعه بولس ولوقا حول شخصية الأول لإقناع المسيحين بصدق دعواه وعلو قدره ومكانته على سائر تلاميذ المسيح بما في ذلك بطرس تلك الأقاصيص المروية في رسائل بولس وأعمال الرسل التي تتحدث عن أصله ونسبه ووضعه في الكهنوت اليهودي تلك التي كذبها أحبار اليهود المعاصرون له، فقد روي انه فريسي ملهم شأن الربانيين التلموديين، وتارة أخرى يروي انه كان يهاجم المسيح ويسوق اتباعه للجحيم بإذن من كبير كهنة الصدوقيين، الأمر الذي يفضح تلفيقه - على حد تعبير هايم مكابي-، ثم يروي أن المسيح قد ظهر له بعد قيامته وأمره بالتبشير وبالعماد وخصه بأسرار لم يبح لغيره بها من تلاميذه مثل: تحريم الختان وإلغاء السبت وتحليل أكل لحم الخنزير، ويرى هايم ماكبي أن معظم هذه القصص قد وضعها الرومان الذين اعتنقوا المسيحية لإضعاف كنيسة القدس .

انتحال بعض كلمات بولس وتحريفها، وعلى الجانب الأخر ظهر الأبيونيون أعداء التعاليم اللاهوتية البولسية يؤكدون على ناسوتية المسيح وتكذيب كل ما جاء على لسان يوحنا بشأن ألوهية السيد المسيح، الأمر الذي كان وراء ظهور عشرات الأناجيل(*) Gospel المتناقضة فبعضهاساير تعاليم بولس

---

* الإنجيل لفظة يونانية معربة وتعني : البشارة، وتطلق على الأقوال والتعاليم والقصص المتعلق بشخص المسيح، وترجع مصادرها إلى أصلين، أولهما يطلق عليه: logia وتحوي أقوال المسيح ونصائحه وتعاليمه الأخلاقية، وكانت تتلى شفهية خلال القرن الأول، ولا يوجد لها أصل مكتوب، أما الأصل الثاني فيرد إلى الحواريين أو تلاميذ المسيح وقد ظهرت أولى هذه الكتابات في أخريات القرن الأول ومنها إنجيل الإخلاص وإنجيل توما وإنجيل العبرانيين وإنجيل بطرس وإنجيل يعقوب وإنجيل فيليب وإنجيل اندرواس وإنجيل الحقيقة وإنجيل برنابا ولها أصول آرامية وعبرية ويونانية مختلف على صحتها.

أما الأناجيل الأربعة المدرجة في العهد الجديد " متى، مرقص، لوقا، يوحنا "، فلا يعرف على وجه الدقة عددها ؟ ومعيار اختيارها، والشخصيات المنسوبة إليهم متونها؟ والحقبة الزمنية التى كتبت فيها؟، ولا طبيعة العلاقة التى تربط بين الأناجيل وكاتبيها مثل: مرقص ولوقا فلم يكونا من التلاميذ الإثنى عشر. أما إنجيلا متى ويوحنا تلميذا المسيح فقد شككت دائرة المعارف البريطانية في نسبهما لهذين التلميذين، وترجع ذلك إلى الأخطاء التاريخية والدلالات الرمزية والقصص الميثولوجية التى شغلت إصحاحاتهما، وترجح إنها قد كتبت في زمن لاحق ثم نسبت إليهما، وتضيف دائرة المعارف الأمريكية أن التباين الواضح بين أساليب الأناجيل الأربعة من حيث التراكيب اللغوية ينبأ بأن متونها لم تكتب في ثقافة واحدة ولا في حقبة زمنية قريبة من عصر المسيح، فمن المحتمل أن يكون إنجيل مرقص قد ظهر نحو عام ٦٨م بروما، ولوقا نحو عام ٩٠م، ومتى نحو عام ١١٢م بأنطاكية، ويوحنا نحو عام ١٢٥بأفسس، وتستند في ذلك على غيبة النصوص الآرامية واليونانية والعبرية الأصلية لهذه الأسفار، ذلك بالإضافة إلى وجود مئات المواضع المختلف عليها بين كتّابها.

ويشير دنيس إريك نينهام أستاذ اللاهوت بجامعة لندن في مقدمة تفسيره لإنجيل مرقس إلى عجز القصص الإنجيل عن وصف شخص المسيح بدقة من حيث ثقافته ومزاجه الشخصي وتتبع تفاصيل حياته قبل البشارة وبعدها، الأمر الذي يخرج متونها من دائرة الكتابات التاريخية الدقيقة، وقد أقره على ذلك ستريتر في كتابه الأناجيل الأربعة فذكر أن هناك أسئلة عديدة حول شخصية المسيح لم تستطع المتون الإنجيلية الإجابة عنها (زمن ولادته، ومدة بشارته، وتفاصيل حياته العائلية) .

ويعلل اللاهوتيون المحافظون تباين أساليب الأناجيل وخلافاتها في سرد الأحداث ورواية حرفية تعاليمها إلي أمرين، أولهما: إيمانهم بأن هذه النصوص ليست منزلة ولكنها مقدسة بحكم انتسابها إلى تلاميذ المسيح أو معاصريه من القديسين، وثانيهما: يرد إلى قدرة أصحابها على التعبير ورواية الأحداث، وهي مختلفة بطبيعة الحال على الرغم من أن كل منهم قد استلهم ما يحتويه إنجيله من الروح القدس.

وترد اقدم مخطوطات الأناجيل إلى احقاب تاريخية متباينة، فبعضها يرد إلى القرن الأول وهي مجرد شذرات غير كاملة، أما المخطوطات الكاملة فترجع إلى القرن الرابع والخامس الميلادي وأقدمها المخطوطات السينائية والفاتيكانية السكندرية وجميعها كتب باللغة اليونانية. وينظر اللاهوتيون المحافظون بعين الريبة إلى
=

التي دونها في رسائله منذ وقت مبكر نحو عام ٥٠م والبعض الآخر تحزب لبرنابا وتوما ضد الأناجيل الغنوسية والتعاليم البولسية التي أنكرها بطرس، وقد أدى ذلك التشويش العقدي إلى ظهور اللاهوت الفلسفي الذي حاول جمع هذه الروايات والتعاليم المكتوبة في نسق مفعم باليهودية تارة، ومعادي لها تارة أخرى، وقد عبرت الغنوسية والأنتحالية والدسوتية والسابلية والمانوية والسميساطية والأريوسية أصدق التعبير عن ذلك التخبط العقدي، فكل هذه الفرق قد اجتهدت في بناء نسق عقلي للعقيدة الكريستولوجية. وقد عجز اللاهوتيون المحافظون عن درء هذا الشقاق خلال القرون الثلاثة الأولى، فقد عكفت مدرستا أنطاكية والإسكندرية منذ منتصف القرن الثاني على تحليل كتابات الهراطقة فوجدوا إنها تثير قضيتين غاية في الخطورة، أولهما: تتعلق بأصول الإيمان وطبيعة المسيح والمجيء الثاني له والخلاص الأبدي، وثانيهما: ناقشت قضايا الشريعة، وطبيعة العلاقة بين الناموس التوراتي والتعديلات التي وضعها بولس في رسائله بشأن العماد والختان والسبت...الخ، ولم يكن في مقدور الجيل الثاني من أتباع المسيح حسم الأمر في القضيتين للحفاظ على ثبات التعاليم التي يؤمنون بها، فاجتهدوا في تأسيس علم اللاهوت لإيجاد سلطة لاهوتية تنتحل المنهج التأويلي وتستعين بالجدل الفلسفي للرد على الخصوم من جهة، وإيجاد الصلة بين نصوص العهدين القديم والجديد من جهة ثانية، وانتخاب النصوص المقدسة من بين المطروح من النصوص المنتحلة من جهة ثالثة، غير أن هذه المحاولات كانت تفتقر إلى آليات التفعيل التي كان الاضطهاد والجهل والفقر والضعف يحول

=
الأناجيل المخالفة لقانون الإيمان النيقوي ويطلقون عليها الأناجيل المنحولة Apokryphos ومنها: إنجيل يعقوب، إنجيل العبرانيين، وإنجيل توما، وإنجيل بطرس وإنجيل نيقوديموس وإنجيل هيرماس الراعي وبرنابا وانجيل المصريين وإنجيل مريم، وإنجيل ماركيون وإنجيل الأبيونيين، وجميع نصوصها ترجع إلى الفترة الممتدة من القرن الأول إلى القرن السادس .

بينهم وبينها، الأمر الذي مكّن أنصار اللاهوت الفلسفي من الغنوسيين وأصحاب الوحدانية المطلقة من الأبيونيين والأنطاكيين من نشر عقائدهم وتقديم الحجج على صدقها، واستمر هذا الصراع حتى الربع الأول من القرن الرابع الميلادي بعد مجمع نيقية - الذي سوف نتحدث عنه بعد قليل -، وعلى الرغم من صدور قانون الإيمان وتدخل الإمبراطور قسطنطين لحمايته وتطبيقه فلم يتوقف الصراع حول قضية الكريستولوجى طوال القرون العشرة الأولى ويتضح ذلك في قانون الإيمان الآريوسي الذي رفض لاهوت المسيح وأكد على ناسوتيته في مجمع سرميوم بجنوب فرنسا عام ٣٥٧م، ومجمع أنطاكية الذي عقد عام ٣٦١م الذي كذب فيه الآريوسيون العقيدة البولسية وما جاء في إنجيلي يوحنا ولوقا وأعمال الرسل من إشارات عن ألوهية المسيح واعتبروها من الكتابات المنحولة والبدع والهرطقات، ووضعوا قانونا للإيمان يؤكد عقيدتهم في التوحيد المطلق، وسرعان ما نقضت هذه العقيدة وحرقت كتبهم للمرة الثانية عقب تولي الإمبراطور يوبيانوس عرش الإمبراطورية الرومانية الذي كان معاديا للآريوسية، وناصر خصومهم تأييد قانون الإيمان النيقوي وفرضه على شتى أنحاء الإمبراطورية وحرّم دونه من المعتقدات. وقد عجزت الفلسفة المسيحية عن تبرير القانون النيقوي وتفسير العقيدة الكريستولوجية تفسيرا عقليا، كما عجزت كذلك محاكم التفتيش عن القضاء على الهراطقة الرافضين لمبدأ "أومن كي أعقل" الذي تبنته السلطة الكهنوتية المؤيدة للسلطة السياسية خلال العصور الوسطى.

ويؤكد كل من دينيس نينهام وموريس ويلز وميخائيل جولدر وغيرهم من أساتذة اللاهوت الإنجليز في كتابهم " أسطورة الإله المتجسد" - الذي صدر في لندن عام ١٩٧٧م - على أن تعدد الروايات الشفهية، وغيبة النصوص الآرامية التي كتبت في عصر المسيح، وتقدم تدوين رسائل بولس على أناجيل التلاميذ من أمثال بطرس ويعقوب وتوما هو العلة الحقيقية

وراء ظهور الهرطقات من جهة، وتعقيد القضية الكريستولوجية وصعوبة الفصل فيها من جهة أخرى.

٤- ضعف السلطة اللاهوتية وغيبة السلطة السياسية للمسيحيين الأوائل.

تؤكد الكتابات التاريخية على أن النظام الكهنوتي الكنسي لم يؤسس في المسيحية إلا في أخريات القرن الثاني ويحتجون في ذلك بتعدد تعاليم الآباء واختلافهم حول أسس العقيدة، ذلك فضلا عن تزييف أصحاب البدع للأسفار المقدسة، فلم يكن في مقدور معتنقي المسيحية في القرن الأول والثاني تشكيل نظام كهنوتي لتسييس أمورهم، وتحديد أصول عقيدتهم، أو استمالة أصحاب النفوذ من النبلاء أو القياصرة لملتهم، وذلك في ظل وثنية الديانة الرومانية وعقيدة تأليه القياصرة، وعداء كهنة جيوبيتر الذين كانوا يعتبرون المسيحيين من أصحاب الملل السرية الشاذة لهم.

ولم تظهر الإبراشيات والمدارس اللاهوتية المسيحية إلا في أخريات القرن الثاني في الإسكندرية وصور وصيدا والرها ولا سيما بعد اعتناق -(أبجر التاسع ١٧٩ - ٢١٦م) ملك المدينة الأخيرة - المسيحية. وقد ساهمت مهادنة حكام الرومان للمسيحيين في ظهور أولى المكتبات اللاهوتية المسيحية نحو ٢١٢م في كنيسة أورشليم على يد الأسقف (الكسندروس نحو ٢٢٧م) الذي اجتهد في جمع إصحاحات الأناجيل ورسائل بولس وبطرس المتناثرة، وأعاد كتابتها، وجمع أخبار تلاميذ المسيح، وسير أوائل القدسيين. وتشييد مدرسة قيصرية فلسطين على يد القديس أوريجانوس نحو عام ٢٣١م وكان لها عظيم الأثر في نشر المسيحية في آسيا.

غير أن حملات الاضطهاد هدمت معظم المدارس والكنائس المسيحية وحرقت جل الوثائق التي حوتها المكتبات. أضف إلى ذلك ضعف قرارات

المجامع التي تقضي بهرطقة الجامحين والجانحين والمجدفين والخارجين على تعاليم الكنيسة التي عقدت في القرن الثاني والثالث، منها مجمع قرطاجة عام ٢٥٠م في تونس الذي رفض عودة الهراطقة التائبين إلي حظيرة الإيمان المسيحي، ومجمع روما عام ٢٥١م الذي قبل رجوع التائبين واعتبر هرطقتهم تحت وطأة التعذيب ضعفا دينيا لا يستحق الحرمان والطرد، ومجمع أنطاكية عام ٢٥٢م لحسم مسألة عودة الهراطقة إلي مناصبهم الكهنوتية بعد توبتهم ولكنه باء بالفشل، وانقسمت الكنيسة إلي فريقين بين مؤيد ومعارض واتهم كل فريق منهما الآخر بالتجديف والمروق. الأمر الذي كان وراء اتهام بعض المؤرخين لرؤساء الكنائس بالفساد والتكالب على المناصب الكهنوتية طمعا في السلطة والجاه والمال، ومن أقوال المؤرخ الكنسي أفسابيس في ذلك " إن هؤلاء الذين يتظاهرون أنهم رعاتنا قد استخفوا بقواعد الدين، وتلهبوا حسدا، ولم يتقدموا في شيء سوى المجادلة والمنازعة والمناظرة والمشاغبة والمباغضة". وكذلك مجمع أنطاكية الثاني عام ٢٦٤م الذي حكم على بولس السميساطي بالهرطقة على الرغم من تزايد اتباعه ولا سيما بين العرب الذين جحدوا تعاليم خصومه، وقد جلس بولس السميساطي على كرسي الأسقفية حتى عام ٢٧٢م بتأييد من الملكة زنوبيا ملكة تدمر العربية غير عابئ بقرار مجمع أنطاكية الثالث عام ٢٦٨م الذي حكم بهرطقته وطرده من سلك الكهنوت ومجمع الإسكندرية الذي عقد ٣٢١م للفصل في آراء آريوس في ألوهية المسيح، فعلى الرغم من إدانة جل الحاضرين لتعاليمه إلا أن دعوته ظلت خلال القرون التالية وتسببت في انقسام الكنيسة حول قضية الكريستولوجي. وقد تزايد اتباعه رغم الحكم الذي صدر عليه في المجمع الأنطاكي الثاني الذي لم يستطع أيضا فض الخلاف. ويصف المؤرخون هذا الشقاق العقدي الذي شغل اللاهوتيين في الربع الأول من القرن الرابع بأنه

كان ميدانا فسيحا للتراشق الملي وتبادل الاتهامات بالتجديف والهرطقة بين الكهنة والأساقفة، الأمر الذي فتح الباب على مصرعيه أمام الهراطقة لتزييف أصول الإيمان المسيحي من جهة، وانشقاق المسيحية إلي طوائف ومذاهب متعارضة من جهة ثانية، وتدخل رجال السياسة في حسم القضايا العقدية من جهة ثالثة، والتأكيد على ضعف السلطة اللاهوتية من جهة رابعة. وقد عجز المجمع الأنطاكي الرابع عن حسم المسألة الأريوسية واكتفى بمحاولة التوفيق بين المتخاصمين في صيغة إيمانية هشة هي: "نؤمن باله فائق القدرة، أزلي لا يتغير، خلق السماء والأرض وكل ما يوجد، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور"، ولم يحسم الخلاف إلا بتدخل الإمبراطور قسطنطين الأكبر الذي دعا في نيقية المجمع المسكوني الأول عام ٣٢٥م وحضره نحو ثلاثمائة أسقف، وانتهى إلي رفض تعاليم آريوس ونفيه. غير أن البدع الآريوسية ظلت تمارس داخل الكنائس الشرقية رغم صدور قانون الإيمان النيقاوي - الذي جاء فيه: " نؤمن باله واحد، الله الآب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور كله حق من إله حق مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء، وتجسد من الروح القدس، ومن مريم العذراء، تأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطي تألم وقبر، وقام من الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السماوات وجلس عن يمين أبيه، وأيضا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس لملكه انقضاء، نؤمن بالروح القدس" - الأمر الذي دفع الإمبراطور إلي عقد مجمع آخر في صور عام ٣٣٥م استمع فيه إلي الآريوسيين الذين اتهموا خصمهم

أثناسيوس بالتجديف والفساد الخلقي، وأحال المسألة إلي التحقيق، ثم أمر بنفي أثناسيوس وإعادة آريوس إلى منصبه، ولما تعذّر ذلك أصدر مرسوما بإلحاق الأخير بكنيسة القسطنطينية، وظل فيها حتى مات عام ٣٣٦م، غير أن تعاليمه ظلت حتى نهاية القرن الرابع الميلادي في الشرق، ثم انتقلت إلى القوط واللومبارد حتى القرن السابع الميلادي في أوربا. أما أثناسيوس فظل مطاردا من قبل رجالات السياسة وعلى رأسهم الإمبراطور قسطنطينيوس بتحريض من الآريوسيين فعلى الرغم من تعاطف اللاهوتيين وفي مقدمتهم بابا روما ورغبتهم في عودته إلا أن إرادة الساسة كانت الأقوى وظل الحال على هذا النحو حتى مات في عام ٣٧٣م في أحد الأديرة بالصحراء الغربية المصرية، وقد ترتب على ذلك تزايد نفوذ رجال السياسة والحكم في المشاكل العقدية. وقد عجز كذلك مجمع الإسكندرية الذي عقد في عام ٣٦٢م عن إبطال بدعة أبوليناريوس الفلسفية، الأمر الذي دعا لعقد المجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية في عام ٣٨١م للحد من ظهور البدع حول تفسير العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، غير انه لم ينجح في ذلك على الرغم من محاولته تضييق الخناق على أصحاب البدع وذلك بالتأكيد على قانون الإيمان النيقي الذي لم يفرق بين الأقانيم الثلاثة في الوجود والقدرة والعلم، ولم يصادر بعضها لصالح البعض الآخر "نؤمن بالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب نسجد له ونمجده مع الآب والابن الناطق في الأنبياء وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي امين"، غير أن هذه الصيغة لم يقنع بها أبوليناريوس وأتباعه، فحكم المجمع عليهم بالحرمان والنفي، وصدّق الإمبراطور على ذلك، ولم يفلح المجمع المسكوني الثالث ٤٣١م في الحد من بدعة النساطرة، ولم يحسم الأمر إلا مرسوما إمبراطوريا حرمت فيه البدعة

النسطورية، وظل الأمر على هذا النحو الذي فتح الباب أمام الساسة لحل القضايا العقدية دون جدوى، وأبرز الشواهد على ذلك تحيز الإمبراطور (ثيودوسيس الثاني ٣٩٥-٤٥٠م) إلي تعاليم اوتيخوس التي أدانها اللاهوتيون المحافظون في المجمع القسطنطيني عام ٤٤٨م وحكموا على صاحبها بالهرطقة لانتحاله التفاسير الفلسفية الغنوسية لطبيعة المسيح، غير أن الإمبراطور لم يرضه ذلك فدعا لانعقاد مجمع مسكوني في إفسس عام ٤٤٩م وانتزع منه براءة أوتيخوس وأعاده إلي رئاسة ديره، ونكّل بالكهنة المعارضين لرغبته ويبرهن ذلك كله على عدم استقلالية السلطة الكهنوتية في هذه الحقبة.

أما السلطة السياسية الحقيقية فلم ينعم بها رجالات اللاهوت المسيحي إلا في عهد قسطنطين الأكبر الذي أعطى للأساقفة سلطة تسييس التابعين للكنيسة والحكم بينهم، وذلك في مقولته الشهيرة: "أنتم أساقفة على من هم داخل الكنيسة، وأنا أسقف بمشيئة الله على من هم في الخارج" وهي القاعدة التي استند إليها البابا للتأليف بين السلطة الإلهية والسلطة الزمنية خلال العصور الوسطى، فعلى الرغم من مشاركة قسطنطين الكهنة في فض منازعاتهم العقدية إلا انه فتح الباب أمام بعضهم لمشاركته في أمور الحكم والتشريع إيذانا بالخلط بين السلطتين، غير أن هذه العلاقة لم تكن مستقرة ويرجع ذلك إلى تحول أهواء الساسة وتباين مصالحهم، وأقرب الأمثلة على ذلك سياسة الإمبراطور يوليانس ٣٣١ - ٣٦٣م الذي جحد المسيحية، وأحيا عبادة الآلهة الرومانية، وشجع فلاسفة أنطاكية على نقض المسيحية، ونكل بمعارضيه من رجالات الكنيسة، وأسقط تمثال يسوع من على قاعدته في بانياس وأقام لنفسه تمثالا عوضا عنه، وحول العديد من الكنائس إلي معابد وثنية بتحريض من اليهود، وشرع في إعادة هيكل أورشليم غير أن زلزالا عنيفا قد حطم قواعده، وقضى تماما على أي نفوذ سياسي للكهنة والآباء.

ولا ريب في أن قضية السلطتين (الزمنية والإلهية) قد شغلت الفكر المسيحي بداية من القديس أوغسطينوس Augustinus إلى (مارسيل دي بادو نحو ١٢٧٥ - ١٣٤٣م) الذي اجتهد في إثبات أن الخلط بين السلطة اللاهوتية والسلطة السياسية يرجع إلى التأويلات الخاطئة لرجالات الكنيسة من جهة ورغبة الأباطرة الهيمنة على كل مؤسسات الدولة من جهة ثانية وأطماع الساسة في التحكم والسيطرة على كل مرافق الدولة بما في ذلك الكنيسة من جهة ثالثة، وقد تبادلوا الأدوار وموقع القيادة بحسب الظروف التي يفرضها الواقع كما وضّح أن الفصل التام بين السلطتين هو الطريق الأصوب لتحقيق العدالة والأمن والمساواة في الدولة، فأمور الحكم والتشريع من اختصاصات السياسة المدنية ولا دخل لرجال الدين فيها، كما أن الحلال والحرام وأصول الإيمان من الأمور العقدية التي لا ينبغي على الساسة الخوض فيها، وقد فتح بهذه الرؤية الباب أمام التيارات الإصلاحية السياسية في العصر الحديث.

ولا ريب في إن الصراع الذي شب بين اللاهوتيين في مدرسة الأسكندرية ومدرسة أنطاكية ومدرسة القسطنطينية ومدرسة روما قد كان له عظيم الأثر في ظهور الهرطقات وضعف البنية العقدية للمسيحية من جهة وتشجيع الساسة على التدخل في أمور الدين بل وتسييس العقيدة في القرون الخمسة الأولى من جهة أخرى.

٥- دخول بعض طلاب مدرسة الإسكندرية في المسيحية.

لقد أشرنا في الفصل الأول إلى اثر المدارس الفلسفية المختلفة على الفكر اللاهوتي المسيحي في القرون الخمسة الأولى وسوف نقف هنا على اثر المجادلات التي دارت بين اللاهوتيين المحافظين المسيحيين والمتفلسفة من

الوثنيين والغنوسيين اليهود.

تعد الكتابات المنسوبة الي ديونيسيوس الأريوباج - الذي رافق القديس بولس في رحلاته - الإرهاصات الأولى لمصادرة الفلسفة الأفلاطونية لصالح اللاهوت المسيحي الروحاني.

وقد ذهب القديس (يوستينوس نحو ١١٠ - ١٦٣م) إلى الدفاع عن العقائد المسيحية بمنحى عقلي ضد هراطقة القرن الثاني استنادا على فلسفة أفلاطون، وقد أسس مدرسة لاهوتية فلسفية في روما لهذا الغرض - كما أشرنا - وقد سايره في ذلك يوسابيوس القيصري ٣٤٠م في كتابه التحضير الإنجيلي الذي بين فيه ضرورة الاستعانة بالفلسفة للدفاع عن العقائد المسيحية وكذا غريغوريوس النازيانزى٣٩٠ م ويوحنا فم الذهب وغيرهما من الذين دعوا إلى دراسة آراء الفلاسفة والاستعانة بها في تفسير النصوص المقدسة. بينما ذهب أرينايوس إلى نقض نظريتي المثل والتذكر الأفلاطونية وأكد أن ما فيهما من تصورات لا يخلو من تشويش ومغالطات لأن الأرواح البشرية لو كانت عالمة وخيرة بفطرتها لما احتاجت إلى العلوم ولا الرسالات لتعيدها إلى فطرتها ولو كان للبدن الأثر الأكبر على محو ذاكرتها وتبديل خصالها بعد اتصاله بها لأثبت ذلك عدم جوهريتها، فالنسيان والشر يلحقا بالأعراض وليس بالجواهر. وقد اعترض (لاكتانتيوس الافريقي نحو 365م) في رسالة له عام٣٢٥م على قول أفلاطون وأرسطو والرواقيين بتأليه الكواكب وذلك لأنها في رأيه مجرد مخلوقات لا إرادة لها ولا حكمة، فنظامها يعود للإرادة الإلهية، ونقد كذلك مادية الأبيقوريين لانكارهم للعناية الإلهية. وقد مثل هذا الفريق الاتجاه الرافض للاهوت الفلسفي وكذا النظريات المترتبة عليه، وعلى النقيض من ذلك نجد فالنتينوس الشاعر الغنوصي وكربوكراتس الساحر السكندري وغيرهما من الغنوسيين السكندريين

وباسليوس الآريوسي ٣٢٩م الذين حاولوا تأويل قضية الكريستولوجى تأويلا فلسفيا يجمع بين الهرمسية الغنوسية والأفلاطونية المحدثة والأرسطية الأنطاكية في بعض الأحايين. وقد جرت العديد من المساجلات حول الفكر الغنوصي بين المسيحيين المحافظين والغنوسيين، وأشهرها تلك التي جرت بين أكليمندس السكندرى (١٥٠-٢١٥م) في كتابه "تحريض الأمم" للرجوع عن الوثنية إلى المسيحية والقديس إيرينايوس نحو ٢٠٢م، الذي جمع دفوعه في كتابه " ضد البدع". وأوريجانوس (١٨٥-٢٥٣م) في كتابه "السداسيه"، وقبريانس (٢٠٠-٢٥٨م) في كتابه "الملامح المختلفة للحياة المسيحية"، والمساجلة التي دارت بين القديس بوليكاربس وزعيم الغنوسية في آسيا ماركيون، ذلك فضلا عن كتابات (مرديصان الرهاوي ١٥٤-٢٢٢م) التي دافع فيها عن الغنوسية المسيحية، والقديس ثيوفيلوس الأنطاكي الذي دافع عن عقيدة التوحيد وشرح العلاقة بين الأقانيم الثلاثة، والقديس سيرابيون الأنطاكي الذي اضطلع بتصويب الانحرافات العقدية الغنوسية في نهاية القرن الثاني. والكاهن ملكيون الذي درس المنطق في إحدى مدارس أنطاكية الهللينية وشارك في مجمع أنطاكية الثاني لتفنيد ادعاءات بولس السميساطي بأدلة منطقية، والقديس أوغسطينيوس الذي حدد العلاقة بين الإيمان والعقل وذلك في مقولته الشهيرة "أومن كي اعقل". والأسقف أبوليناريوس الذي حاول تفسير العلاقة بين الأقانيم الثلاثة تفسيرا أفلوطينيا، وقام القديس أيبفانيوس أسقف قبرص بالرد عليه ودحض آراءه في رسالة مستفيضة، والراهب اوتيخوس الذي تأثر بالمدرستين الفلسفيتين أنطاكية والإسكندرية في رفضه ناسوتية المسيح مع اعترافه بالأقنوم الإلهي فقط، وقام القديس (دومنس ٤٤١-٤٤٩م أسقف أنطاكية) بالرد عليه في كتابه" الشحاذ" وأثبت لاهوتية وناسوتية المسيح معا، ويوحنا فيلوبونوس Ioannes philoponos الذي رأس

مدرسة الإسكندرية في القرن السادس الميلادي واعتنق المسيحية وحاول تأويل عقيدة التثليث تأويلاً فلسفيا عقليا، وذلك في كتابه "الوسيط" Arbitrator.

ويتضح من العرض السابق أن العلاقة بين رجالات الدين المسيحي الأوائل والفلاسفة لم تكن علاقة وفاق، ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب:

أولها: عقدي ويتمثل في نقض القديس بولس لنهوج الفلاسفة وتبديعه لكتاباتهم ورفضه الأخذ بمناهجهم في تعاليمه الكريستولوجية على الرغم من تأثره بالمنحى الرواقي ولا سيما بعد حواره مع سينكا خلال الرسائل المتبادلة بينهما التى أشرنا إليها من قبل.

وثانيها: يرجع إلى تناول المتفلسفين في مدرستي أثينا وروما للعقائد المسيحية بالنقض والتفنيد تارة، وإطفاء المسحة الفلسفية على قضية الكريستولوجي تارة أخرى، وتأويل الإصحاحات المقدسة تأويلا رمزيا يخالف قانون الإيمان تارة ثالثة. الأمر الذي ربط بين الهرطقة والتفلسف، وجعل الاتجاه المحافظ منذ بداية القرن الأول ينظر إلى الكتب الفلسفية نظرة ريبة وشك ويعتبر كل من يطالعها من أعداء المسيح، ويبدو ذلك بوضوح في كتابات (ترتليانوس ١٦٠ - ٢٣٠م) الذي هاجم الآداب اليونانية بوجه خاص، والكتابات الفلسفية بوجه عام، وربط بين تعاليم الفلاسفة والهرطقة ووصف سقراط وأفلاطون وأرسطو بأنهم بطاركة الشيطان، وقد سار على نهجه القديس جيروم الذي أنكر وجود أي وجه من وجوه الاتفاق بين الفلسفات الوثنية والكتابات المقدسة بل إن مطالعة الآداب اللاتينية ذنب يستحق التوبة وطلب الغفران، وأكد على أن كل من يساير الفلاسفة لن يكتب له الخلاص أبدا، ومن أقواله في ذلك: " إن الكاهن الذي يهجر الإنجيل والأنبياء، ويقرأ كوميديات الإغريق، ويتغنى بأشعار الرعاة، ويتشبث بفرجيل - شاعر اللاتين - يفعل ما يعد خطيئة لا يمكن غفرانها". وقد

توجت هذه الحملة العدائية تجاه الفلسفة بقرار مجمع قرطاجة عام ٣٩٨م الذي حرم تماما مطالعة كتب الفلاسفة الأمر الذي يبرر تحذير الآباء المحافظين في القرن الرابع معتنقي المسيحية من مطالعة الكتب الفلسفية بحجة إنها تشوش العقل وتضعف الإيمان، ومما جاء في هذه التحاذير لا تقرءوا كتب الهراطقة وأصحاب البدع والوثنيين والفلاسفة. فالكتاب المقدس يحوي كل المعارف الإلهية التى تعين الإنسان على قضاء حوائجه في الحياة وترشده أيضا إلى طريق الخلاص، ذلك فضلا عن إمتاع ذهنه وإشباع روحه بالمعارف المختلفة، فإذا كان منكم من يهوى قراءة التاريخ فعليه بسفر الملوك، ومن يرغب في البلاغة والشعر فعليه بسفر المزامير، ومن كان منكم يرغب في مطالعة القانون والأخلاق فعليه بسفر أعمال الرسل.

وعلى الرغم من ذيوع تلك النظرة العدائية للكتابات الفلسفية في الغرب، إلا أننا نجد محاولات توفيقية في الشرق أعني في آسيا حيث مدرسة أنطاكية ومدرسة الإسكندرية، فقد ذهب الآباء الكبادوكيون في قيصرية بآسيا الصغرى إلى أن مطالعة الكتب الفلسفية والآداب اليونانية واللاتينية لا يؤدي إلى الهرطقة بالضرورة، بل يقود العوام إلى متابعة ديانات الوثنيين وإهمال تعاليم المسيح. والأصوب في رأيهم إرشاد الكهنة والعوام على حد سواء إلى المواضع النافعة من كتب الفلاسفة والاستعانة بالمناهج العقلية في الدفاع عن العقيدة المسيحية وقد حاول أبولوناريوس الأديب (والد أبولوناريوس الفيلسوف) وضع ملحمة مسيحية على غرار إلياذة هوميروس جمع فيها أخبار القديسيين من العهدين القديم والجديد أما أبولوناريوس الابن فصاغ شروح الإنجيل والتعاليم العقدية المسيحية على غرار نسق محاورة أفلاطون.

وثالث هذه الأسباب يرجع إلى عجز الاتجاه المحافظ عن صياغة مفهوم واضح لعقيدة الكريستولوجي، فقد باءت كل محاولات المتفلسفين الذين

دخلوا المسيحية عن إثبات حقيقة المسيح بطبيعته اللاهوتية والناسوتية، وقد زاد الأمر تعقيدا استخدامهم للمصطلحات الفلسفية للتدليل على وجهتهم في فهم قانون الإيمان الأمر الذي حشرهم في زمرة الهراطقة ووضع كتاباتهم في دائرة الاتهام، فالأساقفة الذين اتهموا بالهرطقة لم يقصدوا الجنوح عن أصول العقيدة أو التجديف على قانون الإيمان، بل اجتهدوا مخلصين في محاولة صياغة عقيدة التثليث صياغة عقلية تمكنهم من الدفاع عنها ضد أصحاب البدع والوثنيين والمتفلسفين، وأبرز النماذج التى تؤكد ذلك تعاليم آريوس ونسطوريوس تلك التي تختلف تماما عن محاولات الغنوسيين اليهود الذين دخلوا المسيحية وتبوأوا المناصب الكهنوتية إما لإفساد العقيدة من الداخل وهي في طور النشأة أو مصادرة التعاليم المقدسة لصالح الفكر الغنوسي الهرمسي أو لتهويد المسيحية وجعلها امتدادا للعهد القديم.

ولا ريب في أن بعض الأساقفة المتفلسفين قد نجحوا في تأويل أسفار العهد القديم لتمسيح اليهودية، وذلك باستخراجهم لبعض الأدلة على أن المسيا الذي تحدثت عنه التوراة هو نفسه المسيح الحي الذي تجسد وتعمد وصلب وقام ورفع وهو أيضا الذي يعود في نهاية الزمان. وقد ذهب جونسو في حديثه عن الإرهاصات الأولى للفلسفة المسيحية إلى أن الحكمة الهللينية الفلسفية قد اعترضت ميثولوجيات الإنجيل والتعاليم التي وردت في إصحاحاته، الأمر الذي كان وراء انقسام الكهنة الجدد والفلاسفة الذين تمسحوا إلى فريقين، أولهما: نقض التراث الفلسفي جملا وتفصيلا، وحاول ثانيهما التوفيق بين الإيمان والعقل، وتباينت المحاولات تبعا لثقافة أصحابها ونهوجهم في فهم النص وتأويله.

* * *

من الإلحاد إلى اللاهوت الفلسفي

لا ريب في أن ميدان البحث عن مفهوم الهرطقة[*] وما صدقاته وأشكاله يعد من الضروب الوعرة في تاريخ الدراسات الفلسفية بوجه عام وفي الفكر المسيحي بوجه خاص، ويرجع ذلك إلى عده أسباب أهمها: - أن صفة هرطوقي أو مجدف أو ملحد أو كافر أو جانح كانت تطلق في الثقافات الغابرة على من يخالف السلطة الكهنوتية المعنية بوضع شروط الإيمان، الأمر الذي سلب من هذه الألفاظ دلالتها الثابتة الجامعة المانعة، ولطالما أطلقت لفظة هرطوقي أو ملحد على المصلحين والمجددين والمؤولين والمغضوب عليهم من قبل أصحاب السلطة سياسية كانت أو كهنوتية، وقد ساعد على

* الهرطقة :هي لفظة يونانية الأصل، تعنى عند النصارى البدعة في الدين، أو الإلحاد Atheiotes وهو لفظ فضفاض أطلق على منكري الإله وغير المؤمنين بأصول شريعة ما، والمنكرين لثوابت عقيدة ما، ويطلقه المتعصبون على مخالفيهم في الرأي والاعتقاد، ولم تردا لفظتي هرطقة وإلحاد في الكتاب المقدس وذكرت كلمة تجديف Blaspheme عوضا عنهما بمعنى : الكذب في حق الإله أو إهانته وجحد تعاليمه (فأي إهانة توجه إلي إنسان تستحق العقاب، فما اشد عقاب التجديف الموجه إلي الله نفسه! فالتجديف نقيض السجود والتسبيح الواجبين على الإنسان نحو الله، وهو أكبر مظهر للشر بين البشر)، فقد ورد ذكرها في العهدين القديم والجديد بهذه الدلالات، ففي سفر اللاويين والخروج والملوك تعنى: الإساءة إلى الرب ويستوجب معاقبة صاحبها بالقتل . ووردت في سفر الملوك ومكابيين ودانيال بمعنى: سخرية الوثنيين من الرب، وجاء في إنجيلي مرقس ويوحنا أن اليهود أطلقوا صفة المجدف على يسوع المسيح الذي ادعى الألوهية، ووصف بولس بالتجديف في رسالته عندما كان يضطهد المسيح، ووصفه اليهود بنفس الصفة في الأعمال عندما آمن بيسوع وجحد اليهودية، ووصف المؤمنون بالمسيحية في رؤيا يوحنا ورسائل بطرس بالتجديف أيضا لخروجهم عن دين الإمبراطورية الرومانية، وأطلقها منكرو ألوهية المسيح على الغنوسيين، وأطلقها أثناسيوس على الآريوسيين. وقد فقدت الكلمة دلالتها خلال المساجلات اللاهوتية التي بدأت مع بولس وتلاميذ المسيح ثم واضعوا اللاهوت الفلسفي وفلسفة اللاهوت، فكلهم أطلق على خصمه صفة المهرطق والمجدف وقد لعبت السياسة والأهواء الشخصية الدور الأكبر في العصر المدرسي المبكر والعصر الوسيط.

وسوف نستخدم هذا المصطلح بالمعنى الإجرائي أي مخالفة الفكر السائد أو مناهضة السلطة القائمة بغض النظر عن معايير الإيمان أو الكفر التي لم تحسم في الفكر المسيحي خلال فترة البحث.

ذلك عدم وجود ثوابت عقدية مسلم بصحتها - سندا ومتنا ودلالة - للاحتكام إليها عند الخلاف لفض المنازعات عند تباين الرؤى والاجتهادات والتأويلات.

ذلك فضلا عن غيبة الوثائق والنصوص التى وصم أصحابها بالهرطقة أو التجديف، ولم يبق منها إلا الشذرات التي وضعها المؤرخون واللاهوتيون الأوائل في كتاباتهم لتبرير حكمهم عليها بالجنوح والضلال، والتأكيد في الوقت نفسه على صحة معتقدهم وتهافت آراء خصومهم.

وتشير العديد من الدراسات التاريخية إلى أن كتابات الهراطقة المسيحيين في القرون الأولى قد حُرقت عقب التنكيل بأصحابها، الأمر الذي يصعب معه الوقوف على تعاليمهم في مصادرها الأصيلة لتحليلها، والكشف عن مصادرها وبنية تصوراتها، وأصول أفكارها. وبناء على ما تقدم يجب علينا التنبيه إلى أن كل ما سوف نورده في الصفحات التالية من أخبار الهراطقة المسيحيين يخلو من الدقة، ويفتقر إلى المنهجية العلمية في وضع المقدمات واستنباط النتائج؛ ويرجع ذلك إلى عدم موضوعية وحيدة المصادر التى نقلنا عنها فالخصم هو الراوي والحكم في آن واحد. وعلى الرغم من ذلك سوف يحاول كاتب هذه السطور مراعاة الروح الفلسفية في تناول الآراء والأنساق العقدية، ومقابلة بنيتها اللاهوتية بالبنايات الفلسفية المعاصرة لها.

وتعد أول صور الهرطقة في المسيحية هي ادعاء الألوهية من قبل بعض الأشخاص ومنهم : -

- كايوس الإمبراطور الروماني

الذي تولى الحكم من ٣٧ - ٤١ م وذلك في الإسكندرية عام ٣٨م، وقد ذكر فضائحه المؤرخ اليوناني يوسبيوس وورد كذلك في كتابات فيلون

السكندري الذي وصفه بالحمق والتجبر وشدة عدائه لليهود حتى بلغ به الأمر أنه نصّب نفسه إلهاً وشيد المعابد والتماثيل في الأماكن المقدسة لليهود في الإسكندرية وأورشليم وبدّل هيكل سليمان بهيكل له وأطلق عليه (هيكل كايوس الأصغر) .

والجدير بالإشارة أن تأليه الملوك الرومان لأنفسهم لم يكن غريباً على الثقافة المصرية أو الرومانية فقد ألّه الإسكندر نفسه وكذا خلفاؤه من بعده ووضع الكهنة لهم أنساباً تربطهم بآمون أو جوبيتر ولم يكن في مقدور اليهود الاعتراض على ذلك، ولم يستطع بطبيعة الحال أتباع المسيح الأوائل إبطال هذه البدع؛ وذلك لأنهم كانوا من العبيد والحرفيين الفقراء، فحق الاعتراض على تنصيب الآلهة كان من اختصاص مجلس النبلاء في كل مدينة من المدن الرومانية.

– ثوداس

ويروى يوسيفوس أن رجلا يدعى ثوداس المحتال ظهر نحو عام ٤٤ م بالقرب من نهر الأردن وأدعى النبوة، وانتهى به الأمر بقطع رأسه بأمر من فادوس الحاكم الروماني.

– سيمون الساحر السامري نحو ٣ ق.م إلى ٦٥ م

يجمع المؤرخون المسيحيون على أن سيمون هو رأس الهرطقات بوجه عام وانه جمع في بدعته بين التعاليم الغنوسية والعادات الوثنية المرذولة والحكايات الأسطورية والسحر والشعوذة وتسخير الجن ويروي عنه يوستينوس السامري أنه كان يهوديا ثم اعتنق المسيحية وجحدها عقب خلافه مع بطرس الذي رفض منحه حق العمادة والتبشير بقوة الروح

القدس مقابل بعض الدراهم. فزعم أنه مخلّص شأن المسيح، وأنه قادر مثله على صنع المعجزات، وأن في مقدوره تسخير الجن مثل نبي الله سليمان، وأقام أتباعه له تمثالاً شأن آلهة الرومان في جزيرة التيبر بالقرب من الفاتيكان وكتب على قاعدته " سيمون الإله المقدس" وظل السامريون يعبدونه ويقدمون له القرابين والنذور مع معشوقته هيلانة التي رفعوها أيضاً لدرجة الألوهية شأن مريم أم المسيح.

وتكمن خطورة البدعة السيمونية في أن أربابها جعلوها من الديانات السرية بعد دخولهم في المسيحية وتظاهرهم بالولاء بتعاليمها والإخلاص في حب المسيح.

وتروي الكتب التاريخية أن القديس بطرس قد نزح إلى روما عقب تفشي السيمونية وشاهد بعين رأسه كيف تمكن سيمون من تسخير الشياطين لحمله في الهواء فجثى على ركبتيه ودعا الرب لكف عمل الشياطين وإبطال سحر سيمون، فوقع الأخير وكُسرت ساقاه وانتهى به الأمر إلى انتحاره، ومن أهم تعاليم سيمون الكريستولوجية التشكيك في ألوهية المسيح ووصف يسوع بأنه مخلوق بشري زودته القوة الإلهية بقدرة فائقة على تسخير الجن، ومن ثم فهو لا يختلف عن الكهنة والسحرة. وقال ايرينايوس عن تعاليمه "انه ادعي بوجود اله ذكر أعلى انبثق عنه لوجوس على شكل أنثى مساوية له في القدرة وقد انبثق عنها الملائكة، وعصبة من الشياطين الذين قاموا بخلق العالم المادي وكادوا للملائكة الأبرار فحبسوا أرواحهم في جسد هيلانة ودفعوا هذا الجسد للانغماس في العهر وفعل الفحشاء فقام سيمون بمحاربة الشياطين وتطهير هيلانة وإطلاق أرواح الملائكة من محبسها فنصبوه مخلصا وإلهاً على السامريين جزاء له وعرفانا بالجميل" وقد وضع سيمون ثالوثا مغايرا لتعاليم الأباء الأوائل يتكون من الابن الذي يمثله يسوع والآب الذي

يمثله سيمون والروح القدس الذي يمثله الأنبياء في جميع أنحاء الأرض، وزعم أن هذه التجسدات ما هي الا تجليات للإله الواحد المجرد.

- ميناندر العراف Menandros

وقد خلف سيمون الساحر في هرطقته شخص يدعى ميناندر العراف وهو أيضاً من السامريين، وقد ظهر في أنطاكية وأدعى أنه المسيح وأنه كلمة الرب الأزلية التي تجلت من قبله في شخصيات عديدة، وزعم أنه قادر على وهب الخلود لمن يخلصون في عبادته، وذلك بتلاوة بعض التعاويذ السحرية التي تعد في شريعته معمودية للأبرار.

ومن أشهر أتباعه شخص يدعى ساتورنينوس وقد أسس مدرسة في أنطاكية، وباسيليدس الذي أسس مدرسة أخرى في الإسكندرية وكانت تعاليمهما امتداداً لعقيدة أستاذهما في السحر وتسخير الجن والعفاريت في فعل أفعال غريبة تشبه المعجزات؛ وذلك لإقناع العوام بقداسة روحهما الإلهية وصدق تعاليمهما التي يستلهمانها من الرب، ويفرق باسيليدس بين إله العهد القديم إله اليهود وإله العهد الجديد إله المسيحيين، فالأول متجبر يحكم العالم المادي الشاغل بالأشرار والشياطين، والثاني فهو إله وديع مسالم خيّر مجرد لا يتصل بالمادة، لذا صدر عنه ثماني مجردات مشخصة هي الحكمة والعدالة والسلام والمحبة والطهر والصدق والأمانة والحنة. وأن ملائكة الحكمة صنعوا السماء الأولى، وملائكة العدالة صنعوا السماء الثانية ..وهكذا حتى بلغ عدد السماوات ثلاثمائة وخمس وستون سماء بعدد أيام السنة، وقد ساير كل الغنوسيين في احتقار المادة وإنكار ناسوتية المسيح. وقد ذاعت تعاليمه في سوريا بين عامي ٧٠ و١٠٠م.

- **أبيون اليهودي** Apion

يعد من أشهر هراطقة القرن الأول وظهر بأورشليم عام ٧٠م ونسب اتباعه إليه، وكان يُعلِّم بأن المسيح رجل صالح أو نبي، وأنه ابن الله شأن آدم وعباد الله المخلصين، وأن يسوع ولد ولادة طبيعية من يوسف النجار وزوجه مريم، وأن أسفار العهد القديم ليست لها صلة بتعاليم المسيحية. وقد اعتمد في تعاليمه على إنجيل العبرانيين وهو من الأسفار المنحولة - كما ذكرنا - وقد أنكر اتباعه ألوهية المسيح الأزلية، وذهبوا إلى أن الرب قد تجلى في صورة ابنه المسيح، وحل في صورته البشرية في زمان ظهوره على الأرض، وهو بطبيعة الحال لا يمكن مساواته بالآب الإله المطلق الكائن قبل الأكوان.

وتجمع الكتابات التاريخية المسيحية على أن الأبيونيين ليسوا فرقة لاهوتية بل جماعة من الفقراء النساك الذين ينسب إليهم إنجيل العبرانيين وتمسكوا فيه بالتعاليم اليهودية وعلى رأسها السبت والختان وحفظ وصايا موسى وقد ترتب على ذلك رفضهم للعهد الجديد وكل الأقوال المنسوبة إلى بولس وبطرس التي تشير إلى ألوهية المسيح وعقيدة الصلب والفداء، فالمسيح عندهم كما ذكرنا نبي مرسل من الله الواحد. غير أن بعضهم اعترف بميلاد يسوع من البتول مريم بفعل الروح القدس مع إنكارهم لألوهية المسيح.

ولم تمت تعاليم أبيون بل تجلت في صور هرطقات عديدة منها: تعاليم ثيودوتيوس الدباغ البيزنطي الذي اعتنق الإبيونية في نهاية القرن الثاني وذهب إلى أن المسيح لم يكن ابنا لله على الحقيقة، بل إن ما جاء في الأسفار المقدسة: "أنت ابني أنا اليوم ولدتك" مزمور (٧:٢) يجب أن يؤول مجازيا وذلك تبعا للثقافة اليونانية التى كانت تعتبر الأطهار والحكماء والفلاسفة والملوك من نسل إلهي وهذا يعني أن يسوع قد ولد ولادة بشرية وهو مخلوق لله شأن كل البشر ولكن ما يميزه هو الميلاد العذراوي وحلول الروح القدس في جسده

لحظة العماد وتبني الله له، ويستند في ذلك على ما أورده لوقا (٣: ٢٢) في إنجيله: "نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية، مثل حمامة وكان صوت من السماء قائلا أنت ابني الحبيب بك سررت"، وأن مجد المسيح قد تحقق عندما أقامه إله ثانية من بين الأموات مكافأة له وتعبيرا عن رضى الآب عن ابنه الذي تبناه. وعلى مقربة من هذا الاتجاه نجد جماعة الدوسيتيين اليهود الذين نظروا للمسيح على أنه أحد أنبياء الله وأن المسيا حلّت فيه غير أن الناموس لم يكتمل على يديه وذلك لأنه صلب لذا ينتظرون مجيء مسيا أو مخلص آخر في نهاية الزمان لمحو عثرة الصلب ويقود اليهود نحو المجد.

وفي نهاية القرن الثاني الميلادي ظهر الكاهن الروماني جايوس الذي أسس جماعة " اللالوجوسيين" أي منكري عقيدة اللوجوس ALOGES ورفض إصحاحات إنجيل يوحنا وكذا ما جاء في سفر الأعمال عن ألوهية المسيح، وأكد على أن يسوع ابن الله بالتبني وأنه نال هذا المجد لحظة العماد، وذلك لأن جوهر الله هو وحده الأزلي ودونه مخلوق في زمن، ومن ثم لا يمكن مساواة طبيعة الابن بطبيعة الآب ولا وصف يسوع بالألوهية. ثم تبلورت هذه الأفكار في مدرستي أنطاكية والإسكندرية واكتملت في تعاليم آريوس الليبي في القرن الرابع والنسطورية في القرن الخامس وبعض أساقفة أسبانيا في القرن الثامن، إذ رفض جميعهم مساواة أقنوم الابن الناسوتي بأقنوم الآب اللاهوتي السرمدي، وانتهى النقاد المحدثون(*) في مطلع القرن

* ورد اسم يسوع في العهد الجديد ٨٨١ مرة وورد اسم المسيح ٤٨٤ مرة وورد بكنية ابن الإنسان ٧٩ مرة.
في متى ٢٩ مرة وفي روقا ٢٥ مرة وفي مرقس ١٢ مرة وفي يوحنا ١١ مرة وفي كلا من أعمال الرسل والعبرانيين مرة واحدة. وورد بكنية ابن الله ٤٦ مرة .

في يوحنا ١٠ مرات وفي متى ٩ مرات وفي لوقا ٧ مرات وفي رسالة يوحنا الأولى ٦ مرات وفي مرقس أربع مرات وفي العبرانيين ثلاث مرات وفي أعمال الرسل مرتان وفي كل من رومية وكورنيثوس الثانية وغلاطية وأفسس ورؤيا يوحنا مرة واحدة.

أما المواضع التي ذكر فيها المسيح الله بصفة الآب فهي ١١٤ مرة .

=

الثاني عشر إلى القول: بأن "المسيح في ناسوته لم يكن ابنا لله بالطبع، بل بالنعمة أي أنه مخلوق مثل سائر الملائكة، غير أنه أعظم منهم درجةً".

- الأحبار الغنوسيون

لقد تسلل إلي المسيحية بعض طلاب مدرسة الإسكندرية من اليهود الغنوسيين - كما أشرنا من قبل - وراحوا يلفقون بين الغنوسية الفارسية والهيلينية والهرمسية المصرية والتعاليم اليهودية، والإيمان المسيحي بألوهية يسوع، فذهبوا إلي الاعتراف بوجود إله واحد مجرد لا يدرك بالحس لأنه عقل محض ومنزه عن المادة صدرت عنه كائنات روحية " الأيونات، والأراكنة" من ذكر وأنثى غير أنها تناست مصدرها الإلهي وابتعدت عنه عن غير قصد منها، وحدث أن واحداً من الأراكنة أراد أن يأخذ مكان الإله الأعظم، فطرد من العالم المعقول، وأراد أن ينشأ له مملكة لِيُعْبَدَ فيها، فخلق العالم المحسوس، وفاضت من روحه الشريرة الشياطين، وقام بحبس النفوس البشرية السابحة في عالم المعقول في أجساد مادية، فسقطت على الأرض في العالم المادي، وجعلهم

=

- في يوحنا ٦٨ مرة وفي رسالة يوحنا الأولى ١٢ مرة وفي كل من متى ولوقا ٤ مرات وفي كل من أعمال الرسل وكولوس ويوحنا الثانية ثلاث مرات وفي كل من مرقس ورومية وكورنثوس الأولى ويعقوب مرتان وفي كل من تسالونيك الأولى والثانية وتيطس وبطرس الأولى والثانية ويهوذا مرة واحدة.

و ذكر ايضا بصفة أبي ٦٣ مرة .

- في يوحنا ٣٠ مرة وفي متى ١٦ مرة وفي رؤيا يوحنا ثلاث مرات وفي كل من أعمال الرسل وإفسس والعبرانيين ويعقوب مرة واحدة. وبوصفه أبيكم تسع مرات.

- في متى خمس مرات وفي يوحنا أربع مرات .

وبوصفه أباكم ٨ مرات

- في متى خمس مرات وفي لوقا مرتان وفي يوحنا مرة واحدة. وبكلمة أبوكم ٧ مرات؛ في متى أربع مرات وفي مرقس مرتان وفي يوحنا مرة واحدة. الأمر الذي يكشف عن غلبة ورود الطبيعة الناسوتية عند الحديث عن شخص ابن مريم إذ بلغ مجموع المواضع التي ورد فيها اسم يسوع والمسيح وابن الإنسان ١٤٤٤ مرة في حين ورد وصفه بابن الله ٤٦ مرة . وقد استند اللاهوتيون المعاصرون على هذه الإحصائيات في تحليلاتهم للقضية الكروستولوجية من خلال نقد بنية السياق الذي وردت فيه هذه الكلمات.

بشراً، غير أن أرواحهم السجينة اشتاقت إلي الإله الأعظم فأرادت الخلاص من سجنها الناسوتي، وقد انقسموا خلال رحلة الخلاص إلي ثلاث طوائف: أولها طائفة الأتقياء وهم أصحاب الأنفس التي لم تدنسها شهوات الجسد وهم صفوة البشر، والجيل الذهبي الذي تحدث عنه أفلاطون، والثانية طائفة الماديين الذين عجزت نفوسهم العاقلة عن مقاومة شهوات الجسد ووسوسة الشياطين، أما الطائفة الثالثة فكانت شاغلة بالتوفيق بين متطلبات الجسد ومتطلبات الروح وطاب لها البقاء في العالم المحسوس. وقد قسم بعض الغنوسيين المسيحيين البشر إلي ثلاث طبقات أخرى أعلاها طبقة الغنوسيين، الذين دخلوا المسيحية وهم القديسون الذين طهروا أنفسهم بالعلم فتحقق لهم الخلاص، ويمثل الطبقة الثانية: عوام المسيحيين وطريقهم إلي الخلاص هو الإيمان وحده، أما الطبقة الثالثة فهي هالكة لأنها تضم المتشككين واليهود والهراطقة. ويروى كذلك عن معتقد الغنوسيين المسيحيين في القرن الأول الميلادي قولهم "أن الإله المجرد قد فاض عنه شرارات نورانية تحمل طابعه الخير، غير أن هذه الشرارات انحرفت وسقطت إلى الأرض فأسف على سقوطها الإله فأرسل كلمته في صورة بشرية لخلاص الشرارات الروحية من سجن البدن البشري ولما أتم مهمته في إرشادهم إلى طريق النجاة وتذكيرهم بحقيقتهم الروحية صعد إلى جوار الإله المجرد" وأطلقوا على الإله المجرد المكنى عندهم بالآب وعلى الجوهر الذي تجسد لقب الابن.

- سرنت الغنوسي السكندري

لقد ردت بعض الكتابات التاريخية الإرهاصات الأولى للغنوسية المسيحية في أخريات القرن الأول لشخص يدعى سرنت جمع في ثقافته بين الفلسفة الهيلينية والغنوسية الفارسية والأفلاطونية المحدثة والهرمسية المصرية

واليهودية ويبدو ذلك في تعاليمه الكريستولوجية، إذ كان يعتقد في أن الله المجرد قد انبثق عنه بعض الكائنات الروحية وهم الملائكة، غير أن واحداً من الملائكة قد اجترأ على الإله وانصرف عنه وخلق العالم المادي والبشر ونصب نفسه إلهاً لليهود "ديمارج" (DEMIURGE)، وقد رأف الله بأرواح المخلوقات البشرية التي ضللها إله اليهود بناموس غير كامل؛ فأرسل أحد الملائكة الأبرار وتجسد في صورة يسوع لحظة العماد، فأخبره بحقيقة الإله المجرد أو الآب وبرغبته في تخليص البشر. وتؤكد العديد من الدراسات أن إنجيل يوحنا قد تناول هذه الهرطقة بالنقد وذلك لإثبات ألوهية وناسوتية المسيح معاً، ويقول القس يوحنا جرجس الخضري" في ذلك: إن الذي دفع القديس يوحنا إلى أن يكتب إنجيله ورسائله هو ظهور بعض الهرطقات التي بدأت تشق طريقها إلى الكنيسة المسيحية المبتدئة فكما بينا أن الكنيسة كانت مهددة من الناحية العقائدية بخطرين داهمين: الخطر اليهودي والخطر الوثني.....فقد كتب الإنجيل ورسائله لكي يشرح بطريقة واضحة وصريحة أن يسوع الإنسان الناصري هو ابن الله، هو اللوجوس الأبدي "الكلمة صار جسداً".

وقد صار على تعاليم سرنت معظم الغنوسيين الذين ظهروا في القرنين الثاني والثالث ومنهم: بازيليدوس السوري نحو ١٣٠م الذي أنكر ناسوتية المسيح واعتبره من الكائنات الإلهية التي هبطت إلى الأرض في هيئة بشرية غير متجسدة.

- كيرنثوس اليهودي المصري Cerinthos (نحو٣ - ١٠٧م)

لا تختلف تعاليم كيرنثوس عن التصورات اللاهوتية الغنوسية اليهودية فقد جمع في تعاليمه بين الهرمسية والأفلاطونية والفيلونية وتردد على جل المدارس الفلسفية واللاهوتية في الإسكندرية وأورشليم وقيصرية وإنطاكية

وإفسس وهناك عارض دعوة يوحنا اللاهوتي كاتب الإنجيل الرابع وشكك في أقواله. ذهب إلى أن هناك إلهين يحكمان الوجود أولهما: الإله المطلق، وثانيهما: إله اليهود "يهوه" الذي خلق العالم دون رغبة الإله الأول الذي أرسل بدوره روح المسيح لتحل في جسد يسوع بن يوسف ومريم، وأراد المسيح - الحال والمتوحد بجسد يسوع بعد تعميده - الانتقام من يهوه فسلط عليه الأخير اتباعه اليهود فصلبوه ولكنه رُفع إلى السماء بجوار الإله الأعظم، وزعم كيرنثوس أن أرواح البررة تُرد إلى أجسادهم، وتصعد إلى السماء في صحبة المسيح، وقد تصدى يوحنا في إنجليه لهذه الهرطقة التي انتشرت في آسيا الصغرى، كما دعا كيرنثوس إلي ضرورة العودة إلي الأسفار التوراتية وحفظ السبت والختان، وزعم أن يسوع قد ولد من يوسف النجار ومريم، وأن قبسا من الروح القدس المنبثق من الإله الذي وضع الناموس لليهود قد حل في جسد يسوع أثناء تعميده في الأردن، ورافقه حتى الصلب. وقد أنكر قيامة المسيح من قبره والعشاء الرباني، وعلم أنه سوف يعود مع الأتقياء يوم القيامة. وقد بشر كيرنثوس برجعة للمسيح في نهاية الزمان ليقيم مملكة أرضية حيث يتمتع المختارون بالملذات والولائم والزيجات والذبائح. ستكون عاصمتها أورشليم، تمتد إلى ١٠٠٠ سنة بعد أن يتجدد كل شيء.

- فالنتينوس السكندري) Valentius نحو ١٠٠ - ١٧٠م)

يجمع المؤرخون على أن فالنتينوس المصري أول من أسس مدرسة للفكر الغنوسي المسيحي ومن أشهر تلاميذه ثيؤدوتس في الشرق وبتلماوس وهيراقليون وفلورينس ومرقس في الغرب الذين نشروا الغنوسية في أوروبا في القرن الثاني الميلادي. ويروى عنه أنه قام بتأسيس مدرسة غنوسية أخرى في روما خلال فترة إقامته بها ١٣٦ - ١٦٥م وأن ثيؤداس رفيق القديس

بولس قد تتلمذ على يديه. وقد تبلورت تعاليمه في عدة أناجيل منحولة أهمها انجيل الحق وانجيل فليبس ورسالة في تفسير النفس وتعاليم سيلفانوس ويتلخص مضمونها في (أن الله كائن مطلق مجرد أزلي لا يمكن البلوغ إليه أو التعرف عليه تمامًا، وهو الأصل الأول الذي لم يصدر عن شيء، ثم بعد عصور لا حصر لها فاضت عنه زوجته وتدعى الرحم أو الصمت وقد أنجبا المسيح أو اللوغوس، الذي انبثقت منه الأيونات (شبه أفكار أو أنصاف ملائكة)، وخلالهم وُجدت كل الأشياء والتحمت معًا. وقد فاض كذلك عن الإله المجرد وزوجته العقل أو nous - والحق aletheia. منهما صدرت الكلمة والحياة، والإنسان والكنيسة، وانتجا ثلاثين أيونًا، اثنين اثنين، ذكرًا وأنثى، يمثلون المفاهيم اليهودية أو المسيحية والفضائل التي تكمل العالم السماوي الروحي أو Pleroma . ثم الحكمة Sophia، التي اشتاقت إلى معرفة الأب غير المدرك والاتحاد به غير أنها سقطت أثناء الرحلة في ظلمة اليأس وانجبت طفلاً أبله مشوّه laldabaoth (ربما Child of Chaos) ومنه انبثقت الأرض بكل ما فيها من موجودات. وقد نصب Demiurge إله العهد القديم ملكا على هذا العالم المادي.

وقد انبثق عن الأخير الإنسان الذي تتنازعه قوتان هما قوة الخير والشر (الحكمة والحمق) . وقد رأف الإله المجرد بحال الإنسان فأرسل يسوع ليخلص الحكمة الكامنة في النفس البشرية من سجن ورفقة الحمق. غير أن الجنس البشري لم يستجب لدعوة يسوع الأمر الذي دفعه إلى التجسد في صورة المسيح المخلص وقد انقسم البشر إلى ثلاثة مراتب أولها: الروحيين الذين آمنوا بيسوع المسيح الإله الذي ظهر في صورة بشرية أثناء ولادته وعمادته وثانيها النساك البررة: وهم الذين آمنوا بالمخلص عن طريق الوعظ وهم اقل مرتبة من الروحيين الذين اهتدوا إلى المسيح عن طريق العلم.

ويشغل النساك مرتبة وسطى في مملكة الخالق، أما بقية البشرية ويدعون جسديين hylics ينهمكون في الماديات فيُسلّمون للهلاك الأبدي.

وروى أيضا عن تعاليم فالنتينوس أنه ذهب بأثر من (أنكساجوراس ٥٠٠ – ٤٢٧ ق.م) و (ديمقريطس نحو ٤٦٠ – ٣٦٠ق.م) والغنوسية، ومدرسة الإسكندرية – إلى أن جوهر الإله الواحد يحوي ٣٠ "أيونا" – ذرة روحية – نصفها ذكورا والنصف الآخر إناثا، وقد تشكلت أربعة من هذه الأيونات في صورة أربع شخصيات أولها: "أروس" وهو العقل المسئول عن وضع الشريعة وتقنين الحدود، وثانيها "المسيح" وهو العقل المسئول عن تحقيق العدالة والانسجام في الكون والخلاص للبشر، وثالثها" الروح القدس" وهو صوت الحقيقة الأزلية الملهمة لكل العلماء والفلاسفة والشعراء، ورابعها "يسوع" الذي راود الحكمة التي انبثقت عن الروح القدس وأغراها بخلق العالم خفية ونصب نفسه إلها لهذا العالم. فعلم أروس بفعلته وأدرك الفساد الذي لحق بذلك العالم المادي فدفع بالمسيح لإنقاذه وتخليصه من خطيئة الوجود أو الميلاد فاتحد بجسد يسوع في صورة بشرية برحم مريم لهداية اليهود إلى عبادة الإله الأعظم، وتبليغهم بشريعته.

– كاربوكراتس Carpocrates (نحو ١٠٨ – ١٨٠م)

لقد تغلغلت الغنوسية في تعاليم الهراطقة ومنهم، رجل يدعى كاربوكراتس وهو من تلاميذ مدرسة الأسكندرية الأفلاطونية الفيلونية وقد ذهب في تعاليمه إلى أن العالم مخلوق من مادة خبيثة، وأن الأنفس خلقت قبل الأجساد، وانطلاقا من عقيدة تناسخ الأرواح ومبدأ الكارما الهندوسي زعم أن الأرواح حبست في الأجساد جزاء عادلا لما ارتكبته من شرور في الماضي أثناء تلبسها في أجساد وحيوانات سابقة، وآمن كذلك بالطقوس السحرية

واستحضار الجن والشياطين للاستعانة بهم في تحقيق الغايات الأرضية، وأنكر عقيدة البعث المصرية، واعتقد أن يسوع قد ولد ولادة بشرية خالصة من يوسف النجار ومريم، غير أنه تميز بالشجاعة وقوة تسخيره للجان. وأكد على أن ممارسة كل الشهوات الجسدية واجبة لأن الخلاص الكلي من عجلة الميلاد والتناسخ الأزلي لن يتحقق.

بيد أن أتباعه تأثروا ببعض تعاليم الفيلسوف الصيني لاوتسي وزعموا أن إهلاك البدن في الملذات الشيطانية هو طاعة للقانون المادي الطبيعي الذي يحكمه، وحينما لا يقدر الجسد على ممارسة الفاحشة وشرب الخمر لن يجد طريقا أمامه إلا طاعة الجانب الروحي فيه؛ أي الإصغاء لصوت الفضيلة وطريق الخلاص. وتبدو هرطقة هذا الاتجاه في التشكيك في أزلية المسيح، والتأكيد على أنه لم يكن موجوداً قبل أن تلده أمه ولم يتبوأ البركة إلا بعد عمادته، ولم يصبح ربانياً إلا بعد تبشيره بكلمة الآب. وروى عن تلاميذه انهم جمعوا بين التقاليد الفيثاغورية والرياضات التأملية البوذية ونظرية التناسخ الهندوسية وادعوا أن روح الإله المجرد قد حلت في أجسادهم وأن النور الإلهي قد طهر أنفسهم وخلصهم من أي أثر للدنس الجسدي الشهواني، الأمر الذي ارتقى بهم إلى مرتبة أنصاف الآلهة وقد رسموا لأنفسهم العديد من الصور التي تجمعهم مع فيثاغورس وأفلاطون والمسيح وحكماء الصين والهند في مجلس واحد يشبه العشاء الرباني وقاموا بتعليق هذه الصور على جدران معابدهم.

- سطرنيوس السوري Saturnius (نحو ١٠٩ - ١٨٥م)

لم تختلف تعاليم سطرنيوس عن سابقيه من الغنوسيين فقد انتحى عين المنحى الميثولوجي الأسطوري المفعم بالهرمسية والغنوسية، فادعى وجود إله

واحد مجرد غير منظور، قام بخلق العالم الروحي الشاغل بالملائكة والجن والشياطين، وزعم أن سبعة من الجن الأشرار قد خلقوا العالم المادي من مادة خبيثة في غفلة من الإله الأعظم، فلما علم بخلق هذا العالم استحسنه، وزود سكانه من البشر بالعقل حتى لا تهلكهم الشهوات وتقضي عليهم الشرور الكامنة في أجسادهم، غير أن هذا العقل قد انقسم إلى قوتين عند حلوله في الأجساد البشرية، فاستحسن بعضهم قوة الخير، ومال البعض الآخر إلي قوة الشر، الأمر الذي دفع الإله الأعظم بتقسيم البشر إلي سبعة أقسام وتنصيب سبعة من ملائكته للإشراف عليهم فكان من نصيب أحدهم اليهود الذين تميزوا دون غيرهم بقوة شيطانية هائلة وقدرة فائقة على الغواية والعصيان، تلك التي مكنتهم من تحريض الملائكة السبعة على عصيان الإله الأعظم والانضمام إلى مملكة الشياطين، فغضب عليهم الإله وأرسل المسيح إلي العالم في هيئة بشرية غير متجسدة، لنزع سلطانهم وإصلاح ما فسد.

وقد تأثر سطرنيوس بالتعاليم الأورفية والفيثاغورية والبوذية فأمر اتباعه بالامتناع عن أكل اللحم وشرب الخمر والاتصال بالنساء ليتحقق لهم الخلاص والفوز بالسعادة الأبدية.

- تاتيانوس السوري الغنوسي Tatianus **(نحو ١١٠ - ١٧٠م)**

هو مؤسس جماعة "الممتنعين" الذين ذهبوا إلى أن المادة هي منبع كل شر، ودعا مع الجينيين لإماتة الجسد باعتباره مصدر الشهوات المادية، ومن ثم حرم كل أنواع اللذات بما في ذلك الطعام والشراب والاكتفاء بأكل الحشائش اليابسة، وحرم شرب الخمر في العشاء الرباني، وجعل الماء عوضاً عنه. ووضح أن الآب الإله الواحد لم يخلق العالم، وأن المسيح لم يكن له جسد حقيقي، بل هو صورة غير متشخصة شأن أبيه المجرد والمنزه عن المادية.

وزعم أن الخلاص من خطيئة آدم لم يحدث بعد، وأن السبيل إليه هو العذرية والامتناع تماماً عن مضاجعة النساء، وقد احتج في إثبات دعوته بأسفار منافية تماماً لتلك النصوص المعترف بها من قبل الآباء المحافظين وذلك في مؤلفه: "دياتيسرون". وعلى الرغم من إحاطته بالفلسفة الهيلينية والهيلينستية والأديان الوضعية، إلا أنه يعد من أوائل المفكرين المسيحيين الذين حملوا على الفلسفة وكفروا من يطالع كتبها، وذلك في كتابه "محاضرة لليونان"، بيد أن تعاليمه الكريستولوجية لم تخل من الأثر الأفلاطوني والغنوسي ويبدو ذلك في حديثه عن اللوجوس الذي كان كامنا في ذات الله ثم خرج منه قبل كل الأزمنة ثم اتصل بعد ذلك بالمادة وتشخص في صورة يسوع ويعني ذلك عدم مساواته بين طبيعة الإله ووجوده ووجود اللوجوس الذي تشخص في صورة المسيح الذي جاء في زمان حادث.

وهو يختلف فيما ذهب إليه عن معاصري أثيناغوراس السكندري - الذي يعد أول عميد للمدرسة اللاهوتية السكندرية ومن أوائل الفلاسفة الذين اعتنقوا المسيحية واضطلعوا بالدفاع عن عقائدهم وذلك منذ عام ١٧٦م - الذي اتخذ من الفلسفة سبيلا لنقض الغنوسية والدفاع عن المسيحية ويتضح ذلك في رسالته: "التماس من أجل المسيحيين" التى قدمها للإمبراطور الفيلسوف مرقس أوريليوس، وبين فيها أن اللوجوس لا يعنى شيئا غير علم الله وحكمته الأزلية التى تجلّت في صورة المسيح.

- ماركيون ابن أسقف سينوبة Marcion (نحو ١٣٠ - ١٦٠م)

يعد من أوائل الغنوسيين البيزنطيين الذين نشروا الغنوسية في آسيا الصغرى، وأضحى له مذهبا وكتابا مقدسا مغايراً لما كانت تعلم به الكنيسة آنذاك، فقد فصل اتباعه بين أسفار العهد القديم وإصحاحات العهد الجديد، وعلموا بأن

الإيمان المسيحي يعتمد على العهد الجديد وحده بالإضافة إلي بعض إصحاحات أضافها ماركيون على إنجيل لوقا وبعض التعديلات على رسائل بولس؛ ذلك فضلا عن كتابه "المتناقضات" الذي وضح فيه الفارق بين نصوص العهدين، ونقض التصور اليهودي للألوهية. وعلى الرغم من تراجعه عن آرائه إلا أن أتباعه ظلوا يؤمنون بتعاليمه حتى نهاية القرن الرابع الميلادي في أنطاكية ومصر وفارس وفلسطين وسورية والجزيرة العربية وغيرها من البلدان. وقد ذهب إلى وجود إلهين أولهما: الإله المحب المجرد الأزلي وثانيهما: إله أصغر من الأول وأقل منه مرتبةً ويتسم بالعدل غير أنه غضوب وسريع الانفعال وسفاك لدماء العصاة، وهو الذي قام بخلق العالم والبشر، واختار الجنس اليهودي من سائر البشر ليعلمه الناموس، وترك باقي الشعوب فريسة للجهل والوثنية، وهو يجهل بطبيعة الحال الإله السامي المحب، وقد أراد الإله المحب أن يظهر وتعرفه مخلوقاته فأرسل المسيح ليقوم بهذه المهمة فيبشر ويعلم بناموس الأب المحب، وينكر ماركيون العلاقة بين المسيا اليهودية من جهة ويسوع الناصري الذي ولد من مريم من جهة ثانية والمسيح الذي ظهر فجأة ثم صلب لفداء العالم من جهة ثالثة، وينزع شراح ماركيون إلى القول بأن الإله المحب هو الذي تشكل في هيئة المسيح وقت العماد مع التأكيد على خلو ذلك المسيح من أي أثر مادي ناسوتي، وهو أيضاً الذي صعد إلى السماء بعد تبليغ الناموس للوثنيين وسوف يعود ثانية قبيل نهاية الزمان ليقضي على إله اليهود، ويقيم العدل على الأرض، ويشير القس حنا جرجس الخضري إلى أن ماركيون هو أول الأساقفة الرومان الذين شككوا في صحة الأسفار المقدسة، فوصف العهد القديم بأنه من وضع أحبار اليهود، وأن إنجيلي متى ومرقس وباقي الرسائل باستثناء بعض إصحاحات إنجيل لوقا وعشر رسائل من رسائل القديس بولس قد حرفت. ويضيف القس حنا جرجس أن كتابات ماركيون التي شكك فيها في الأسفار المقدسة هي التي دفعت الآباء المسيحين في

نهاية القرن الثاني إلى العناية بجمع إصحاحات الأناجيل المتفرقة والرسائل المختلفة وإعادة تنظيمها وترتيبها وكتابتها بلغة واحدة.

- باسيليدس السكندري Basilides **(نحو ١٣٥ - ١٨٥م)**

ويمثل باسيليدس التيار الفيثاغوري المسيحي في النصف الأول من القرن الثاني ويرد إليه تأسيس عقيدة الأسرار في الفكر المسيحي التي تجمع بين الكهانة والعرافة والسحر وتلاوة النصوص المقدسة والتنسك والتأمل وقد نسب إليه القول بوجود إله متعالم انبثقت منه سبعة أشخاص منهم الحكمة والقوة اللتان ولدت منهما رتبة الملائكة التي عملت السماء الأولى، وولدت ملائكة آخرين شيدوا السماء، ثم ولدت ملائكة آخرين وهكذا حتى صار عدد السماوات - ورتب الملائكة - معادلاً لعدد أيام السنة. كما زعم أيضاً أن سكان السماء الأخيرة هم الذين خلقوا هذا العالم وكونوا إناساً استحسنهم الله ومنحهم عقولاً، وأن أحد هذه الطغمة " الفرقة" اتخذ اليهود شعباً له ووضع لهم شريعة التوراة.

- كردون Cerdon **(نحو ١٣٨ - ٢٠٠م)**

انطلاقا من عين المنحى الغنوسي اليهودي والفكر الهرمسي والأفلوطيني يمضي كردون فيدعي بوجود ثلاثة آلهة، الأول روحي طاهر مجرد وهو أبو المسيح، والثاني مادي رديء وهو إله الشر، أما الثالث فقد جمع بين خصالهما فحوى في جوهره قوة الخير والشر معا، وهو الذي خلق العالم المادي، ونصب نفسه إلها عليه، فعبده اليهود دون الإله الخير الذي كان يأسف على حالهم، أما اله الشر فقد حقد على خالق العالم وحسده على السلطان الذي آل إليه والقرابين التي كانت تدفع له والصلوات التي تقام من

أجله في المعابد اليهودية، فأطلق أبناءه من الشياطين لغواية اليهود وترغيبهم في عبادة الشهوات والمتع الحسية التي أحلها لهم اله الشر الذي هو أجدر بالعبادة من غيره. وقد علم إله الخير بذلك المخطط وأدرك عواقبه فضحى بابنه الوحيد يسوع فأرسله قي صورة بشرية متجسدة للقضاء على المملكتين (مملكة اليهود، ومملكة الوثنيين) وتخليص البشر من شرورهما. وقد ترتب على هذا التصور بعض التعاليم الأخلاقية والشرعية، منها الامتناع عن الملذات الدنيوية، وانتحال الزهد والتقشف في الحياة، والكفر بتعاليم اليهود وأسفارهم المقدسة باعتبارها من بدع إله اليهود المغضوب عليه، وإنكار ألوهية المسيح، والنظر إليه باعتباره ابنا للآب غير مساوي له في الجوهر، وفتح باب التوبة أمام العصاه وغفران الخطايا على يد القديسين من أتباعه.

- أبلس Abless **(نحو ١٣٠ - ٢٠٣م)**

ومن أشهر أتباع كردون أبلس الذي نادى بوجود إله واحد صالح، خرج منه إله الشر، الذي خلق هذا العالم، وأخضع الناس للشرور، غير أنه خالفه في القضية الكريستولوجية فزعم أن المسيح هبط إلي الأرض متجسدا، وأنه لم يولد من مريم ويوسف النجار، وعندما صلب وقبر وقام تحلل جسده إلى العناصر الأربعة (الماء والتراب والهواء والنار) التي تكون منها أول مرة، ثم بات كائنا نورانيا يهبط لمخاطبة عقول القديسين.

- برديسياس Bardisias **(نحو ١٣٣ - ٢٠٩م)**

تأثر برديسياس بالأفلاطونية والهرمسية والغنوسية، في زعمه بأن الله الواحد المجرد قد خلق العالم الروحي والأنفس البشرية العاقلة في أجساد أثيرية لطيفة، غير أن أبليس رئيس مملكة الشر وسوس لهذه الأنفس لارتكاب

الفاحشة، فألبس الله هذه الأنفس الأجساد المادية الخبيثة جزاء لعصيانها له وإصغائها لصوت الشيطان. غير أن الصراع بين القوة الروحية الإلهية والقوة المادية الكامنة في البدن لم يتوقف فالأولى أسفت على ما ارتكبته وحزنت لسقوطها في عالم الرذيلة، في حين سعدت القوة المادية بحياتها الأرضية وسعت للقضاء على القوة العاقلة التي تمنعها من أداء رغباتها والاستمتاع بالمتع الجسدية، ولما انتصرت الأخيرة، أرسل الإله المجرد ملكا هو المسيح في هيئة بشرية لإعانة القوة الروحية للتخلص من عذابات البدن وشروره.

- مونتانوس الفريجي Montanus (نحو ١٤٠ - ٢١٥م)

من أشهر الأساقفة الذين ادعوا النبوة في آسيا الصغرى مونتانوس الفريجي وذلك في عام ١٧٠م فزعم أنه الروح القدس والصوت الإلهي الذي هبط إلى الأرض لإكمال الناموس وغفران الخطايا، وأنكر ألوهية المسيح وأزليته، وعلم بأن جوهر المسيح يختلف عن جوهر الآب في الطبيعة والقدرة والعلم، وقد أعانه في الترويج لبدعته بريسكلا ومكسيميلا وهما نبيتان له، وذلك بعد ادعائه الألوهية. وقد انتهج نهجا صارما في التنسك والتقشف والعبادة، وحرم مطالعة الكتابات المنطقية والفلسفية، وفرض على اتباعه طقوس رهبانية، تأثر فيها بالرياضات الروحية الجينية، وطرد من الكنيسة عقب تنبؤه بسقوط الإمبراطورية الرومانية وقد تصدى لبدعته ديديموس الضرير وترتليانوس. ويروي يوسابيوس القيصري أن مونتانوس قد ظل بقية حياته مجنونا ثم شنق نفسه بيد أن بدعته ظلت حتى القرن الرابع الميلادي ثم طورتها فرقة المرتعشون البروتستانت في القرن السابع عشر وزعموا أنهم عن طريق التنسك والرياضات الروحية يتصلون بالروح القدس عن طريق الاتحاد والحلول ومن ثم لا حاجة لهم في الخلاص الكنسي.

- نيقولاوس الانطاكي (نحو ١٥٠ - ٢٣٠م)

ومن البدع المنافية لتعليم المسيح بدعة نيقولاوس الشماس الذي أباح زوجته الجميلة لمريديه رغم عشقه لها وغيرته عليها، وقد برر ذلك بأنه يسعى إلى قتل الشهوة في نفسه، وتنقية روحه من حب التملك والغيرة والأنانية، وذلك بإباحة من يعشق لكل الرجال على مرأى منه. ويقال أن رجل يدعى متياس قد سار على نفس المنهج في محاربة الشهوة الجنسية.

وقد نسبت العديد من التعاليم إلى نيقولاوسية مثل القول بوحدة الوجود وبشيوعية النساء وإنكار البعث واعتبار يسوع إحدى التجليات النورانية للوجوس الإلهي شأن الفلاسفة والحكماء. وقد ظهرت هذه التعاليم في منتصف القرن الثاني الميلادي. وقد تصدى لها ترتليانوس وغريغوريوس النيصي.

- مكسيمينوس (نحو١٩٠ - ٢٧٠م)

لم تتوقف حركات الهرطقة المتمثلة في إدعاء النبوة وممارسة السحر والانغماس في الفحش ويبدو ذلك بوضوح في دعوة مكسيمينوس الذي صاحب المتنبئين والعرافين وأغدق عليهم العطايا لتأييد بدعته. ويبدو خطر دعوته في إباحته إقامة الهياكل والتماثيل للجن والعفاريت، وأمر اتباعه للسجود لها تقرباً للرب، وشيد عشرات المعابد وشكل مجلساً للكهنة من المشعوذين والأفاقين والدجالين لجمع المكوث والقرابين. ولم يقف فساده عند هذا الحد، بل أباح الزنا وقتل مخالفيه من المسيحيين، واغتصاب العذارى، والتنكيل بالأتقياء والبررة من حملة الصليب.

- نوفاتيانوس Novatianus (نحو١٩٥ - ٢٥٨م)

كان كاهنا رومانيا، أنكر عقيدة الفداء والخلاص وقدرة الأباء على

غفران الخطايا، وشكك في أزلية المسيح وقوة الروح القدس. وقد حاول في كتابه: "الثالوث" الذي ظهر في العقد الأخير من القرن الثاني توضيح العلاقة بين الأقانيم الثلاثة (الآب والابن والروح القدس) وذهب إلى أن الآب في مرتبة أسمى وأعلى من درجة وجود الابن المسيح، ثم درجة وجود الروح القدس أي أن الأقنومين الثاني والثالث يتبعان الله المجرد الأزلي، فالآب هو الأصل والقاعدة، التي يرتكز عليها كل البناء وهو الذي خرج منه الابن الذي كان معه قبل كل بداية، وهو خاضع له ولا يعمل إلا بإرادته وينفذ أوامره لأنه أقل من الآب، ثم الروح القدس الذي خرج من الابن ليبشر بتعاليمه إلى العالم الأرضي وهو أقل في المرتبة من الابن والآب، وقد عجز نوفاتيانوس عن تفسير العلاقة بين اللاهوت والناسوت في شخص يسوع وعلّم بأن هناك علاقة اتحاد وحلول تجمع بين المسيح ابن الله ويسوع ابن الإنسان.

وقد أثرت آراؤه على بلاجيوس ٤٠٥م الراهب البريطاني وأتباعه الذين ظهروا في القرن الخامس، ويبدو ذلك في إنكارهم عقيدة الخلاص، وذهبوا إلي أن خطيئة آدم كانت قاصرة عليه دون نسله، ومن ثم فكل البشر ميلادهم طاهر وأنفسهم خيرة إلي أن يرتكبوا بإرادتهم المتباينة الشر فيحاسبون على أخطائهم، وأن في مقدور الإنسان الصالح أن يصل إلي درجة الكمال دون وسيط بشري؛ وقد شكك بلاجيوس وأتباعه في الإصحاحات التي تتحدث عن عقيدة الفداء، وتصف المسيح بأنه المخلّص، وتخول لتلاميذه القدرة على غفران الخطايا. وقد أقره على ذلك إبراهيم مطران بطريركية أنطاكية في القرن الثامن الميلادي، إذ أنكر عقيدة الأفخارستيا[*].

* الأفخارستيا: وهي لفظة يونانية وتعني الشكر، أو العرفان بالجميل للآلهة، أما في المسيحية فتعني عقيدة التناول في العشاء الرباني حيث تناول " الخبز والنبيذ الأحمر" اللذان يرمزان إلي جسد المسيح ودمه وذلك لتفعيل عقيدة الخلاص والاتحاد بجسد المسيح الروحي،، وعقيدة الأفخارستيا من الأسرار الكنسية وهي من أركان أصول الإيمان بالروح القدس والفداء والخلاص في الكنيسة الأرثوذكسية، ومن ثم يعتبر منكرها من الهراطقة =

- سابليوس الليبي Sabellius (نحو ٢٦١م)

يجمع المؤرخون اللاهوتيون على رد جل العقائد التى تفصل بين الله ويسوع من حيث الوجود والعلم والقدرة التى ظهرت في النصف الأخير من القرن الثاني ومطلع القرن الثالث إلى سابليوس الذي رفض عقيدة التجسد وألوهية المسيح والتثليث بحجة إنها معتقدات لا يقبلها العقل من جهة، وتتعارض مع الإيمان بالوحدانية من جهة أخرى، لذا ذهب في تعاليمه إلى إثبات وجود الله الواحد الأزلي المتفرد الذي لا ينقسم ولا يشاركه في طبيعته أي من مخلوقاته ولا تنفصل صفاته – الحياة، العلم، القدرة، الإرادة – عن جوهر ذاته، وهو الذي خلق العالم دون وسيط، والذي أوحى بالناموس لكل الأنبياء وحلّ في جسد يسوع واتحد بروحه، وانتحل صورة جسدية في هيئة يسوع الذي ولد من مريم ومات على الصليب وهو أيضا الروح القدس التى قامت وتجلّت للتلاميذ، أي أن الله واحد متعدد التجلّيات وانتحال الشخصيات، وقد استند فيما ذهب إليه إلى ما جاء على لسان الرب في سفر أشعيا (٤٥: ٥): "أنا الرب وليس آخر، لا إله سواي، نطقتك وأنت لم تعرفني"، وما جاء في إنجيل يوحنا (١٤: ١١) على لسان المسيح: "أني في الآب والآب في".

ويرد إلى سابليوس المحاولات الأولى للربط بين نصوص العهد القديم وتعاليم العهد الجديد في سياق واحد، غير أن الآباء اللاهوتيين المحافظين رفضوا تعاليم سابليوس وحكموا بهرطقة تعاليمه لإنكاره أزلية الأقانيم الثلاثة، بيد أن

=

والجاحدين للنعمة. وقد درج الأباء الأوائل إقامتها في يوم الأحد الموافق يوم صلب المسيح من كل عام وكانوا يتلون: " نؤمن باله واحد في أقانيم ثلاثة، : الآب والابن والروح القدس، والله هو الآب السماوي الخالق ذو القدرة والجلال به كل شيء وبدونه لم يكن شئ له المجد إلي الأبد باسم ربنا يسوع المسيح، ويسوع المسيح ابن الله وربنا ومخلصنا، وهو حي في كنيسته وسيجئ في يوم الدينونة . والروح القدس هو الله مع الآب والابن وقد نطق بالأنبياء وكنيسة الله جامعة مقدسة.

دعوته لم تندثر بل انتشرت انتشارا واسعا في روما وقرطاجنة والإسكندرية.

ومن أشهر الاتجاهات التي انبثقت عن العقيدة السابيلية فرقة الملكيين التي ظهرت في برقة في أخريات القرن الثاني الميلادي، غير أن تعاليمها انتشرت في النصف الأول من القرن الثالث، ويرجع المؤرخون معظم آرائها إلى تعاليم سابليوس الذي ذهب إلي أن جوهر الآب يختلف تماما عن جوهر الابن البشري، وأن يسوع قد ولد من مريم وحلت فيه روح الإله الواحد السرمدي، كما أكد أن عقيدة الثالوث صعبة الفهم وأن السبيل إلى فهمها لن يتأتى إلا في ضوء نظرية الانتحال أو التجلي، فالله الواحد الأبدي الفياض بالطاقات الروحية قد خلق العالم بكل ما فيه من موجودات وخلق الآب "الكلمة، الجوهر الروحي الخالص" الذي انتحل شخصية الابن وظهر في هيئة بشرية إنسانية في شخص يسوع الذي ولد من مريم العذراء ثم صلب ثم قام ثم حلّ في الروح القدس. وقد انقسم الملكيين إلى طائفتين، تعرف أولهما ب" الملكية الحركية" Dynamuic Monarchianiasm أو "ملكية التبني" Adoptianism وكانت تؤمن بأن المسيح تأنس من العذراء عند ولادته، وحل به الروح القدس، وصار إلها بعد قيامته من بين الأموات، اي أن المسيح بدأ إنسانا وأصبح بعد الصلب والقبر والقيامة إلها، أما الطائفة الثانية فتعرف ب"الملكية الشكلية Modelism Monarchianism وكانت تؤمن بأن الله حلّ في ثلاثة صور أو شخوص هي الآب والابن والروح القدس شخص الله الخالق المشرع، وشخص الابن المخلّص - وتمتد هذه الهيئة من التجسد حتى القيامة - وأخيرا شخص الروح القدس صانع وواهب الحياة، اي أن الآب قام بعمله في ثلاثة أشكال مختلفة، وقد أثرت هذه التعاليم في مجمع نيقية بل في صياغة قانون الإيمان نفسه.

- ماني بن فاتك الآذربيجاني (٢١٦ - ٢٧٧م)

هو مؤسس النحلة المانوية وقام بتأسيس كهنوت جعل بابل مقرا لرئاسته وبتأثير من الميثولوجيات الفارسية والتعاليم المسيحية قد تجاوز كل السياقات السابقة عليه؛ وذلك بزعمه أنه الروح القدس والبارقليط(*) الذي تحدثت عنه الأسفار المقدسة وتتلخص تعاليمه في تقسيمه الوجود إلى عالمين: عالم النور وعالم الظلمة، يحكم الأول إله الخير وله خمسة أقانيم: الحلم والعلم والعقل والغيب والفطنة، وخمس صفات أخرى روحية وهي : الحب والإيمان والوفاء والمودة والحكمة. وله خمس قوى هي: النسيم والريح والنور والماء والنار. وادعى ماني بأن وحيا يتنزل عليه من السماء وأن المسيح بشر بقدومه في نهاية الزمان لإرشاد الناس إلى الطريق الحق وتخليصهم من دنس الخطيئة. ويقسّم ماني الأنفس البشرية إلى ثلاث طبقات: أولها طبقة الأصفياء الأبرار وهم أقرب الأرواح إلى طبائع الملائكة النورانية، وطبقة المستمعين وهم أقل قدرة على نبذ الشهوات وتطهير النفس من دنس المادة، وثالثها طبقة المذنبين وهم أصحاب الأنفس الشريرة المفعمة بالدنس والروح الشيطانية ومصيرهم إلى عالم الظلمة. ومن أهم مؤلفاته: الرسائل، والمزامير، والصلوات، والفصول وجميعها شذرات غير مكتملة. وقد جمع ماني في أصول عقيدته بين التقشف البوذي ومفهوم الألوهية اليهودي والوثنية الغنوسية والأساطير الفارسية، وقد تأثر بتعاليمه القديس أوغسطينوس قبل دخوله للمسيحية.

- بولس السميساطي (نحو ٢٣٠ - ٢٧٧م)

الذي تولى أسقفية أنطاكية من ٢٦٠ - ٢٧٢م وانتهج في تعاليمه نفس

* ترد لفظة بارقليط إلى الكلمة اليونانية Parakletos وتعني الحامي أو المؤيد للإله، وقد وردت في كتابات يوحنا في العهد الجديد للتعبير عن شخص المسيح والروح القدس. وقد ارتبطت هذه الدلالة أيضاً بعقيدة الخلاص والشفاعة للأبرار عند الآب.

المنحى الأبيوني في إنكار ألوهية المسيح، وعلم بوجود إله واحد، تسميه الكتب المقدسة، " أبا" وان المسيح مخلوق بشري من نسل بشري، وقد حلت فيه الحكمة الإلهية ومنحته القدرة على عمل المعجزات، وأكد أن الذي صلب وقبر هو يسوع الناصري، أما الروح الإلهية فانفصلت عن البدن وعادت ثانية في صورة الروح القدس التي تجلت للتلاميذ بعد قيامة المسيح. وقد ترتب على ذلك منعه تلاوة التسابيح التي تؤله المسيح بحجة إنها أسفار منتحلة، وكان يتلو عوضا عنها مزامير داود وبعض الأدعية التي وضعها بنفسه. وقد حكّم بولس بهرطقته في مجمع أنطاكية الثالث ٢٦٨م الذي أدانه وحرمه وكفر اتباعه، غير أن عقيدته لم تندثر، بل ظهرت في القرن الرابع على يد إفوديوس في مصر، وفوتيوس، ومارسيلوس في غلاطية ولوشيانوس في إنطاكية، الذين أكدوا علي ناسوتية يسوع المسيح، واختلاف طبيعته مع طبيعة الآب الإله الواحد المجرد، وكذا مع الروح القدس التي تعبر عن تعاليم الإله، وهي عندهم ليست أقنوم ولا شخص، وقد تأثر الأخير بالأفلوطينية وأراء سابليوس وذلك في ادعائه بأن الابن والروح القدس قد انبثقا أو فاضا من الإله الواحد، الأمر الذي يقطع بعدم مساواتهما بجوهر الآب.

وينزع بعض المؤرخين إلى القول بأن بولس السيمساطي من أوائل اللاهوتيين الذين وصفوا يسوع الناصري بأنه الإنسان الكامل وقد تطور هذا المصطلح على يد الاتجاه الصوفي المسيحي الذي جعل الحب هو الرابطة التي تربط بين المسيح الناصري ابن مريم ويوسف واللوجوس الإلهي وذلك عن طريق الحلول والاتحاد لحظة العماد.

- نيبوس الفيومي Nipos (نحو٣٣٥ - ٣٧٥م)

وكان أسقفا مصريا، ونادى بتأثير من الهندوسية والبوذية بعقيدة عودة المخلّص فذهب إلي أن المسيح سيعود قبل نهاية الزمان بألف عام، وستدين

له الأرض بعد تغلبه على أعدائه، وجرت بينه وبين آباء الكنيسة عدة مساجلات حول موعد عودة المسيح، وعلى رأسهم أوريجانوس والبابا ديونسيوس نحو ٢٦٨م، وحكما عليه بالهرطقة وانتهت تعاليمه، وقد بعثت هذه التعاليم ثانية على يد طائفة شهود يهوه والأدفنتست الآن. ومن أشهر ادعاءاته أن الأسفار المقدسة لا تخلو من التلفيق والإضافة والتحريف، وأن كتابه " المواعيد" يحمل بين طياته طريق الخلاص وسبيل الاتصال المباشر بالروح القدس حيث التعاليم الربانية المباركة التي تتخطى النصائح وتعاليم الآباء. وعلى مقربة من هذا الاتجاه نجد الإلكسيين الذين أعادوا كتابة الأسفار المقدسة على نهج عقلي واستبعدوا منها كل الأساطير والروايات الغريبة، وعلّموا بأن الخلاص يمكن تحقيقه عن طريق التعقل وتطهير النفس بالعلم والفضائل المثالية.

- أريوس الليبي Arius **(نحو ٢٥٦ - ٣٣٦م)**

وهو أكبر الهراطقة في نظر الكنيسة والآباء المحافظين، وذلك لمحاولته طرح قضية الكريستولوجى على مائدة الفلسفة، فأنكر وحدة الأقانيم الثلاثة، وأزلية المسيح، وعلّم بأن جوهر يسوع يختلف تماما عن جوهر الآب من حيث الطبيعة والقدرة والعلم، وحَوكم في المجمع الأول المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥م، وذلك بعد عدة مساجلات دارت بينه وبين الشماس أثناسيوس الذي وصف آراءه بالمروق والهرطقة، وأدرج أتباعه ضمن أصحاب البدع، فكادوا له، وادعوا أنه كان يضاجع إحدى الراهبات، وأنه قتل أسقفا، ذلك فضلا عن ممارسته السحر؛ الأمر الذي أدى إلي نفيه عدة مرات، ثم اعتلى أثناسيوس كرسي البابوية ثانية بعد تبرئه من مكائد الأريوسيين. غير أن العقيدة الأريوسية لم تندثر، فقد ظهرت ثانية عند

مقدونيوس Mecdonius وأتباعه في القرن الرابع الميلادي، ويبدو ذلك في إنكارهم وحدة الأقانيم الثلاثة، وعدم مساواتهم بين أقنوم الابن وأقنوم الأب، وزعمهم بأن الروح القدس ليست حكرا على الكهنة والقدسيين من آباء الكنيسة، بل هي متصلة بكل المؤمنين، وإنها ليست أقنوماً ولا شخص، ويبدو أن ثقافة أريوس الموسوعية وأحاطته بالعديد من المذاهب الفلسفية والعقدية في مدرستي أنطاكية والإسكندرية قد مكنته من صياغة نسقه الكريستولوجى بمنحى أفضل من السابقين عليه سيما الذين أنكروا ألوهية المسيح ورفضوا أزلية الأقانيم الثلاثة، ويبدو ذلك في تعاليمه بأن جوهر الآب مختلف عن جوهر الابن من حيث أزلية الوجود والعلم والقدرة، فالابن مخلوق له وغير مساوي لجوهر الآب، فيسوع إنسان شأن كل البشر، وأن المجد الإلهي الذي منح للمسيح الذي يطلق عليه ابن الرب ما هو إلا نعمة أنعمها الله على أحد مخلوقاته لصلاحه وطاعته له. وقد اعترض اللاهوتيون المحافظون على هذه التعاليم لأنها تنكر ألوهية المسيح ووحدة جوهر الأقانيم الثلاثة وعقيدة الثالوث لذا حُكم بهرطقتها في مجمع سنودس عام ٣٢٠ - ٣٢١م، وتلته عدة مجامع في نيقوميدية وفي بيت عنيا وفلسطين غير إنها لم تدنه إدانة قاطعة، الأمر الذي دفع آريوس إلى صياغة تعاليمه - التي يعتبرها اللاهوتيون امتدادا لتعاليم معلمه لوقيانوس الأنطاكي - في كتابه: "المثالية THALIA" وقد أورد فيه العديد من نصوص العهدين القديم والجديد لإثبات صحة تعاليمه الكريستولوجية، فجاء فيه: أن جوهر الابن ليس أزليا فالأزلي هو الله وحده، أما الابن فقد خلق قبل جميع المخلوقات وهذا لا ينفي أسبقية وجود الآب على الابن لأن الله وجد بمفرده منذ الأبد ولم يكن له شريك ولا ولد. ومن ثم فالابن ليس من جوهر الآب بل من جوهر آخر فقد خرج الابن من العدم بحسب مشيئة الله وقصده كما أن الابن

متغير وليس ثابتا، والتغير لا يطرأ إلا على المخلوقات، وأن معرفة الابن للآب محدودة وأن علمه بحقائق الأشياء قاصرا، الأمر الذي لا يمكن مقارنته بمعرفة الآب وعلمه المطلق. كما أن وجود الابن مرهونا بإرادة الله وقصده في حين أن وجود الآب لا يمكن فصله عن ذاته، كما أنه ليس معلولا لعلة سابقة عليه. وأن صفات الله المطلقة: "العلم، والقدرة، والحكمة...الخ" ليست لاحقة على ذاته ولم يكن مفتقرا إليها أبدا، أما الابن فقد وهب هذه الصفات بموجب الإرادة الإلهية وبقدر محدود. فمجد المسيح هبة من الله فحسب. وقد ساق العديد من النصوص لتأكيد عقيدته منها ما ورد في سفر التثنيه (٣٢: ٣٩، ٦) على لسان الرب: "انظروا الآن أنا أنا هو وليس إله معي" وما جاء في إنجيل يوحنا (١٤: ٢٨) على لسان المسيح: "لأن أبي أعظم مني".

وقد أدت تعاليم أريوس إلى خلافات عقدية عصفت بوحدة الكنيسة وظهرت الانقسامات من الداخل، ولم يحسم الأمر بين اللاهوتيين المتصاولين إلا الإمبراطور قسطنطين الذي أدرك خطورة هذه الانقسامات على أمن إمبراطوريته التي اتخذت من المسيحية دينا رسميا لها - كما بينا سلفا - ويعد هذا الموقف أول مظاهر الارتكان إلي السلطة السياسية لفرض الأصول العقدية ونقض الخصوم، وفي يوم ١٩ يونيو ٣٢٥م عقد أول مجمع مسكوني تحت رعاية السلطة السياسية لتحديد قانون الإيمان وقواعد اللاهوت التي يجب على الدولة الإيمان بها ومحاربة كل من يخالفها، وتشير بعض الكتابات التاريخية إلي أن الإمبراطور قسطنطين هو الذي وضع عبارة "مساواة الابن بالآب في الجوهر" للقضاء على بدعة أريوس ثم أمر بحرق كتبه ونفيه، وعلى الرغم من ذلك كله ظلت تعاليم أريوس راسخة البنيان في كتابات جميع اللاحقين عليه، والجدير بالإشارة في هذا السياق هو توضيح الفارق بين تعاليم

أريوس الكريستولوجية وتعاليم معاصريه المشابهة لمذهبه فهو يتفق مع الغنوسيين في فكرة وحدة الإله وتفرده وأزليته وصورته المجردة، ومن ثم فالابن عنده ليس مساويا للآب لأن هناك فترة زمنية كان فيها الآب موجودا بمفرده قبل وجود الزمان، ويتفق كذلك مع الأبيونية والسابيلية في ناسوتية الابن، والنظر إلي يسوع على أنه مخلوق لله، وقد ترتب على ذلك رفضه للقانون النيقوي الذي يساوي بين جوهر الآب والابن، وكذا عقيدة الانتحالية التي تعتقد بأن الله هو الذي تجلّى في صورة الابن وصورة الروح القدس.

وعلى نقيض الأريوسية والنسطورية، ذهب أوتيخوس (٣٨٨ - ٤٥٤م) الراهب اليوناني - رئيس أحد الأديرة بالقسطنطينية - إلى إنكار ناسوتية المسيح، وأكد على طبيعته الإلهية الخالصة، وقد بلغ تأثره بالغنوسية إلى القول بأن المسيح لم يولد من مريم، ولم يصلب، ولم يقبر، لأنه جوهر نوراني مجرد لا تلحق به المادة، وإن كان في مقدوره التشكل في هيئة بشرية.

- أبوليناريوس الأبن Apollonarius **(نحو٣١٠ - ٣٩٠م)**

وهو أسقف اللاذقية، الذي حارب الأريوسية، وأعلى من شأن لاهوتية المسيح ومع اعترافه بوجود الابن المتجسد والروح القدس إلا أنه حصر الجانب الإلهي في شخص المسيح في النفس العاقلة، ولم يساو بين الأقانيم الثلاثة ولم يوحد بينها، وقد حكم عليه مجمع الإسكندرية عام ٣٦٢م بالحرمان لإنكاره الأقنوم البشري للابن، وقوله: " إن الكلمة لم تتحد في التجسد بنفس بشرية، بل بجسد المسيح مباشرة، ومن ثم فإن ناسوت المسيح لا يشبه ناسوت البشر"، وعلّم بتأثير من الأفلاطونية المحدثة أن الإنسان يتكون من ثلاثة عناصر، جسد وروح ونفس، وأن الكلمة "Logos" قد شغلت في المسيح مكان النفس العاقلة التي هي أسمى العناصر الإنسانية،

ومن ثم فالعنصر الإلهي في شخصية المسيح ليس في الابن ولا في الروح بقدر متساو فالآب هو الحقيقة الأزلية الثابتة التي حلت في المسيح واتحدت بجسده اتحادا ظاهريا وقد نقض هذا التفسير قانون الإيمان النيقوي الأمر الذي دفع اللاهوتيين إلي إدانته وحرمانه في عديد من المجامع أولها: المجمع السندوسي الروماني عام ٣٧٧م ومجمع الإسكندرية عام ٣٧٨م، والمجمع الأنطاكي عام ٣٧٩م والمجمع المسكوني الثاني بالقسطنطينية عام ٣٨١م بحجة أن تعاليمه تفرق بين مراتب الأقانيم الثلاثة وطبائعها، وأن اللاهوت حلّ في المسيح محل الروح، وعليه، قد سلبت إرادة المسيح البشرية.

وينزع القس حنا الخضري إلى أن أبولوناريوس كان يؤمن بما انتهي إليه قانون الإيمان النيقوي الذي يساوي بين الآب والابن والروح القدس في الطبيعة والجوهر، وأنه رفض قول الأريوسيين باختلاف جوهر الآب المجرد الأزلي عن جوهر الابن المخلوق وكذا خالف القائلين بأن طبيعة الله مخالفة لطبيعة الابن وذلك مع اعترافهم بألوهية المسيح. والفارق بين تعاليم أبولوناريوس وتعاليم أثناسيوس دقيق جدا ويتمثل في عملية الاتصال أو الحلول فالروح الإلهي قد هبطت وحلت في الجنين الكامن في أحشاء مريم ومن ثم لا يوجد روح بشرية في جوهر المسيح فالروح القدس هي التي حلت في الناسوت اليسوعي ويقول في ذلك "إنه من المستحيل أن كائنين روحيين ومتمتعين بالحرية يسكنان معا في جسد واحد حتى لا يؤدي وجودهما إلى صراع بين الإرادتين الروح الإلهية والروح البشرية" وعلى ذلك فإن أبولوناريوس لا يعترف بطبيعة ناسوتية كاملة للمسيح وذلك لأن يسوع البشري قد حل في جسده الروح الإلهي.

ويقول بونيفاس وهو أحد شراح أبولوناريوس " أن الاعتراف بوجود روح بشرية للمسيح يسبب مشكلة صعبة. فإذا احتفظت هذه الروح بحريتها

وإرادتها فإنها ستكون في صراع مع اللوجوس ومخالفة لإرادته. الأمر الذي لا يمكن قبوله في شخص المسيح.

والدارس المدقق لبعض كتابات أسقف اللاذقية يلاحظ بلا عناء بأنه أكد هو واتباعه على فكرة عدم وجود روح بشرية في المسيح. وحجتهم في ذلك أن الروح تتمتع هي أيضا بإرادة وحرية وبناء عليه فإنه من المستحيل جمع إرادتين: إرادة الإنسان الكامل التكوين من روح ونفس وجسد ثم إرادة اللوجوس الساكن فيه. فإن وجود ناسوت كامل في المسيح: أي وجود روح ونفس سفلى وجسد من ناحية ثم وجود الكلمة من ناحية أخرى قد يؤدي إلى الانحراف والانزلاق والابتعاد، لا بل إلى الصراع الداخلي العنيف. ولهذا السبب وتجنبا للصراع الداخلي ينادي أبولوناريوس مشددا بأنه لا توجد في المسيح إلا إرادة واحدة وطبيعة واحدة مكونة من روح واحدة هي الكلمة نفسها، والإرادة الواحدة هي الإرادة الإلهية لا تتغير. فتجنبا للصراع الداخلي بين الناسوت وبين اللاهوت: يعتقد أبولوناريوس أنه من الضروري لا بل من المحتم أن يحل الكلمة ابن الله أو اللوجوس في جسد فقط بدون روح."

ويمكننا أن نستنبط مما سبق أن أبولوناريوس قد وضع معاييرا أفلاطونية للإنسان الكامل تتمثل في حلول اللوجوس الإلهي والإرادة العاقلة الإلهية في جسد يسوع الأمر الذي يحول بين شخص يسوع البشري وبين الوقوع في أي خطية ويعصم عقله وإرادته من الانصياع إلى النفس البشرية التي يمثلها البدن فالمسيح هو الإله المتأنس وليس الإنسان المتأله وذلك لأن مصدر كماله يرجع إلى غلبة الجانب الإلهي فيه. ويقول أبولوناريوس في ذلك "لو قبلنا فكرة وجود الطبيعتين في المسيح نقبل بالتالي وجود إرادتين متناقضتين كما نقبل أيضا وجود الخطية الأصلية والخطية الفعلية فيه". فالروح البشرية في المعتقد المسيحي مطبوعة بالخطية الأولى وعليه لا يمكن للمسيح المخلص أن يكون له

طبيعة بشرية كاملة مدنسة بخطيئة آدم والأصوب عند أبولوناريوس القول بأن المسيح من طبيعة مغايرة لطبيعة نسل آدم.

ومفهوم الكمال الذي يقدمه أبولوناريوس يتعارض مع مفهوم الإيمان النيقوي الذي يعلم أن المسيح إنسان جسد وروح غير أنه معصوم وهو الابن الذي يحمل صورة الآب وهو الروح القدس الذي يمثل إرادة الأب أيضا وهو الثالوث الإلهي في جوهر واحد أزلي وكامل.

ويبدو اقتراب تعاليم أبولوناريوس من المنوفيزية التي تعلم بطبيعة واحدة في المسيح فتعلي من القوة الإلهية فيه وتخرج الطبيعة الناسوتية من جوهره. ويقول في ذلك "إن للمسيح طبيعة واحدة لأنه شخص واحد بسيط وغير منقسم إذ أن جسده لا يعتبر طبيعة بذاته وليس بفضل التجسد أصبح اللاهوت طبيعة بذاته...".

ويبدو أن أبولوناريوس تأثر بـ (الدوسوتية) التي تنكر فاعلية الجسد والإرادة البشرية للمسيح غير أنه يخالف القائلين بها في اعترافه بأن للمسيح جسد بشري لا يختلف عن سائر البشر في حين يري الدسوتيون أن جسد المسيح جسد إلهي في هيئة بشرية.

وقد اختلف شراح أبولوناريوس على مفهومه للجسد الإلهي فاتهمه غريغوريوس النزينزي بأنه دسوتي غنوسي واتهمه القديس أمبرواز بأنه ادعى بوجود جسد نوراني من طبيعة إلهية غير بشرية للمسيح. ويرى غريغوريوس النيصي أن أبولوناريوس زعم بأن جسد المسيح جسد سماوي.

ولم تمت العقيدة الأبولوناريوسية بموت صاحبها بل انبثق منها تياران أولهما يمثله بوليمونيوس ثم أنوميوس ويوليانوس وكان يتمسك هذا التيار بحرفية تعاليم أبولوناريوس الكريستولوجية أما التيار الثاني فيمثله فالنتينوس السكندري ثم أيوبيوس أو أيوب وهومونيوس وقد حاول أنصار هذا الاتجاه

تأويل تعاليم أبولوناريوس التي تتوائم مع قانون الإيمان النيقوي.

- نسطوريوس السوري (نحو٣٨٠ - ٤٥٠م)

لقد تأثر نسطوريوس السوري بطريرك القسطنطينية عام ٤٢٨م بهذه الآراء السابقة، رغم تأكيد كل الكتابات التاريخية على أنه كان أكثر الأساقفة عداء للهراطقة وسيما - الآريوسية والأبولوناريوسية والمارقونية وغيرها - فنجده قد فصل بين طبيعة الآب اللاهوتية وطبيعة الابن يسوع الذي تجسد وولدته مريم في صورة الابن، وقد أدانه مجمع أفسس ٤٣١م وحرقت كتبه عام ٤٣٥م ونفي إلى مصر، فهو يوافق أبولوناريوس الأصغر في ضرورة تنزيه الإله عن المادة والتجسد والصلب والموت، كما يوافقه في إنكار العنصر الإلهي في شخصية مريم، وهو يخالفه في الوقت نفسه في حديثه عن الطبيعة الناسوتية للمسيح، فقد ذهب نسطور واتباعه من بعده إلي التأكيد على بشرية يسوع المسيح وقد حالت ثقافتهم الفلسفية الجمع بين الآب والابن في جوهر واحد. وقد اختلفت آراء المؤرخين حول طبيعة العقيدة النسطورية التي ظلت قوية حتى القرن السادس عشر الميلادي، وذلك نظرا لفقد كتب مؤسسها، فتربط بعض الكتابات بين العقيدة النسطورية وبين بدعة يوليان - في القرن السادس الميلادي - الذي ذهب إلي أن جوهر الآب مخالف لجوهر الابن المخلوق المتجسد، وأن الطبيعة الإلهية للابن ليست أزلية، بل هي هبة من الإله اتحدت بالابن يسوع لحظة الميلاد. غير أن بعض الكتابات تنسب إلي نسطور القول بأن للمسيح طبيعتين طبيعة ابن الله المساوي للآب في الجوهر، وطبيعة الإنسان المولود من العذراء، ومن ثم تصبح العلاقة اللاهوتية بين الآب والابن محصورة في الجانب الروحي من الابن، أما الجسد فهو مخالف تماما لجوهر الآب والابن معا، وعليه، يعتبر يسوع الذي ولد من

رحم مريم إنسانا وليس إلها وأمه ليست أم إله بل أم مخلوق بشري. وقد أدانه اللاهوتيون لقوله: بأقنومين وطبيعتين وشخصين في جوهر المسيح.

وقام القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية (٤١٢ - ٤٤٤م) بالرد عليه في عدة رسائل وضح فيها أصول الإيمان " أن يسوع المسيح هو الإله والكلمة المتجسدة الذي ولد من أم الإله مريم البتول، وأن الجسد قد حلّ فيه الإله واتحد به في جوهر واحد، وأن الروح القدس التي صنعت المعجزات وتحدثت في الأناجيل والرسائل الرسولية والي الآباء والقديسين هي صوت الرب وجوهره، وأن الأقانيم الثلاثة كلها أزلية، وأن يسوع المتجسد في صورة بشرية هو نفسه الآب الذي خلق العالم ووجد قبل الأكوان، وأن المسيح الحي الإله هو الذي تألم وصلب ومات وقام بجسده من أجل الخلاص هو نفسه الآب." غير أن نسطور رفض الموافقة على هذه الصيغة الإيمانية وقام بتفنيدها بمساعدة فلاسفة أنطاكية، وعلى الرغم من استبعاده ظل اتباعه يؤمنون بتعاليمه الكريستولوجية في مدرسة الرها منذ عام ٣٦٣ إلى ٤٨٩م ثم مدرسة نصيبين التي تأسست عام ٤٥٧م وما زال النساطرة يقيمون في فارس والعراق وبعض النواحي من سوريا والهند ويعرفون بالطائفة الكلدانية. وعلى النقيض من هذه البدعة ذهب الكوليرسيين إلى تقديس مريم البتول وتقديم القرابين لتماثيلها، اعتقادا منهم بأنها هي التي منحت ليسوع الطابع اللاهوتي، لأنه كان كامن فيها قبل ولادتها له. وقد تصدى لهذه البدع القديس إبيفانيوس وحكم بتبديع أصحابها، وأكد على خلو الكهنوت المسيحي من النساء.

وعلى الرغم من تباين الآراء حول عقيدة نسطوريوس الكريستولوجية إلا أننا يمكن أن نتبين الأثر الأنطاكي الواضح على تعاليمه فهو يتفق مع جل أساقفة هذه المدرسة على أن هناك طبيعتين للابن الأولى لاهوتية خالقة

سرمدية كاملة ويمثلها المسيح الكلمة أو اللوجوس والثانية طبيعة ناسوتية بشرية مادية مخلوقة ويمثلها يسوع الذي ولد من رحم مريم وعليه لا يمكن مساواة الطبيعتين لبعضهما أو جمعهما في جوهر واحد. وقد ذهب إلى مثل ذلك ديودوروس الطرسوسي - وذلك كما أشرنا في الفصل الأول من هذه الدراسة عند حديثنا عن مدرسة أنطاكية - فقد ذهب الطرسوسي إلى أن اللوجوس الكلمة قد حل في الجسد البشري يسوع غير أن شراحه اختلفوا فيما بينهم على تفسير طبيعة الجوهر البشري عندهم فذهب بعضهم إلى أن المقصود هو الجسد الذي تكون في أحشاء مريم دون الروح في حين ذهب البعض الآخر إلى أن الجوهر الناسوتي عنده كان يعني الطبيعة الإنسانية الكاملة أي جسد وروح والذي يعنينا من ذلك هو أن تعاليم الطرسوسي قد أثرت تأثيرا مباشرا في عقيدة نسطوريوس الكريستولوجية. فطالما أكد الطرسوسي على الثنائية التي تجمع بالحلول والاتحاد بين اللوجوس ابن الله الذي يحمل كل خصائص أبيه (الأزلية والعلم والخلق) وبين يسوع ابن مريم والمنسوب إلى يوسف ابن داود فجوهر الأول متميز بالطبيعة والوجود عن الثاني المخلوق المادي وهو ابن الله بالتبني الذي تألم ومات على الصليب، وقد رفض ديودوريوس إطلاق كنية أم الإله على مريم وذلك لأنها أم يسوع البشري المخلوق " إن مريم ليست هي أم الكلمة أو اللاهوت بل هي أم الإنسان الذي اتحد بالكلمة. فهي إذن أم الإنسان المتأله وليست أم الكلمة الإله المتجسد".

وقد تأثر نسطوريوس كذلك بتعاليم ثيودوريوس المبسيوستي الذي ذهب إلى التمييز بين ابن الله المسيح الكلمة اللوجوس وبين يسوع ابن مريم الذي تألم ومات على الصليب، وهو في ذلك لا يختلف عن جل الإنطاكيين الذين علموا بطبيعتين لابن الله. والذي يعنينا أيضا في هذا المقام هو إبراز

اوجه الاتفاق بين الأسقف الموبسيوستي وبين نسطوريوس، فكلاهما يتفق على أزلية اللاهوت وتجرده عن المادة وانه هو الذي قلق الهيكل أو الثوب أو يسوع وهو أيضا الذي كان يقوم بالمعجزات ويجريها على يد يسوع فان ابن الله له طبيعتين، طبيعة إلاهية كاملة وطبيعة إنسانية كاملة أيضا قد ربطت بينهما علاقة الحلول والاتحاد دون امتزاج أو فناء كامل وتبدو أهمية ثيودوريوس في تحليلاته الأرسطية للألفاظ التي استخدمها اللاهوتيون في القرون الثلاثة الأولى للتعبير عن شخص المسيح فقد فصل ثيودوريوس فصلا تاما بين مصطلح جوهر (Essentia, Subsyance) وطبيعة Physis وأقنوم Hebustas وشخص Persona وأوضح انه من الخطأ إطلاق هذه الاصطلاحات على موجود واحد فالكلمة اللوجوس لا تتشخص ولا يوجد لها طبيعة بشرية ولا يمكن اختلاط جوهرها أو محوه أو فنائه في جوهر مادي مخلوق ومع ذلك فانه يرى أن شخصية يسوع وطبيعته الناسوتية وجوهره البشري معلول بالضرورة لأقوم اللوجوس الإلهي ومن ثم يمكن رد الطبيعة الناسوتية إلى الطبيعة اللاهوتية والجمع بينهما في أقنوم واحد.

* * *

وإذا ما نظرنا إلى البنية العقدية لجل الهرطقات سوف نجد أن أفكارها مستمدة من النزعات الفلسفية السائدة في العصر الهلينستي وعلى رأسها (الغنوسية والأفلاطونية والأرسطية والهرمسية بجانب بعض تعاليم الفلسفات الهندوسية والصينية والفارسية) وقد أكد ذلك العديد من المؤرخين المحدثين من أمثال شنودة السرياني الذي ذهب إلى أن الفلسفات اليونانية قد ساهمت مساهمة فعالة في أتون الصراع الذي احتدم بين علماء اللاهوت الأوائل وبين الهراطقة في القرون الخمسة الأولى ويبدو ذلك في استعانة بعض اللاهوتيين بنظريات أفلاطون والرواقيين والفيثاغوريين في تفسير وتبرير

بعض الأمور العقدية أما الهراطقة فقد استعانوا بالفكر الغنوسي والأرسطي والمانوى في نقد عقيدة التجسد بوجه عام والبنية الكريستولوجية للمسيح على وجه الخصوص. ويقول في ذلك " حاول بعض المتنصرين من معتنقي هذه الفلسفات أن يجدوا تفسيرا للمسيحية على ضوء دياناتهم وفلسفاتهم القديمة واجتهدوا في التوفيق بين هذه وتلك ... فكانت أعراض الانحرافات اللاهوتية والعقدية ومعها ظهرت الهرطقات بمفهومها الكامل التي أحدثت بلبلة فكرية كبيرة أقلقت الكنيسة واتباعها ..."

ويرى بعض اللاهوتيين المحافظين أن علة ظهور الهرطقات ترد إلى عدم الإصغاء لتعاليم القديس بولس التي حذر فيها المسيحيين من انتحال الفلسفة أو الخلط بين تعاليمها وأسرار الإيمان وقد استشهدوا في ذلك برسالة بولس إلى كولوسي التي جاء فيها "فكما قبلتم المسيح يسوع الرب، اسلكوا فيه متأصلين ومبنيين فيه موطدين في الإيمان كما علمتم متفاضلين فيه بالشكر، انظروا ألا يكون أحد يسبيكم بالفلسفة* وبغرور باطل حسب تقليد الناس، حسب أركان العالم، وليس حسب المسيح" كو٢:٦ - ٨

وإذا ما أردنا تحليل البنية العقدية في مضمون خطاب اللاهوت الفلسفي سوف نجدها تنقسم إلى نسقين رئيسيين:

أولهما: النسق اليهودي ويتمثل في الأفكار المعارضة لكل تعاليم الكنيسة الكريستولوجية فالمسيح إنسان نبي ويترتب على ذلك إنكار عقيدة

---

* لم ترد لفظة فلسفة في الكتاب المقدس إلا في رسالة بولس الى كولوسي ٢:٦-٨ ولم ترد لفظة فلاسفة إلا مرة واحدة في أعمال الرسل ١٨:١٧ ولم تذكر اي من المذاهب الفلسفية سوى الأبيكوريين والرواقيين في اعمال الرسل في نفس الموضع وقد ذكرت لفظة الأثينويون مرتان في أعمال الرسل٢١:١٧-٢٢ وكانت تشير للأفلاطونيين. والذي نريد اثباته هنا معرفة القديس بولس بالاتجاهات الفلسفية السائدة في عصره وأن العلاقة لم تكن بينه وبين الفلاسفة على ما يشتهي بل كانت في صورة حوار وجدل وتثاقف وتكشف عن ذلك تلك الرواية التي ذكر فيها القديس بولس أن الأبيكوريين والرواقيين قد رغبوا عنه واتهموه بالهذيان أثناء حديثه عن الأصول الكروستولوجية وعقيدة الخلاص في أثينا.

الخلاص والفداء والصلب وألوهية المسيح وإسقاط وتكذيب كل الإشارات النصية التي تؤيد هذه المعتقدات وقد تأثر بهذه الأفكار بدرجات متفاوتة اتباع أبيون وسابليوس وبولس السميساطي وأريوس، وكذا القائلون بطبيعتين وإرادتين ليسوع.

وثانيهما: النسق الغنوسي الذي يعد بلا منازع أعرق وأخطر الأنساق الفلسفية هجوما على الأصول العقدية المسيحية والتصور اللاهوتي ليسوع وليس أدل على ذلك من محاولة القديس بولس في دفع خطره خلال رسائله إلى كولوسي وتيموثاوس الأولى وتيطس وكذا القديس بطرس في رسالته الثانية ويوحنا في رسالتيه الأولى والثانية وسفر الرؤيا والإنجيل الرابع.

وتكمن خطورة هذا النسق في محاولة تفسير العقيدة الكريستولوجية تفسيرا فلسفيا وجعل المسيح ممثلا للوجوس بالدلالة الفلسفية من ثم إنكار ناسوتية المسيح وقطع العلاقة بين تعاليم يسوع وبين العهد القديم والفصل التام بين المعرفة بوصفها النور الإلهي والسبيل الأوحد للخلاص وبين الطقوس والعبادات الكنسية والنظر إلى كل ما يرتبط بالجسد من أفعال على أنه، شر وشهوة ودنس ومن ثم يصبح طريق الرهبنة والتبتل والتقشف هو سبيل السعادة والخير الأقصى والاتصال المباشر باللوجوس والاتحاد ثانية بالإله الواحد المجرد وترتب على ذلك كله القول بطبيعة واحدة ليسوع مغايرة تماما لما ورد في كتابات اليهود المتنصرين من جهة وأتباع سابليوس وكنيسة أنطاكية وتلاميذ لوقيانوس من جهة ثانية واللاهوتيين الأرثوذكس من جهة ثالثة ويعد ماركيون وأوتيخوس من أبرز أعلام الغنوسية كما أشرنا في القرون الخمسة الأولى ولا ريب في أن تعاليمهما قد تغلغلت في بنية الفكر المسيحي بأثره ويبدو ذلك في كتابات فلاسفة اللاهوت الذين سوف نتناول آرائهم بعد قليل.

ويمكننا حصر التيارات الجانحة في ثلاثة اتجاهات : -

الأول: الاتجاه الغنوسي وهو الذي ينظر إلى المسيح على انه اللوجوس المساوي للإله في الأزلية والعلم والقدرة وهو مجرد مفارق للمادة وهو الخير المحض والجمال المطلق واصل كل معرفة. وأن يسوع هو الإنسان الكامل الذي حل اللوجوس في هيئته البشرية. وقد أنكر ذلك الاتجاه تماما ألوهية الناسوت ونقض كل الأقوال النصية التي تنسب الضعف والألم والصلب إلى اللوجوس ابن الإله وقد تأثر بهذا المنحي أبولوناريوس واوتيخوس والمنوفيزون والدوسوتيون الذين اعلوا من الطبيعة اللاهوتية على الطبيعة الناسوتية في شخص المسيح وأكدوا على أن مريم لم تلد إنسانا بشريا بل ولدت إلها.

الثاني: وهو الاتجاه الناسوتي الذي نظر إلى يسوع الناصري على أنه إنسان عادي من حيث الطبيعة ومن ثم لا يمكن وصفه بالإله بل هو ابن الله بالتبني شأن كل الأنبياء وذلك لأن جوهره مخلوق وغير أزلي وناقص في علمه وقدرته وإرادته ومن ثم فهو يختلف اختلافا كليا عن اللوجوس الإلهي وقد نزع إلى هذا المنحي معظم أساقفة إنطاكية وعلى رأسهم لوقيانوس وبولس السميساطي وأريوس الليبي الذين أكدوا أن الألم والصلب والموت لا يمكن إلحاقهم بالإله بل بالجسد وبشخص يسوع ابن مريم وعليه لا يمكن وصف العذراء بأنها أم الإله بل أم يسوع قد شكك بعض الأريوسين اليهود في الميلاد العذراوي للمسيح وأنكروا كل النصوص المقدسة التي تشير إلى ألوهية ابن مريم وأن يسوع هو الإنسان الكامل الذي اصطفاه الآب الإله ومعيار كماله يكمن في طاعته للإرادة الإلهية وعصمته من ارتكاب الرذائل وإخلاصه في تبليغ الرسالة.

الثالث: وهو اتجاه التوفيقين أصحاب القول بطبيعتين للمسيح - طبيعة لاهوتية أزلية خالقة وطبيعة ناسوتية بشرية مخلوقة - وقد اجتهد أنصار هذا الاتجاه في محاولة تفسير عملية الاتصال والاتحاد والحلول دون امتزاج بين اللاهوت والناسوت ويمثل هذا الاتجاه ديودوريوس الطرسوسي وثيودوريوس المبسيوستي ونسطوريوس وقد اختلفوا فيما بينهم على تحديد طبيعة الاتحاد (هل كان بين الجوهر الإلهي الكامل والجوهر البشري الكامل أم كان بين الروح القدس والنفس العاقلة في شخص يسوع أم حلت الروح القدس محل النفس البشرية؟) . ولكنهم اتفقوا على رفض إطلاق كنية أم الإله على مريم وذلك لأنها لم تحمل إلا الأقنوم الناسوتي فقط أما وصفه يسوع بأنه الإنسان الكامل يرجع إلى جمعه بين الطبيعتين في وجوده على الأرض.

ويمكننا أن نلاحظ أن قضية الخلاص والفداء والاتفاق على صحة النص المكتوب لم تطرح في هذه الحقبة فلم يكن المتصاولون معنيين بهذه الفرعيات ولا سيما بعد مشاركة الفلاسفة الابيقوريين والأكاديميين والرواقيين في المساجلات فكان الهم الأكبر لعلماء اللاهوت هو تبرير ألوهية المسيح والإجابة عن السؤال المطروح كيف أصبح الإله إنسانا ثم مات على الصليب؟ وقد حفلت القرون اللاحقة بمساجلات• أعظم حول العديد من

• لقد حفل العصر الوسيط بظهور عشرات الفرق الإلحادية التي أثارت العديد من المسائل العقدية والفلسفية حول المعتقدات المصاحبة للقضية الكروستولوجية مثل القراءة الرمزية للنصوص الخاصة لطبيعة المسيح فالأب والابن والروح القدس مجرد رموز للإله والنبي والوحي أو الحوار بين اللاهوت والناسوت ومن اشهر الذين طرحوا هذه المسألة بارناغريوس الشماس الفرنسي الذي ظهر في القرن الحادي عشر على رأس فرقة تنتسب إليه (البارنغاريوسية) وأنكرت الافخارستية . وكذلك حركة الوالدية التي أسسها الفرنسي بطرس والد عام ١١٧٠ كانت تنادي بإلغاء الكهنوت وسلطة الكنيسة والاكتفاء بنصوص الكتاب المقدس في الإيمان والعمل وإلغاء صكوك الغفران والامتناع عن تقديس تماثيل العذراء والكهنة والآباء الأوائل. ويعدها بعض المؤرخين الإرهاصات الأولى للبروتستانتية. وفرقة اليواقيمية التي ظهرت في أسبانية في القرن الثالث عشر وقام أساقفتها بتأويل الكتاب المقدس تأويلا روحيا باطنيا وأنكروا التثليث وآمنوا بالوحدانية المطلقة. وفرقة الهوسية التي تأسست
=

المسائل المتعلقة بالقضية الكريستولوجية.

وعلى الرغم من خطورة مبحث اللاهوت الفلسفي - الذي ابتدعته تعاليم الهراطقة - على العقيدة الكريستولوجية المسيحية إلا أننا يمكننا الوقوف على جانبه الإيجابي المتمثل في ظهور فلسفة اللاهوت تلك التي أرسى قواعدها المفسرون والمؤلون من اللاهوتيين الذين جمعوا في ثقافتهم بين الإيمان والثوابت العقدية المسيحية وبين الفلسفة والمنطق واجتهدوا في إيجاد علاقة وطيدة بين النقل والعقل أو اللاهوت والفلسفة لإبراز أوجه الاتفاق بين الطرفين المتصارعين (أقوال الرسل وأقوال الفلاسفة) على يد المتصاولين في القرون الخمسة الأولى وتأسيس نسق مبني على علاقة التجاور بين اللاهوت والفلسفة من جهة والكنيسة والدولة من جهة أخرى عند التعارض وذلك لتلافي وقوع الصراع.

=

على يد جون (يوحنا) هوس عام ١٣٦٩ الذي نقض لاهوت الكنيسة ووصف بابا روما وكهنته بأنهم ذئاب بشرية يتاجرون في الدين. واللوثرية التي ظهرت على يد مارتن لوثر علم١٥١٧ للاعتراض علي كهنوت الكنيسة وصكوك الغفران وسلوك الباباوات المنافي لتعاليم الكتاب المقدس. والحركة الكليفينية التي أسسها يوحنا كلفن عام ١٥٤٩ ومن أهم تعاليمه إنكار عقيدة الخلاص والقول بالجبر وإلغاء الطقوس والكهنوت ورمزية الإفخارستية. وجماعة الكويكرز التي أسسها جورج فوكس عام ١٦٥٠ وكانت تعلم بإمكانية حلول الكلمة في كل البشر إذا ما عكفوا على التأمل الصامت الذي يؤهلهم للإلهام الروحي ثم حلول الروح القدس في أجسادهم والاتصال المباشر بالإله وقد ترتب على هذا المعتقد نسخ الكتاب المقدس وتأويل عقيدة الكرومستولوجى تأويلا باطنيا وإلغاء الكهنوت وتعاليم الكنيسة. وفرقة الجنسيوسية التي أسسها جنسيوس عام ١٦٠٠ وأنكر في تعاليمه عقيدة الخلاص الأبدي وسلطة الكهنوت وجعل الخلاص مرهونا بالمشيئة الإلهية فحسب وأكد على الجبرية وانتفاء الإرادة الإنسانية. والعلمانية المسيحية التي تؤمن بوجود اله واحد مع إنكار كل العقائد المسيحية والكهنوت والتعاليم والنظر للكتاب المقدس نظرة نقدية انتقائية تأويلية فلسفية.

الفصل الثالث

التأويل وإشكالية الصراع بين اللاهوت والفلسفة

لا يمكننا الحديث عن النزعة التوفيقية بين العقل والإيمان أو الفلسفة واللاهوت بمنأى عن الأثر الفيلوني الذي يرد إليه جل المحاولات التي اتخذت من التأويل(*) Hermeneutics سبيلا لبناء نسق فلسفة اللاهوت أو الخلاص الفردي الذي يعول على العقل والميثولوجيات دون اعتناق اللاهوت

* يرد مصطلح التأويل إلي الكلمة اليونانية Hermeneutics وتعني: الخبرة في التفسير، وتستلزم عملية التأويل فحص النص من حيث دلالات ألفاظه ومعانيها في لغته الأصلية وتحليل الخلفية التاريخية والثقافية والنفسية التي شكلت بنيته، والتأويل ضروبا ثلاثة أولها: يهدف إلي إجلاء الغامض من الألفاظ والتراكيب اللغوية وتحديد المعنى المراد وذلك باستخدام المترادفات ووضع الأمثلة التي تبسط المعنى، وثانيها: وضع دلالات جديدة يستنبطها المؤول من فهمه للنص ليتقل بذلك من المعنى الحرفي الظاهر إلي المعنى المجازي، وثالثها : فحص الدلالات النصية الكامنة وراء الألفاظ والتعامل معها على إنها خطابات رمزية تحمل دلالات باطنية أو مستورة أو مطلسمة، وقد انتحل هذا الضرب ثياجينيس في تأويله لنصوص الإلياذة والأوديسة، وانكساجوراس في تفسيره لأشعار هوميروس، وبروديكوس السفسطائي في تأويله صفات الآلهة التي جاءت في الإلياذة، وأفلاطون في الأساطير التي نسجها للتعبير عن نظرية المثل وعلى رأسها أسطورة الكهف والجيل الذهبي والخلق. أضف إلي ذلك الموروث الشعبي الذي وظفه الكهنة في مصر وبابل وآشور والهند وفارس في صياغة التعاليم الدينية. وقد استخدم المؤولون اللاهوتيون في اليهودية والمسيحية هذا الضرب أيضا خلال ترجمتهم لأسفار العهد القديم التي حملت نصوصها ثقافة العصر الذي كتبت فيه، وقد أجتهد المترجمون في نقل هذه الدلالات إلي الثقافة اليونانية المختلفة بطبيعة الحال في لغتها وثقافتها عن الآرامية والعبرية التي حملت النص المنقول، وقد تطور هذا الضرب من التأويل في مدرستي أنطاكية والإسكندرية فاكتفت الأولى في تعاملها مع النصوص اللاهوتية والفلسفية بالضربين الأول والثاني، بينما اتخذ فيلون السكندري من الضرب الثالث سبيلا للتوفيق بين المعنى والرمز من جهة، والفلسفة واللاهوت من جهة أخرى . وقد سار على دربه المؤولون المسيحيون السكندريون الذين حاولوا ربط الدلالات اللاهوتية في العهد القديم بالعقيدة الكروستولوجية التي شغلت العهد الجديد؛ ذلك فضلا عن توفيقهم بين الأنساق الفلسفية المطروحة وبين عقيدة التثليث وجوهر الأقانيم الثلاثة. وقد حاكوه أيضا في تأويله الرمزي للأعداد فقد اجتهد فيلون في شرح الدلالات الرمزية الكامنة وراء العدد ستة واجتهد اللاهوتيون المسيحيون في تأويل رقم ثلاثة واعتبروه أكمل الأعداد.

اليهودي أو المسيحي في مدرسة الإسكندرية، ويبدو ذلك بوضوح في كتابات أمونيوس ساكاس وأفلوطين واكليمندس السكندري وأوريجانوس.

فيمكننا التماس الإرهاصات الأولى للتوفيق والتأويل في الترجمة السبعينية Septuaginta التي قام بها أحبار اليهود نحو عام ٢٥٠ق.م لنقل الدلالات اللاهوتية اليهودية العبرية التي حوتها الأسفار العشرة الأولى من العهد القديم إلى الثقافة اليونانية. ويميز أستاذنا الدكتور مصطفى النشار بين التأويل الروحي الصوفي الديني الذي كان يقوم به أحبار اليهود في دروسهم وبين التأويل التوفيقي الفلسفي الذي أرسى قواعده أريستوبولس السكندري نحو ١٥٠ق.م و (فيلون نحو ٢٠ق.م - ٥٠م). وقد اجتهد الأول في تأويل الآيات التوراتية التي يحمل ظاهرها صفات التجسيم والتشبيه للإله وإحالتها إلى دلالات مجازية تعبر عن وحدانية الإله وتنزيهه وتفرده بصفاته المجردة وتأليفه بين وصايا موسى الشرعية وتعاليم الفلاسفة الأخلاقية، وقد تأثر بهذا الضرب من التأويل جل الغنوسيين اليهود والمسيحيين، أما اللاهوتيون المسيحيون المحافظون من أمثال أغناطيوس الأنطاكي وأثناسيوس السكندري فقد رغب عن هذا المنحى لأنه يتعارض تماما مع عقيدة الكريستولوجي التي تهدف إلي إثبات ناسوتية المسيح وألوهيته في سياق واحد.

أما فيلون فكان يسعى في تأويلاته للنصوص المقدسة إلي إثبات وحدة الحقيقة على الرغم من تباين تجلّياتها وتعدد سياقاتها، فليس هناك خلاف عنده بين تصورات الفلاسفة العقلية للإله أو المثل الأخلاقية وبين اللاهوت اليهودي والتعاليم الشرعية، فالفلاسفة عرفوا الله عن طريق العقل بينما عرفه علماء اللاهوت عن طريق الوحي، ومواطن الخلاف بين الفريقين في العرض وليس في الجوهر. وقد حاول اللاهوتيون المسيحيون الاستفادة من هذا المنحى في محاولة ربطهم بين صفات "المسيا" وتجلّيات الرب في العهد

القديم وشخصية يسوع وكذا في الربط بين الأقانيم الثلاثة وصياغتها في قانون الإيمان الذي يجعل من الآب والابن والروح القدس تجلّيات لحقيقة واحدة وهي جوهر الإله وذاته.

وينزع معظم مؤرخي اللاهوت المسيحي إلى أن فيلون السكندري، هو أول من عمد إلى تفسير أسفار العهد القديم تفسيرا رمزيا يتناسب مع الروح الأفلاطونية التى تشبع بها، فكان ينظر للنص على اعتباره كائن حي يمثل اللفظ جسده ويمثل المعنى روحه وعلى الفيلسوف أن يتحاور مع هذه الروح لتفصح عن الدلالات الكامنة في الألفاظ الغامضة، وقد أرسى بذلك أولى قواعد التوفيق بين المنقول والمعقول أو الدين والفلسفة، وتشير العديد من الكتابات إلى أثر ربطه بين الدلالة اللاهوتية ل "الكلمة": وبين الدلالة الفلسفية ل " اللوجوس" على الفكر العقدي المسيحي ولا سيما رسائل بولس وإنجيل يوحنا، غير أن مفهوم فيلون للوجوس كان متميزا عن المفهوم الهيليني والمفهوم اليهودي النصي التقليدي والغنوسي أيضا، إذ كان يرى أن اللوجوس أو الكلمة يحتل درجة وسطى بين الله أو الألوهية وبين المخلوق، فاللوجوس عنده ليس أزليا كالله، كما انه ليس فانيا كالمخلوقات، لأنه مولود لله، أو هو ابن الله، وتبعا لهذا سيكون له بدء، ولكن هذا البدء يجب ألا يفهم بالمعنى الزمني، وإنما من حيث مرتبة الوجود، أي أن اللوجوس صادر عن الله، وقد أثر هذا التصور الفيلوني في جل اللاحقين عليه من المفكرين المسيحيين الذين ناقشوا قضية الكريستولوجي من منظور فلسفي، وعلى رأسهم أكليمندس السكندري وأوريجانوس.

ذلك فضلا عن تصوره "للخلاص" - الذي جعل فيه المعرفة الفلسفية والتأمل السبيل للاتصال المباشر بالله، بجانب الرياضات الروحية الخيرة - الذي أثر في كتابات علماء اللاهوت والفلاسفة الذين جعلوا الرهبانية

والبتولية البوابة التى ينفذ منها المؤمن إلى الاتحاد بالمسيح حيث تحقق الخلاص الأبدي مثل القديس (بنديكتس نحو ٤٨٠ - ٥٤٧م) والقديس (أنسلم ١٠٣٣-١١٠٩م.) وذلك في عدة مؤلفات أهمها "المجاز في النواميس المقدسة" و"أسئلة وأجوبة عن سفري التكوين والخروج" و"الأمور التي يتوق إليها العقل الراجح ويمقتها" و"بلبلة الألسنة " و"الهروب والاستقصاء" و"الاجتماع من أجل التعليم" و"من هو وارث الإلهيات؟" و"تقسيم الأشياء إلى متساوية وغير متساوية" و"الفضائل الثلاثة التي وصفها موسى مع غيرها" و"الذين تغيرت أسماؤهم ولماذا تغيرت" وكتابين: عن "العهود" و"التغرب" وكتاب عن "حياة العاقل التي تكمل في البر" وكتاب "الجبابرة" أو "عدم تغير الله" ثم كتاب "الافتراض بأن الأحلام مرسلة من قبل الله كعزم موسى" و"خيمة الاجتماع" و"الوصايا العشر" والكتب الأربعة عن "النواميس التي تشير بصفة خاصة إلى الأقسام الرئيسية في الوصايا العشر" و"الحيوانات المخصصة للذبائح" و"أنواع الذبائح" و"الجزاء الذي حدده الناموس للصالحين والقصاصات واللعنات التي حددها للأشرار" و"العناية الإلهية" و"اليهود" و"الرجل الإداري المحنك" و"الاسكندر" أو"وجود عقل للحيوانات غير العاقلة" و (الافتراض بأن كل شرير عبد) وقد ألحق به كتاب عن (الافتراض بأن كل صالح حر) وكتاب عن (الحياة المتبصرة) أو (المتضرعون) و (تفسير الأسماء العبرية في الناموس والأنبياء) و (الفضائل).

وتشير بعض الدراسات المعاصرة إلى وجود أثر مباشر للنهج الفيلوني - في تخليص نصوص العهد القديم من القصص الخرافي والميثولوجيات، والمسحة العنصرية التى تهدف إلى الهيمنة السياسية، وإلباس اليهودية ثوبا أخلاقيا عالميا، وجعل الدلالات الرمزية القاعدة الرئيسة لفلسفة اللاهوت - على كتابات اللاهوتيين المسيحيين الأوائل مثل القديس بولس ولوقا

والقديس يوستينوس والقديس إيرينايوس. والمثبت أن جل شراح الكتاب المقدس من الآباء الأوائل على اختلاف نوازعهم قد تأثروا بمنهج فيلون وبلغته المجازية وتأويلاته التي غلبت عليها المسحة الفلسفية، فقد أخذوا عنه وصفه للإله بأنه الآب "أبو العالم وملكه" ومصدر كل كمال ومنبع الفضيلة والعلم والجمال والحب، غير أنهم رفضوا ما جاء في فلسفته عن استحالة اتصال الإله الواحد بالمادة "ناسوتية الإله" لأنه يهدم عقيدتهم الكريستولوجية، ووجدوا في حديثه عن اللوجوس الذي يعنى العلم الإلهي وكلمته ضالتهم إذ جعلوا من هذا اللوجوس هو الابن والكلمة التى صارت جسدا في شخص يسوع، ووصفوه بنفس الصفات الفيلونية (الإنسان الإلهي أو آدم السماوي، أو مخلص البشرية، أو صورة الله...) ولا سيما في كتابات ترتليانوس القرطاجي الكريستولوجية تلك التى جعل فيها يسوع هو الجوهر الإلهي أو ابن الرب عوضا عن الدلالة الفيلونية التى كان الجوهر فيها يدل على الملاك الحامل لكلمة الله أو ابنه البكري على سبيل المجاز الذي ساعده في خلق العالم باعتباره وسيطا (*) بين الله والمادة.

* تختلف دلالة الابن عند فيلون عن الدلالة المسيحية ولا سيما عند اللاهوتيين المحافظين. فالابن عند فيلون هو الجوهر أو الفكرة الأولى التي ولدها العقل الإلهي وهو أعلى درجات الوسطاء بين الإله السامي المجرد الأزلي وبين العالم المادي المحسوس وترتيبهم على هذا النحو: اللوجوس أي كلمة الله وابنه، ثم الحكمة الإلهية، ثم الإنسان الإلهي أو آدم أبو البشر، ثم الملائكة ثم الروح الإلهي، ثم القوى الإلهية أي الجن، وقد تأثر بهذه النظرية الغنوسيون المسيحيون الذين رفضوا ناسوتية المسيح وكذا الذين فصلوا بين جوهر الإله الآب وبين شخص يسوع ورفضوا المساواة بين جوهرهما في الوجود والعلم والقدرة. ولا تخلو كتابات فيلون عن اللوجوس من الخلط، ويتضح ذلك في وصفه اللوجوس بأنه إله ثان والكلمة والنور وهو الوسيط بين الله والبشر وتوحي عبارات فيلون بتعدد الآلهة، غير انه يعود ويؤكد على إن الله واحد أزلي متفرد، أما الإله الكلمة الابن الذي انبثق عنه لا يساويه لأنه حادث بالنسبة لوجود الله على الرغم من صفتي الخلود والمجد اللتين وهبهما الله الآب له. وقد استخدم فيلون أيضا كلمة "الآب" في سياقات متعددة لا تخلو من الخلط أيضا ففي حديثه عن العناية الإلهية يردها إلي الآب، وعند حديثه عن خلق العالم وسائر الموجودات يرد ذلك إلي الآب وفي حديثه عن النظام الكوني يرد هذا النظام إلي الآب، وفي حديثه عن الإله الأزلي الواحد المجرد يصفه بالآب الذي يجب على سائر البشر عبادته، ويضيف فيلون في كتابه: "عن العناية" أنه عمد إلي استخدام
=

وقد طوّر (أمونيوس ساكاس السكندري نحو١٧٥-٢٤٢م) الأفلاطونية وألف نسقا جديدا مع تلاميذه أفلوطين و (لونجينوس نحو ٢١٣-٢٧٣م) وأوريجانوس مفعم بالثقافة الهيلينستية - الميثولوجيات، اللاهوت، التنسك الفيثاغوري البوذي - الذي عرف بعد ذلك بالأفلاطونية المحدثة.

والذي يعنينا من تعاليم أمونيوس أمرين، أولهما آراءه في الألوهية التى أثرت تأثيرا مباشرا في التأويلات الفلسفية للعقيدة الكريستولوجية وثانيهما نزعته التوفيقية التي فتحت الباب أمام المؤولين المسيحيين والفلاسفة المدرسيين الأوائل الذين حاولوا إيجاد صيغ مقبولة للتأليف بين الإيمان والعقل، وعلى رأسهم القديس أوغسطينوس.

فقد ذهب أمونيوس ساكاس بتأثير من حكايات الفيلسوف الأثيني الخيروني بلوتارخ Plutarqus نحو ٤٦-١٢٠م وألبينوس الازميري Albinus

---

=

كلمتي آب وابن على سبيل المجاز باعتبار أن الآب هو الرب الراعي للأسرة الكونية وأن البشر هم أعز أبنائه. وقد تأثر إنجيل يوحنا بجل هذه السياقات بل في الخلط أيضا بين مصطلحي الآب والابن، بالإضافة لورود كلمة اله. أما الروح القدس فهي عند فيلون تعني الوحي الذي يهبط على الأنبياء والإلهام الذي يشحذ قرائح العلماء والأدباء والفلاسفة، وقد تأثر القديس بولس بهاتين الدلالتين للروح القدس والأكثر من ذلك أنهساير فيلون في اعتبار الروح القدس بيت الإله، وذلك في رسالتيه إلي كورنثوس. وعلى الرغم من هذه الأوجه من التشابه بين ثالوث فيلون والأقانيم الثلاثة المسيحية إلا أنه هناك فارق عظيم بينهما آلا وهو أن الله عند فيلون واحد لا يتشخص ولا يتجزأ وليس له أقانيم أو تجلّيات حلولية أو اتحادات ناسوتية، وأن صفات الآب والابن والروح القدس ما هي إلا صياغات مجازية ليست حقيقية، أما عند اللاهوتيين المسيحيين المحافظين فيوجد ثلاث أقانيم حقيقية تمثل أبعاد ثلاثة للإله الخالق الأزلي وكلا منها يساوي الأخر دون أدنى فرق بينهم. ويؤول فيلون الحمل بلا دنس Immaculate Conception أو الميلاد العذروي لبعض النساء اللواتي وصفهن العهد القديم بان الله لقحهن وفتح ارحامهن من أمثال لينة زوجة يعقوب، بأنه رمزا للبركة وبشارة لمقدم أحد الأطهار الذين تبناهم الله برعايته، وهذه الدلالة تختلف عن ما جاء في الميثولوجيات الهندوسية والمصرية واليونانية، فقد حملت مايا من الإله وأنجبت بوذا، وحملت أحمس من آمون فأنجبت حتشبسوت، وحملت الكمينا من زيوس فأنجبت هرقل. ويبدو أن هذا السياق الأسطوري قد اختلط بالفكر اللاهوتي اليهودي في العصر الهيللنستي ولا سيما تبني أباطرة الرومان لهذه الفكرة ونصبّوا أنفسهم آلهة للمدن. أ ما عند اللاهوتيين المسيحيين المحافظين فيسوع هو ابن الله على الحقيقية وليس بالمجاز وان مريم حملت به بواسطة نور الآب الذي دخل رحمها دون فض بكارتها وكذا خروج المسيح عند الولادة.

أو الكينوس نحو ١٠٠م إلى وجود إله متعال خالد مجرد ومنزه عن المادة، وقد انبثقت عنه النفس الكلية أو العقل الأعلى الذي قام بخلق العالم والكائنات الروحية التي تتوسط بين الإله وبين سائر الموجودات والبشر، وقد انقسمت هذه الكائنات الروحية إلى قسمين أرواح نورانية خيرة وأخري نارية شريرة - ملائكة وشياطين -، وقد اختلطت الأيونات الخيرة والشريرة فكونت النفس البشرية التي سقطت على الأرض ثم أسفت القوى العاقلة الطاهرة منها على ذلك المصير فاشتاقت إلى الاتحاد بمصدرها الإلهي وطلبت الخلاص من النفس الكلية أو اللوجوس، وقد أضاف ساكاس على هذه النظرية المتواترة في كتابات الهرامسة والغنوسيين نظريته في العناية الإلهية والتقمص، ولا غرو في أن هذه التعاليم قد أثرت في فلسفة اكليمندس السكندري وترتليانوس وأوريجينوس ذلك فضلا عن منهجه في التوفيق أو التأليف بين الأنساق الفلسفية المتباينة التي تعتمد في المقام الأول على تغيير دلالات الألفاظ والمصطلحات وتطويعها جميعا لخدمة النسق الجديد المراد إبرازه، وتعبر تأويلات أوريجانوس للمزامير وإصحاحات إنجيل متى واجتهاده في ربط المسيا اليهودية بشخص المسيح عن استيعابه لهذا المنهج التوفيقي.

وسوف نحاول في السطور التالية الوقوف بشيء من التفصيل على أهم الاتجاهات التأويلية التى تمثل فلسفة اللاهوت(*) في القرون الخمسة الأولى

(*) من العسير الفصل في القرون الخمسة الأولى لظهور المسيحية بين ثلاثة مصطلحات -علم اللاهوت واللاهوت الفلسفي وفلسفة اللاهوت- التي أنتجتها الثقافة السائدة في هذه الحقبة تلك التي كانت شاغلة بالمناظرات والمصاولات والمجامع الكنسية بين اللاهوتيين والفلاسفة واليهود والمراطقة حول أصول العقيدة الكروستولوجية والقضايا الإيمانية، والمجامع الكنسية التي حاولت وضع شروطا للإيمان والدفاع عنها والرد على الخصوم. وقد اجتهد الباحثون المعاصرون في وضع معان اصطلاحية مستنبطة من الدلالات الإجرائية لهذه المصطلحات الثلاثة .

فعام اللاهوت Theology منحوت من الكلمتين اليونانيتين Theos وتعني الإله و Logos وتعني المنطق أو العلم هو المبحث الذي وضعه اللاهوتيون للتعبير عن مضمون الكتاب المقدس لتوضيح الأصول الإيمانية =

=

المستنبطة منه والدروس المستفادة من تعاليمه الشرعية والكشف عن العلاقة التي تربط بين الله من جهة والعالم المادي والموجودات التي يحويها وعلى رأسها الإنسان من جهة أخرى وذلك عن طريق الخطاب الوعظي التقريري الذي يسلم بداية بوجود خالق للكون على أنها حقيقة بديهية وأن الناموس الذي يحويه الكتاب المقدس هو وحي من الله يشتمل على علمه وحكمته الأزلية ومن ثم يجب قبوله دون أدنى شك في صحته "تكلم يا رب لأن عبدك سامع" (صموئيل ١-٩:٣) . ويبحث علم اللاهوت في حقائق الكتاب المقدس وتعاليمه لتنظيمها وتحديد أصولها وفروعها وقواعد تطبيقها وذلك عن طريق تفسير الوحي وترتيب الحقائق الإيمانية والدفاع عن الأصول العقدية والرد على الخصوم والكشف عن المراحل التي مرت بها التعاليم اللاهوتية لتوضيح التطورات التي طرأت عليها وتبريرها. وعليه فعلم اللاهوت هو النظر في المسلمات الإيمانية لتفسيرها وتبريرها والدفاع عنها وذلك بمبحثين أولهما علم اللاهوت الوضعي Subjective Theology ويختص بنقد المسلمات والنظر في الأصول والمعارف اللاهوتية وذلك لترتيب الأصول العقدية المستمدة من الكتاب المقدس والنقل المأثور والقواعد الكنسية ورؤى الآباء ويستعين في ذلك بعلمي التفسير الدلالي للغة النص والمنهج التاريخي للكشف عن البعد الزمني للمنقول. وثانيهما: علم اللاهوت النظري وهو مكمل للمبحث الأول ويبدو ذلك في استناده على الأصول المستنبطة من عملية النقد والفحص التي أجريت على المنقول ليقيم عليها مفهوم الألوهية وصفات الله والفضائل الأخلاقية الكامنة في الشريعة وتوضيح العلاقة بين الله والإنسان (القدر والإرادة الإنسانية) وحقيقة الخلاص والأفخارستية والقيامة والتثليث ثم تفسير وتبرير قواعد الإيمان والأسس العملية التطبيقية للشريعة وأداء الطقوس. وقد تفرعت مباحث علم اللاهوت في العصر الوسيط فظهر علم اللاهوت العملي ويختص بالعادات والتقاليد والقيم الأخلاقية والروحية المستنبطة من أقوال الرسل والآباء وعلم لاهوت الرعاية الذي يختص بالكهنوت ودرجاته ووظائفه وأداء الطقوس ومشروعات الكنيسة وعلم اللاهوت المقارن ويختص بتوضيح الفارق بين أصول الإيمان المسيحي وغيره من الأديان والملل والنحل ويضع كذلك قواعد الجدل مع الخصوم ووسائل التبشير. وقد استحدثت مباحث عقدية لعلم اللاهوت منذ عصر الإصلاح نذكر منها لاهوت الصليب Theology of the Cross وقد وضعه مارتن لوثر للتأكيد على أن المصدر الأول للإيمان والعمل والخلاص هو الكتاب المقدس والاقتداء بتضحية المسيح بنفسه على الصليب من أجل خلاص البشرية. ولاهوت التاريخ Historical Theology وقد ظهر هذا المصطلح ضمن مباحث فلسفة الدين في القرن الثامن عشر ويتناول تاريخ شعب الله في الكتاب المقدس وتاريخ الكنيسة ومراحل تطور النص المقدس وما يحويه من أسس تشريعية ومبادئ إيمانية. ولاهوت التفسيري Explanatory Theology وقد تطور هذا المبحث في ضوء المدارس النقدية المعاصرة التي تناولت النص الكتابي من حيث بنيته اللغوية والدلالات الثقافية التي يحويها وذلك لتأويله وإعادة قراءته في ضوء الواقع الحضاري المعيش.

وعلى النقيد من هذه الأسس يمكننا أن نطلق مصطلح اللاهوت الفلسفي Phiolosophical Theology على الكتابات التي صادرت المعتقد الإيماني لصالح نظرية فلسفية أو تصور عقلي ما ويمثل هذا المنحى من يطلق عليهم الهراطقة الذين اتخذوا من الفلسفة المسلمات العقلية البديهية التي يفسر بها الوحي، والمعيار الذي ينقد بها مضمونه ومن ثم ينظر رجالات اللاهوت الفلسفي إلى الأقوال المقدسة على اعتبارها خطابات قابلة للفحص والتحليل والتقويم والاستبعاد والتعديل تبعا للتصور العقلي والنسق الفلسفي الذي انطلقت منه

=

من ميلاد المسيح، وسوف نشير إلى مصادر الأفكار التى انتحلوها من الأنساق الفلسفية السابقة عليهم لتأكيد ما قدمناه.

- إغناطيوس الأنطاكي AGNATEUS (نحو ٣٥ - ١٠٧م)

لقب أسقف أنطاكية إغناطيوس بـ "ثيوفوروس" أي "حامل الإله"، ويرجع ذلك إلى جهوده في الدفاع عن المسيحية وتأسيسه لعلم اللاهوت وترجع أهميته في هذا السياق إلى تلك الرسائل السبع الكنسية التي حاول فيها وضع أول تصور للعلاقة بين الآب والابن من جهة، والإله والمسيح من جهة أخرى، فقد جعل كلمة الآب التي ذكرت في العهد الجديد تساوي الله،

=

معتقداتهم وخير من ينطبق عليه ذلك المصطلح في القرون الخمسة الأولى الغنوسين والأنتحاليين والمونوفيزيين والأريوسيين والنساطرة وكذا الذين شككوا في سلامة الأقوال الرسولية والموؤلين للأسرار اللاهوتية والمخالفين لقرارات المجامع الكنسية. وقد تطور هذا المصطلح في الفكر المسيحي المعاصر وأضحى له مباحث عديدة أهمها لاهوت الثورة ويهدف إلى مصادرة الأصول المسيحية لصالح الأيدلوجيات السياسية وعلى رأسها الماركسية والأشتراكية وقد ظهر هذا المصطلح على يد الألماني جورجين مولتان والقسيس كامليو توريس. ولاهوت الأمل الذي وظف اتباعه من السانسيمونيين المعاصرين الأخلاق المسيحية للترويج لدعوتهم (العدالة -الإخاء -المساواة) ولاهوت الحضارة الذي وضعه بول تيليتش ودعا من خلاله إلى ضرورة انفتاح الكنيسة على ثقافة العالم وتطويع أصولها العقدية لتواكب مع التطور الإجاعي والتقدم الحضاري والمتغيرات السياسية وأجاد سبيل للحوار المتواصل بين الإنسان والله.

أما مصطلح فلسفة اللاهوت Philosophy of Theology فيعني الحكمة الحدسية التي تستمد معارفها من فهمها الإلهامي للوحي وتستدل من ذلك الفهم على الحجة العقلية التي تفسره وتبرره وهي تجمع في ذلك بين العرفان الصوفي من جهة والرؤيا الميتافيزيقية لما وراء المحسوس من جهة ثانية وقواعد علم اللاهوت التي تستند إلى الإيمان والتسليم بصحة المنقول من جهة ثالثة. وقد نشأت فلسفة اللاهوت في الفكر المسيحي عقب ظهور الهرطقات أو اللاهوت الفلسفي ويبدو ذلك في مدرستي أنطاكيا والأسكندرية حيث محاولة رجالاتها مصادرة النظريات الفلسفية لصالح الأصول العقدية اللاهوتية عن طريق التأويل الرمزي تارة والحجج المدافعة عن الوحي تارة أخرى ثم تبلورت بنية فلسفة اللاهوت على يد كل من القديس أوغسطينيوس وأنسليماس وتوماس الأكويني الذين اجتهدوا في توضيح البعد النسقي الذي تنتظم فيه قضايا الفكر المسيحي وذلك بالمقدمة الأولى "أومن كي أعقل" التي حاول خلالها أوغسطنيوس التوفيق بين المعقول والمنقول ثم صادر أنسلم المعقول لصالح المنقول ثم انتهي توما الأكويني إلى توضيح الصلة بين المعقول والمنقول للتاكيد على أن الأول المتمثل في الحكمة الفلسفية ما هو إلا درجة أو صورة من المعقول الكلي الذي يمثله العلم الإلهي أو اللاهوت.

وربط كلمة الابن بالمسيح المتجسد في صورة بشرية والروح القدس الذي قام من بين الأموات؛ فلا فرق عنده بين (الله السرمدي الكامل، والكلمة، واللوجوس، والابن المتجسد، والروح القدس.)، وهو أول من استخدم صيغة (حلول اللوجوس، أي الكلمة الإلهية في الساركس أي جسد يسوع) لتبرير ألوهية المسيح وبشريته معاً. ويبدو بوضوح تأثر تعليمه بالأصول العقدية التى وضعها القديس بولس في رسائله، فقد حرص الأسقف الأنطاكي على التمسك بحرفية لغة الإيمان بأن المسيح هو ابن الرب على الحقيقة وليس المجاز وهو الجسد الذي اتحد بجوهر الآب وهو الإله الذي حلّ في جسد الابن، أي استحالت الكلمة السرمدية إلى جسد.

ولا ريب في أن جل الاتجاهات اللاهوتية التى حاولت التوفيق بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخص المسيح اتخذت من رسائل أغناطيوس عن الاتحاد والحلول سندا لها، ومن أشهر أقواله التى تعبر عن هذا السياق: "إن الجسد الذي ولد من مريم العذراء يربط يسوع بالبشرية، ولكن الكلمة الذي صار جسدا أي اللوجوس، هو من الله، بل الله نفسه، وهو الذي يربط المسيح بالله"، " أن قصد الله الأساسي هو خلاص البشر، ولذلك فقد أرسل أولا أنبياءه إلى اليهود، ثم أرسل ابنه المسيح الذي تحقق على يديه الخلاص الأبدي "، وقد سار على نهجه الكريستولوجي كل من القديس (بوليكاربوس٦٩-١٥٦م) ويبدو ذلك في رسائله التى جاء فيها: "من لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء في الجسد فهو ضد المسيح، ومن لا يعترف بالصليب فهو من الشيطان، وكل من يحول أقوال الرب إلى رغباته الشخصية، وكل من ينكر القيامة والدينونة فهو بكر إبليس ".

والقديس (يوستينوس نحو١٠٠-١٦٠م) الذي حاول مقابلة القصص التوراتي بالتعاليم الكريستولوجية فعقد مقارنة بين قصة حواء وقصة مريم

وإله اليهود والمسيح، وتبدو أهمية تعاليمه في تأكيده على أن اللوجوس أو الكلمة قد انبثق عن الله لكي يكون وسيطا بين اللاهوت والناسوت غير أن هذا الانبثاق لم يتم دفعة واحدة بل سبقتها عدة تجلّيات فقد تجلّى اللوجوس أو العلم الإلهي في النفس البشرية وفي أنبياء اليهود وفلاسفة اليونان ثم اكتمل في شخص المسيح الذي يمثل الإنسان المتأله والإله المتأنس ومن أقواله في ذلك: " أن كل المبادئ الحسنة والقوانين العادلة التى علم بها وسنها الفلاسفة، كان اللوجوس هو مصدرها والمرشد إليها، غير أن معرفة الفلاسفة كانت ناقصة، الأمر الذي دفع الإله أن يكملها على لسان ابنه الذي ظهر في صورة يسوع البشرية". ويمكننا أن نلاحظ تأثر يوستينوس بفكرة وحدة الحقيقة - التى أشار لها هراقليطس وأفلاطون وجل الرواقيين - التي وظفها لمصادرة كل الفكر الإنساني لصالح الحقيقة الإلهية، وقد طور القديس أكليمندس السكندري وأوغسطينيوس هذه الفكرة في محاورة كل منهما التى حملت أسم "المعلم"، وقد أخذ اللاهوتيون على القديس يوستينوس تأثره بالفلسفة والفكر الغنوسي في معالجته لقضية الكريستولوجي، ويبدو ذلك في إعلائه من شأن الآب ووضعه الابن في مرتبة أقل ثم الروح القدس، ولم يساوي بذلك بين الأقانيم الثلاثة.

والقديس (إيرينايوس نحو ١٤٠-٢٠٠م) الذي سلك مسك معلمه القديس (بوليكاربوس ٧٠-١٦٦م) في قوله: "إن لم يكن المسيح إنسانا حقا وإلها حقا لأصبح خلاصنا مستحيلا".." صار الله إنسانا لكي يعين الإنسان ليصبح إلها"، وتبدو أهمية كتابات إيرينايوس الكريستولوجية في تلك المقابلة التى عقدها بين شخصية آدم التى وردت في العهد القديم وشخصية المسيح، وبيّن أن الأول لم يكن على صورة الله بل كان على هيئته مجازيا، أما المسيح فهو الله نفسه الذي حلّ في صورة بشرية لإصلاح ما فسد على يد آدم الأول

وتخليص بني البشر من اثم الخطية الأولى التي ورثها آدم لبنيه.

ويمكننا أن نلاحظ على هذا الاتجاه أنه ارتكن على التفسير اللغوي الظاهري وليس التأويل الرمزي، الأمر الذي يميز مدرسة أنطاكية عن مدرسة الإسكندرية - كما بيّنا سلفا.

- أكليمندوس السكندري (نحو ١٥٠ - ٢١٥م)

لقد أشرنا خلال حديثنا عن أثر التيار الفلسفي في العقيدة المسيحية عن جهود أكليمندوس السكندري رئيس مدرسة الإسكندرية منذ عام ١٩٠م خلفا (لبانتيوس ١٧٩ - ٢١٦م)، وهو من أوائل فلاسفتها المؤولين الذين اعتنقوا المسيحية، وحاولوا صياغة اللاهوت المسيحي في نسق فلسفي ينطلق من قاعدة "أومن كي أعقل"، ورد كل القيم الروحية والفلسفية إلى المسيحية التي تعد في رأيه تتويجاً لكل الاجتهادات العقلية السابقة عليها ومن أقواله التي توضح تأثره بفيلون في هذا السياق: "إذا كان موسى قد هيأ طريق المسيح أمام العبرانيين، فإن الفلسفة هيأت المسيحية أمام الوثنيين"، "إن الفلسفة لا يمكنها إلا أن تعد الطريق أمام الإيمان"، "إن اللوجوس هو المعلم الروحي الذي تستمد منه كل الحقائق"، "إن الإيمان الحقيقي هو ثمرة انسجام اللاهوت والفلسفة"، " أن الفلسفة كانت ضرورية لليونان لأنهم لم يعرفوا الرب، ولم يرشدهم أحد إليه وهي الآن مهمة لنا نحن الذين عرفنا الله واتصلنا به وخلصنا من آثامنا لكي ندافع بها عن أعداء المسيح، ونقهر بها ضلالات الهراطقة ونفهم بها المعاني المستترة وراء كلمات الرب"... "أن للرب كلاما مباشرا يفقهه المؤمنون بسهولة ويسر ويتمثل في نصوص العهدين القديم والجديد التي تحمل الأوامر والنواهي، وهناك كلام غير مباشر يخاطب به الرب العقول التي لا تقنع إلا بالاستدلال وتمثله الفلسفة،

وعلى ذلك فالفلسفة أيضا هي كلام الله، ومن ثم لا ينبغي علينا إهمالها أو معاداتها". وأن الصراع القائم بين الكنيسة والفلسفة صراع مفتعل يرجع إلى خوف الطفل من القناع، وتكشف هذه الأقوال عن ريادة أكليمندوس السكندري في وضعه المعايير الفلسفية للخطاب اللاهوتي تلك التي تبدو في تمييزه بين الخطاب الوعظي الموجه للعامة والخطاب الرمزي العقلاني الموجه للخاصة، وقد تأثر في هذا المنحي بالفيثاغورية الجديدة وفيلون السكندري فقد انتهج نهج الأخير في التأويل الرمزي لنصوص الكتاب المقدس الذي يسعى إلى إجلاء المعاني وتوضيح الدلالات وبين أن ذلك لن يتأتى لأحد إلا بقوة الإيمان وكثرة التأمل مع الاستعانة بالمعارف العقلية التي تساعد الذهن على استقبال الإلهامات الإلهية. ويحذّر أكليمندوس من الخلط بين البعدين أو الخطابين وذلك لان الرب ستر بعض المعاني وأخفى دلالاتها ليخص بها العارفين والمخلصين في حبه أما العوام فلم يستطيعوا إدراك هذه المعاني بأنفسهم أو بمساعدة غيرهم لان أذهانهم لم تتأهل بعد ولم ترق أرواحهم إلى درجة الاتصال ويقول في ذلك : "حجبت أسرار النبوات المقدسة وراء أمثال لكي تحفظ للمصطافين الذين يختارون المعرفة خلال إيمانهم، فالرمزية تحفظ الحق من لغو الجهلاء فهي كاللؤلؤة اثمن من أن تقدم للخنازير" ..." أن كلمات الرب لا يتوقف إلهامها للعارفين لتعينهم على توليد المعاني وإنجاب الأفكار مثل مريم العذراء التي ظلت بكرا بعد ولادتها للمسيح فالنور لا ينقص بسطوعه وباهتداء الناس به"... "أن ناسوتية الله يجب ألا نفسرها تفسيرا ماديا وذلك لأنه منزه عن أي وصف وأسمى من أي تصور فكلمات الإنجيل تخفي وراءها الحقيقة التي يجهلها الذين يقرءون بأعينهم". وذهب أكليمندوس إلى أن للأعداد أسرار كونية ودلالات عرفانية من يسعى لإدراكها يتحقق خلاصه. وقد تأثر أوغسطينوس بحديث أكليمندوس عن

المسيح باعتباره الجوهر الملهم للمعارف والمصدر الأوحد لكل الحقائق، ويبدو ذلك بوضوح في كتاباته عن المعلم الأول، ويرد إلى أكليمندوس أيضا الفضل في تحديد دلالة المصطلحات اللاهوتية في اللغة اللاتينية وعلى رأسها مصطلحي - الثالوث Tritheism والأقنوم Hypostasis.

ومن أهم مصنفاته "تحريض الأمم للرجوع عن الوثنية إلى المسيحية"، و"المرشد أو المعلم" ويتضمن تعليم حديثي الإيمان، وإرشادهم إلى حقيقة المسيح، و"المتنوعات" وهي مجموعة دراسات كتابية وفلسفية بيّن فيها توافق الفلسفة والوحي، ودحض فيها تعاليم الغنوسية. وكتاب "الحياكة أو الطرازة" ووازن خلاله بين المسيحية والديانات والفلسفات السابقة عليها وقد فرق أكليمندوس بين الغنوسية الفلسفية وبين عقيدة الكريستولوجي وبيّن أن الجانب الناسوتي من المسيح لا يعد خطيئة أو نقص في جوهره الإلهي، كما أن الزواج لا ينقص من طهارة القديسين وقدرتهم على الاتصال المباشر بالروح القدس واستقاء المعارف منه فالسبيل للخلاص عنده هو التزود بالمعارف الفلسفية وتذوق الفضائل المسيحية والالتزام بها، فالبصيرة الحاقة توهب لصاحب القلب النقي الطاهر ولاؤلئك المتعمقين في الإيمان الذين يسيرون مع الله سير الطفل إلى جوار أبيه والذين ترتفع دوافعهم إلى عمل الخيرات وأتيان الصالحات فوق الخوف من العقاب أو الطمع في الثواب، لاؤلئك الذين يحبون الله من أجل الله، لأنه أهل لذاك. وذلك الضرب هو السمو الإيماني الذي ندركه عن طريق العرفان الذي يطمح إلى التجلي المبهج في ما وراء هذه الحياة، وذلك عندما يصبح المريد وحيدا مع الله فيدرك أن النفس الإنسانية هي مرآة لله بما اختصها من عقل وإرادة، وأن الله هو الموجود الكامل لأن الكمال لا يكون إلا في واحد يسمو عن أي صفات يمكن أن يخلعها عليه البشر.

ولا ريب في أن هذه العقيدة الإيمانية نجد لها أصولا فلسفية عند أفلاطون وفيلون، فالإله عندهما هو الواحد والخير والبسيط والموجود بذاته والمتفرد في صفاته، ويمكننا أن نلاحظ من عبارات اكليمندوس التى أوردناها آنفا تلك المسحة الصوفية التى سوف تتبلور في فلسفة القديس أنسلم وتوما الأكويني. أما كتابه "مسودة" فقد تناول فيه تفسير الكتاب المقدس برؤية عقلية فلسفية وقد فّقد. غير أن آراءه الكريستولوجية لم تخل من المسحة الفلسفية التي لم ترض المحافظين؛ فقد ذهب إلى أن اللوجوس كان منذ الأزل مع الآب وكانت له تجلّيات في أزمنة مختلفة عمد فيها إلى إلهام الشعراء والفلاسفة والعلماء وأوحى فيها إلى الأنبياء بشريعة الآب، وهو الذي خلق العالم ثم تجسد في صورة المسيح الذي ولد من رحم مريم، وهو أيضاً الروح القدس والكلمة وصورة الآب على الأرض وهو المخلص والمشرع: " صار كلمة الله (اللوجوس) إنسانا ليعلم الإنسان كيف يصير إلها". ويأخذ بعض المحافظين على تعاليمه مبالغته في وصف لاهوتية المسيح، وحطه من شأن ناسوتيته، وذلك بأثر من الغنوسية والرواقية؛ فقد نزع الأسقف المتفلسف إلى أن ناسوتية المسيح ليست بشرية بل هي صورة الإله فحسب وهي مختلفة بطبيعة الحال عن مادية البشر، ومن ثم فالمسيح لم يكن محتاجاً إلى غذاء أو شراب، كما أنه لم يشعر بالألم أو الحزن شأن بقية البشر، فطبيعته الإلهية تسمو به عن ذلك كله، وأن اللوجوس الإلهي العاقل - وليس الجسد المادي الترابي - هو الذي كان يقود تلك الصورة البشرية ليسوع بإرادة حكيمة. غير أن المطلعين على كل كتابات أكليمندوس يؤكدون على أنه لم يكن منكراً لناسوتية المسيح، بل إن حديثه عن يسوع يكشف عن توحيده بين الطبيعة الناسوتية والإلهية في صورة يسوع الذي ولد وصلب ثم قام. بيد أنه أعطي اللوجوس الجانب الأكبر من كتاباته للتأليف بين وجود المسيح كحقيقة أزلية

وبين تجلّياته في العهد القديم ثم ظهوره في العهد الجديد، ويبدو تأثر أكليمندوس بالأفلاطونية المحدثة في حديثه عن الكمال الإلهي الذي لم ينقص بخروج اللوجوس أو المسيح منه وذلك لأنه فاض عنه كفيضان الضوء من النار أو النور من الشمس، ووصفه هذه الحركة بالأزلية الأمر الذي اتفق مع ما جاء في إنجيل يوحنا "في البدء كان الكلمة"، ويبدو الأثر الغنوسي عند أكليمندوس في وصفه عملية التجسد بأنها لم تكن حقيقية أي أن اللوجوس لم يتحول إلى دم ولحم غير أن هذا الأثر كان يطل من بين ثنايا نظريته الكريستولوجية وقد تعمد إخفائه حتى لا يتهم بالهرطقة وكان من حين إلى آخر يشير إلى وحدة الطبيعتين الناسوتية واللاهوتية في شخص يسوع المسيح، غير أن تعاليمه لم تخل تماما من المسحة الفلسفية الغنوسية التي جعلت التعقل والعلم والحب خطوات لطريق الخلاص وسبيلا للاتحاد بالله وبلوغ السعادة الأبدية، وقد أثرت هذه الآراء - كما أشرنا - في التيار الصوفي المسيحي خلال العصر الوسيط.

وحسبنا نشير في عجالة إلى نظريته في طبيعة العلاقة بين المشيئة الالهية والإرادة الإنسانية تلك التي تأثر بها اللاحقين عليه من أمثال اوريجينوس وأوغسطينيوس. وخلاصة ما ذهب إليه هو الاعتراف بحرية الإرادة الإنسانية في اختيار الأفعال مع تسليمه باللطف الإلهي أو النعمة التي يمنحها الله للمخلصين في عبادته والطائعين له تلك التي تستحيل حريتهم البشرية إلى انصياع تام للقضاء الإلهي والقدر المحتوم أي أن حريتهم انطلقت إلى آفاق أعلى فاختارت الخير الذي يوجههم إليه العلم الإلهي. ومن أقواله في ذلك " أن للإنسان حرية في الاختيار بين طريقين أولهما السير وفقا لرغباته وقناعاته الشخصية استنادا على خبراته ومعارفه العقلية ويجتهد في تخليص ذاته بإرادته الخيرة، أما الطريق الثاني فهو الاجتهاد في قبول النعمة والسير طواعية وفق

المشيئة الإلهية وأولئك هم الأحرار حقا والله يعطى الذين يريدونه الذين يجتهدون بكل قوتهم ويلتمسون معونته حتى يصبح هكذا الخلاص عملا خاصا بهم لان الله لا يرغم أحدا على عدم فعل الشر ولكنه يرغب المؤمنين به في فعل الخير، ويمهد السبيل للذين يبحثون عنه، يمنح الذين يطلبونه، يفتح للذين يقرعون بابه، إذا إن كنت تريده حقا، وكنت لا تخدع نفسك، فاجتهد أن تحصل على ما ينقصك."

- ترتليانوس القارطجني TERTULIANUS نحو ١٥٥ - ٢٣٠م

لم يكن ترتليانوس من أساقفة الكنيسة المؤولين ولا من الفلاسفة اللاهوتيين بل كان من عوام المسيحيين الذين آمنوا بعقيدة المخلّص وقد سائه بشاعة اضطهاد الرومان لمعتنقي المسيحية ظنا منهم بأن هذه الديانة الجديدة تهدد أمن الإمبراطورية وتهدم السياج الديني الذي يحمي مدنها ويغرس الانتماء في قلوب مواطنيها، فعكف على قراءة إصحاحات الكتاب المقدس وأقوال المبشرين، وذلك لإيجاد صيغة أو نسق عقدي يحدد العلاقة بين هذا الدين الجديد والدولة، وقد مكنته من ذلك دراسته للقانون الروماني، فذهب في كتابيه: "للأمم AUX NATIONS" و"دفاع APOLOGIE" خلال دفاعه عن المسيحية إلى أن الاتهامات الموجهة للمسيحيين وليدة الجهل بحقيقة عقيدتهم، فقد أمرهم المسيح بحب أعدائهم فكيف يتصور الحكام الرومان بأنهم أعداء لهم فتعاليم المسيح تنهى عن البغض والكراهية وتدعو للسلام والوئام بين كل البشر، ومسالمة المسيئين لهم والعزوف عن كل متع الحياة لان المدينة التي وعدوا بها هي مدينة الله السماوية التي يحكمها العدل وتسودها المحبة أما ما لقيصر فهو لقيصر وما لله فهو لله، وقد وضع ترتليانوس بهذه الآراء الأسس العقدية التي انطلقت منها كتابات اللاهوتيين السياسية ولا

سيما أمبروسيوس وأوغسطينوس ثم توما الأكويني (١٢٢٤ - ١٢٧٤م) ومارسيل دي بادو.... كما أشرنا من قبل. أما كتاباته اللاهوتية فقد اتسمت بالطابع المحافظ ويبدو ذلك في فصله التام بين العقل والنقل ورفضه تماما الاستعانة بالكتابات الفلسفية في تفسير النصوص المقدسة (أومن كي أعقل) فلا جدوى من دراسة أفلاطون وأرسطو لان آراءهما لا يمكن خلطها بتعاليم المسيح، ومن أقواله الواضحة في ذلك: "أيوجد اتفاق بين الفيلسوف والمسيحي؟ بين تلميذ اليونان وبين تلميذ السماء؟ بين الإنسان الذي يبحث عن الشهوة وبين الذي يريد أن يصل إلى الحياة الأبدية؟ بين الذي يتكلم والذي يعمل؟ بين الذي يهدم والذي يبني...بين الذي يفسد الحق والذي يعلمه؟". وقد حرص ترتليانوس على شرح عقيدته الكريستولوجية في عدة مؤلفات أهمها: "ضد اليهود CONTRE" و"ضد الماركيونية ADVERSUS MARCIONEM"، ضد الانتحاليين modalisme الذي عارض فيه تعاليم باركسياس - الذي كان يرى أن الآب والابن والروح القدس ليسوا ثالوثا بل هم الإله الواحد الذي تجلّى في العهد القديم في أشكال متعددة ثم تجلى في صورة الابن أي أن الله الواحد قد انتحل شخصيات عدة على مر الزمان وذلك لتخليص العقيدة المسيحية من تعدد الآلهة والوقوع في أحبال الكثرة الوثنية - أما ترتليانوس فقد آمن بوجود جوهر واحد له أبعاد ثلاثة الآب والابن والروح القدس وهو الإله، وقد وضع مصطلح PERSONA ليعبر به عن الأقنوم وهو أول من استعمل اصطلاح الثالوث في الكتابات اللاتينية. ومع رفض ترتليانوس للسياقات الفلسفية المطروحة في عصره تلك التي تحدثت عن الجوهر لم يستطع العزوف عنها بل تأثر بها ولا سيما فلسفة فيلون، ويبدو ذلك في حديثه عن علاقة الآب بالابن إذ ذهب إلي أن الله الواحد حوى بداخله جوهر الحكمة والكلمة والعلم وذلك قبل الأزمان أي

أن وجود هذا الجوهر مرتبط بوجود الله، غير أن ذلك الوجود الأزلي كان في درجة الكمون ولم يتحقق وجود الجوهر في العالم إلا بإرادة الله الذي لفظه بقوله كن، ويعتبر هذا الوجود هو الوجود الكامل، ويبدو تأثر ترتليانوس في هذا السياق بحديث أرسطو عن درجة الوجود بالقوة والوجود بالفعل، وقد ترتب على ذلك التصور اعتراف ترتليانوس بأن الابن أو اللوجوس الذي انبثق عن الإله الآب ليس أزليا في ظهوره الكامل أو في وجوده بالفعل لأن الإله الأزلي الواحد كان موجودا بالفعل وجودا كاملا أثناء وجود الجوهر (الابن) وجودا كامنا أو بالقوة، وعليه، لا يمكن التوحيد بين الآب والابن في درجة الوجود) "إن صفة الابن أو مصطلح (ابن) لم يكن منذ الأزل بل كان نتيجة عملية انبثاق الابن من الآب. وبما أن الابن انبثق أو خرج من الآب أي الله فهذا الأخير هو الجوهر الكامل الكلي، وبناء على ذلك فإن الابن هو جزء من هذا الكل"، ويستشهد ترتليانوس المعلم الأفريقي بقول المسيح في إنجيل يوحنا (١٤: ٢٨) "أن أبي أعظم مني" وذلك ليبرر تفرقته بين الآب والابن، فالابن عنده هو تابع للآب تابعية الشعاع للشمس والفرع للجزع والنهر للينبوع والمسيح هو تابع الله وابنه الحامل لجوهره، والروح القدس قد انبثق بدوره عن الابن، ومن ثم لا يمكن تصور وجود صراع بين الأبعاد الثلاثة لجوهر الإله لأنهم يسيرون وفق علم وإرادة وقدرة واحدة وهي ذات الله.

ويضيف لويس جارديه إن أهمية ترتليانوس ترجع إلى محاولاته التوفيق بين وجهات النظر المطروحة حول طبيعة المسيح ويبدو ذلك في قوله "أن المسيح أقنوم واحد في طبيعتين".

أما صورة يسوع التي ظهرت على الأرض فكانت تحمل طبيعتين متحدتين دون امتزاج، الطبيعة اللاهوتية التي تبشر وتصنع المعجزات والطبيعة الناسوتية التي ولدت من مريم ولادة طبيعية تأكل وتشرب وتفرح

وتتألم وتصلب وتموت.

وقد رفض المحافظون تعاليم ترتليانوس الكريستولوجية لقوله بتبعية الابن للآب وعدم مساواته بين درجة وجود الآب ووجود الابن بالإضافة إلى إنكاره عذروية مريم بعد ميلاد المسيح. ويمكننا أن نلاحظ انضواء ترتليانوس في تفسيره للنص التوراتي والإنجيلي لمدرسة أنطاكية الأرسطية التي تمسكت بالمعاني الظاهرة والدلالات اللغوية المباشرة للنص مع محاولة إيجاد صياغة منطقية للسياقات التي تقوم بطرحها.

- هيبوليتوس نحو HIPPOLYTUS (١٧٥ - ٢٣٧م)

يعد هيبوليتوس من أوائل الأساقفة الرومان المؤولين في الغرب وقد جمع في ثقافته بين الفلسفة الهيلينية والهللينستية السكندرية، وتأثر بكتابات ايرينايوس وأوريجانوس وقد انعكس ذلك في آرائه الكريستولوجية، وفي مؤلفاته التي رد فيها على الهرطقات ولاسيما كتابه "رفض كل الهرطقات" وكتاب "ضد المسيح"، ذلك فضلاً عن كتاباته التفسيرية لسفر دانيال، وقد حدد فيه لأول مرة - في الكتابات اللاهوتية - تاريخ ميلاد المسيح بيوم الأربعاء الموافق ٢٥ ديسمبر وتاريخ صلبه بـ ٢٥ أبريل، ورسائله في الوعظ التي انتهج فيها عين المنهج الرمزي الفيلوني في التأويل وكتابه "ضد اليهود" ووضح فيه الفارق الدلالي بين المفهوم اليهودي لأسفار العهد القديم والمفهوم المسيحي لها.

أما عن تعاليمه الكريستولوجية فقد نسب إليه المؤرخون عقيدة التبعية التي تنزع إلى "أن الابن تابع للآب وخاضع له وأنه أقل منه درجة، فالآب أعظم من الابن مع التأكيد على عدم وجود فارق زمني بينهما". وتكشف عبارات هيبوليتوس عن تأثره بالغنوسية والأفلاطونية المحدثة؛ ويتضح ذلك في

تصوره للعلاقة بين الأقانيم الثلاثة، الذي جاء فيه: " إن الإله الواحد المجرد كان موجوداً منذ الأزل، وكان شاغلاً بتأمل ذاته بقوة اللوجوس الراسخة في جوهره، ثم قاده هذا التأمل إلى فكرة خلق العالم بقوة اللوجوس الكامنة فيه، فانبثق العالم فور صدور الكلمة عنه؛ فأصبحت الكلمة بمثابة النور الذي انبثق من الجوهر الإلهي أو ابنه الذي تجلى للرسل والأنبياء في صورة ملاك في العهد القديم، ثم تجسد في صورة بشرية بأمر من الإله فأصبح اللوجوس والكلمة والجسد البشري شيئاً واحداً، ومن ثم، فيسوع الناصري يحوي طبيعتين الأولى إلهية وتتمثل في اللوجوس، والثانية بشرية وتتمثل في الجسد الذي حوى اللوجوس". وقد نسب إليه أيضا القول بتفسير الثالوث على هذا النحو" أن الكلمة كان كامن في عقل الله ثم خرج إلى الوجود في صورة اللوجوس أو المسيح ثم تجسد في هيئة بشرية في شخص يسوع".

ويمكننا أن نلاحظ أن هيبوليتوس لم يستطيع التخلص من الغنوسية على الرغم من إعلانه لرفضه لتعاليمها، ويبدو أن حرصه على نقض القائلين بلاهوتية المسيح فقط أو ناسوتيته فقط هو الذي أوقعه في ذلك الاضطراب خلال تأويليه للنصوص الكروستولوجية. ومن أهم مؤلفاته الرد على أصحاب البدع وتفاسير رمزية للكتاب المقدس (سفر دنيال) وبعض العظات والرسائل الطقسية والعادات والأعياد.

- أوريجانوس ORIGENEUS والمدرسة الأوريجينية (١٨٥ - ٢٥٤م):

هو تلميذ أكليمندوس وخلفه في رئاسة مدرسة الإسكندرية، ويعده المؤرخون من أعظم المفسرين والمؤولين لنصوص الكتاب المقدس، ورائد التفسير الرمزي لنصوص العهد الجديد الذي جمع فيه بين الفلسفة واللاهوت وذلك خلال تدريسه للمنطق والأخلاق والآداب الكلاسيكية اليونانية

وربطها بقواعد الإيمان وتعاليم الرسل وعقيدة الخلاص في صدر المسيحية في مدرسة الإسكندرية، وكذا في دروسه عن الجدل والطبيعة والهندسة والفلك والأخلاق والأدب والشعر واللاهوت ومنهج التأويل الفيلوني في مدرسة قيصرية، وقد تبلور منهجه التوفيقي التأويلي في إنتاجه الغزير في حقل التفسير ومقارنة النصوص في ترجمات الكتاب المقدس، وقد تأثر في ذلك بفيلون السكندري - رائد التأويل الرمزي في مدرسة الإسكندرية.

ومن أقوال أوريجانوس التى تؤكد انتحاله المنهج التأويلي الرمزي: " يؤمن كل من اليهود والمسيحيين بأن الكتاب المقدس قد كتب بواسطة الروح القدس لكننا نختلف في تفسير ما يحويه لأننا في الواقع لا نعيش فى زمن اليهود فأننا نؤمن بأن التفسير الحرفي للتعاليم الدينية لا يحمل معه روح الشريعة"، ومن أقواله عن منهجه في التوفيق بين العقل واللاهوت: "إن ما لا يقبل تدخل العقل من الشريعة فهو مصدق ومسلم به دون جهد أو إرهاق، وإما ما يقبل من الشريعة إعمال العقل فيه لا ينبغي أن نتخلى في فهمه وإدراكه عن استخدام التحليل الذهني لإيجاد الطرق المقبولة لتفسيره وتأويله وهي سنة الرسل الأقدمين وان الإلهام الإلهي هو أوثق السبل للتعرف على دلالات الآيات المقدسة، وهذا لا يتأتى لأحد إلا في العبادة التي تفتح أعين العميان إلى حقيقة المسيح المخلّص"، وقد ساير فيلون أيضا في تأويل الأسماء والأرقام والأحداث والقصص. وقد اشتهر "بسداسيته" وبكتاباته القيمة المدافعة عن الإيمان المسيحي وتفنيد البدع والهرطقات، ذلك فضلاً عن موسوعيته العلمية والفلسفية ويبدو ذلك في دروسه القيمة عن المدارس الفلسفية الهيلينية والطبيعة والفلك والهندسة ويرد إليه أيضا تأسيس أول مدرسة لاهوتية في فلسطين على غرار مدرسة الإسكندرية التى حاول خلالها بناء نسق يجمع بين اللاهوت والفلسفة للرد على الهرطقات من جهة، وتبرير

قواعد الإيمان بألوهية المسيح من جهة أخرى. غير أن تعاليمه لم ترق لبعض المحافظين في مدرسة الإسكندرية اللاهوتية، الأمر الذي انتهي بحرمانه وتبديعه في مجمع الإسكندرية عام ٢٣١م، غير أنه لم يعبأ بذلك التحريم وظل يلقي دروسه في "قيصرية" بفلسطين. وقد بالغ المؤرخون في وصف كتاباته وعددها إذ بلغت عند أحدهم ستة آلاف كتاب وعند آخر ألفين، غير أن القديس جيروم يحصرها في ثمانمائة مصنفا ويؤكد أنه طالعها بنفسه، وتشير الكتابات المعاصرة إلى أن معظم مؤلفاته قد فقدت، ولم يبق منها إلا القليل ومن أهم هذه المصنفات كتاب "الأعمدة الستة" وهو أول مصنف يحوي العهد القديم بترجماتٍ عدة، إذ حرص أوريجانوس على مقارنة النص العبري لأسفار التوراة بالنص اليوناني للترجمات السابقة على الترجمة السبعينية ثم الترجمات اللاحقة عليها. وذلك للتأكد من سلامة دلالات النص المقدس. غير أن هذا المصنف لم يبق منه سوى شذرات متناثرة في كتب اللاهوتيين الذين يعتبرونه الرائد الأول لعلم التأويل اللاهوتي المسيحي. وعلى الرغم من ضياع معظم تفاسيره للكتاب المقدس إلا أن بعضها ما زال موجوداً، نذكر منها بعض تفاسيره لإنجيل متى وإنجيل يوحنا ورسالة القديس بولس إلى أهل رومية، وشرحه لنشيد الإنشاد. ومن أشهر كتاباته في الدفاع عن العقيدة المسيحية كتابه المسمى بـ" المبادئ الأولى"، وكتابه "حوار مع هراقليطوس" حول قضية الكريستولوجي والتثليث، وكتابه الرد على كلسس الأبيقوري الذي وضع فيه المبادئ الأولى للدفاع عن الفكر العقدي المسيحي ضد الهراطقة من جهة والوثنيين من جهة ثانية والساسة الرومانيين من جهة ثالثة وجاء فيه "أن المسيحيين ليسوا أقلية خطرة على الدولة، ولا غير محبين للوطن، ولا مثيري فتن "وان العقيدة المسيحية ليست مقتبسة من القصص الأسطورية ولا الحكايات الخرافية، بل إن التعاليم اللاهوتية التي يؤمن بها المسيحيون

مستلهمة من العقل الفعال الملهم المتمثل في شخص يسوع المسيح الكلمة المتجسدة والنور الفياض الذي انبثقت عنه الحكمة الكلية، كما بين أن حملة بعض رجالات اللاهوت المسيحي على العقائد الوثنية والهرطقات الفلسفية لا ترد إلى تعصبهم أو جهلهم بل ترجع إلى إيمانهم الراسخ بان هذه المعتقدات والأفكار لا تعدوا أن تكون انحرافا عن الحقيقة أو صورا لجموح العقل. وان عقيدة الصلب والفداء والخلاص التي يدين بها المسيحيون ليست كما زعم كلسس الأبيقوري مجرد حكاية خرافية ملفقة حول يهودي صلب في تهمة مشينة، بل إن هذه العقيدة نابعة من فلسفة روحية راقية لا يدركها الماديون والشكاك كما أن صمت يسوع في محاكمته لا يعني إقراره بالتهم الموجهة إليه بل إدراكه أن الشر محدق به ومن ثم يجب الانتصار عليه بتحقيق مشيئة الرب في الفداء ليتم الخلاص كما أن المسيح لم يكن في حاجة للدفاع عن نفسه فأقواله وأفعاله وسلوك تلاميذه خير من يقوم بهذه المهمة وان زعم كلسس بان مريم قد طردها يوسف النجار عقب اكتشافه خيانتها له مع عسكري يدعى بانثيرا الذي حبلت منه، فيرد على هذا بأن هذه القصة مختلقة ولا أساس لها من الصحة بل هي افتراء من بعض اليهود وأكد أن مريم هي العذراء أم الإله وأن حملها معجزة وآية خارقة من آيات الرب واختتم حديثه بمقابلة موجزه بين التعاليم المسيحية والمبادئ الفلسفية قال فيها " تعال الآن أيها السيد الصالح وخذ أشعار لينوس وموسيوس واورفيوس وكتابات فرسيدس، وقارنها بتدقيق بناموس موسى قارن تاريخ بتاريخ، والأبحاث الأدبية بالشرائع والوصايا واحكم لتدرك أي الاثنين اكثر فعالية في تغيير أخلاق السامع حالا، وأيهما يقسي قلبه في شره".

ويكشف دفاع أوريجانوس عن ثقافته الموسوعية المعرفية وقدرته الفائقة على الحوار وتفنيد أراء الخصوم وتفرقته بين مزاعم بعض الفلاسفة الباطلة

وسلامة الحكمة الفلسفية وحرصه على الجمع بين الحجة العقلية والأسانيد النصية في تفسيره للأسفار المقدسة وصياغة براهينه وأدلته. وقد تأثر بهذا المنحة ترتليانوس وأوغسطينيوس في دفاعهما عن المسيحية.

أما عن آرائه الكريستولوجية فهي تنضوي في مجملها إلى الاتجاه المحافظ، ويبدو ذلك في توحيده بين الوجه اللاهوتي والناسوتي في جوهر واحد. غير أنه يفرق بين الله الكامل المطلق السرمدي وبين الجوهر وهو عنده مساوٍ للكلمة التي خلق بها العالم، وسائر الموجودات، وبتأثير من فيلون وأفلوطين ذهب اوريجانوس إلى القول بأن الله قد خلق الأرواح التي تعد الرابطة بين اللوجوس والعالم المحسوس، وزودها بالإرادة الحرة التي تمكنها من المفاضلة بين الخير والشر، ثم خلق العالم المادي لتسكن فيه هذه الأرواح. ويحاول أوريجانوس التوفيق بين أفلاطون وأفلوطين، واللاهوت المسيحي فنزع إلى أن هاتيك الأرواح وذلك العالم المادي، كانوا في خلقتهم الأولى أكثر شفافية ونورانية ونقاءً، غير أن بعضاً من هذه الأرواح تعلق بالمادة المحسوسة، فتحولوا إلى شياطين وسكنوا الجانب المظلم من ذلك العالم، أما البعض الآخر فأبوا إلا أن يجاوروا الجوهر الذي خلقهم أملاً في اتصالهم المباشر بالإله الواحد، وبقدر عشقهم ومحبتهم للنور الإلهي استحالوا إلى ملائكة وصار مسكنهم حول العرش. وعلى الجانب الأخر تشكلت حول الشياطين والملائكة عصبة من الأرواح انطوت على عشق ذاتها فأصابها بعض الشر لانصرافها عن أصلها الروحي، وتعلقها بوجودها المادي، فتشكل منها الجنس البشري الذي سقط إلى الأرض حيث العالم المادي المحسوس. ويجتهد أوريجانوس في تبرير وجود المسيح؛ فينزع إلى أن إحدى الأرواح النورانية الملائكية قد نجحت في الاتحاد باللوجوس، فجعلها الإله حاوية لابنه الذي تجسد في صورة يسوع الذي خرج من رحم مريم. وقد حول الجوهر الذي

هو كلمة الله الجسد البشري الذي حل فيه الابن إلى جسدٍ إلهي؛ فأضحى الابن في روحه وجسده إلهاً واحداً، ومن أقواله في ذلك: "إن روح المسيح، وحتى جسده، تألها باتصالهما بالكلمة (اللوجوس)".

ويبدو من تصور أوريجانوس السابق لألوهية المسيح مدى تأثره بالتيارين السائدين في مدرسة الإسكندرية آنذاك وهما التيار الهرمسي والتيار الغنوسي ولعله أراد بمحاولة توفيقه بين هذين التيارين والتعاليم اللاهوتية الكريستولوجية وضع أسس جديدة للاهوت الفلسفي المسيحي، غير أنه لم يستطع التخلص من الصفات التي وضعها الفلاسفة للإله من حيث الوحدة والأزلية والتجريد، ولم يفلح في الخروج من شرك الثنائية (الخير والشر، النور والظلمة، الملائكة والشياطين) . ونجده قد حاكى الهرامسة والغنوسيين في قصة وجود البشر وخطيئة الروح رغم تأكيده على أن كل ذلك لا يتعارض مع لاهوت المسيح الذي جعل منه الرابطة التي تجمع بين الجوهر (العقل والكلمة والروح الطاهرة والجسد البشري الذي استحال إلى جسدٍ إلهي) .

وقد تأثر كذلك بالرواقية في حديثه عن تتابع العوالم وتولدها من بعضها وذلك خلال حديثه عن الخلاص الذي يمنحه الإله لكل ما في العالم من أرواح، ثم عندما يتم لهم ذلك يولد عالم جديد وخلاص جديد، ذلك فضلا عن تأثره بفيلون في حديثه عن وحدة الحقيقة التى لا يدرك جوهرها إلا المؤمنون والمخلصون في عبادتهم للإله الواحد لذا نجده يرد معظم النظريات الإلهية اليونانية إلى الفكر اليهودي، ويرجع في كتابه: "ضد كلسوس" أن أفلاطون قد أخذ عن أحبار اليهود صفات مثال المثل في فلسفته (الله)، وقد أراد بذلك إخضاع الفلسفة إلى خدمة اللاهوت من جهة، وفتح الباب أمام اللاهوتيين المسيحيين لدراسة الفلسفة باعتبارها امتدادا طبيعيا للاهوت من جهة أخرى.

وقد اختلف الشراح من علماء اللاهوت على تفسير تعاليم اوريجانوس الكريستولوجية؛ فذهب لودز وجيروم إلى أن تعاليمه لا تخلو من التجديف ويبدو ذلك في عدم مساواته الابن بالآب، وجعله الآب في مرتبة إلهية عليا لا تختلف عن طبيعة الله، أما الابن فهو تابع أو إله أصغر لا يمكن مساواته بطبيعة الآب. وكذلك حديثه عن الفداء والخلاص فقد خالف فيه التعاليم اللاهوتية الأرثوذكسية؛ إذ جعل الخلاص مكفولاً لأرواح الشياطين والعصاه أيضاً دون أن يشترط التوبة والعماد والأفخارستيا، لخلاص أرواح البشر وأجسادهم، والحكم على العصاه والشياطين بالشقاء الأبدي.

أما القديس أثناسيوس فقد وجد في فلسفة أوريجانوس منحي قويما للإيمان الأرثوذكسي وقد استعان بأقواله في صياغة قانون الإيمان النيقوي وذهب إلى أن من يشكك في عقيدة أوريجانوس عليه أن يقرأ ما قاله في وصفه للرب الذي جاء فيه "لما كان الله تعالى غير مرئي كانت صورته غير مرئية أيضا. ولان الله لم يره أحد قط فان الابن الذي هو في حضن أبيه هو خبر. وعندما شاء الرب اعلان ذاته للناس رأى أن يقدم لهم هذا الأستعلان في شكل مرئي لكي يدركوه، وهذا يتمثل في تجسد الابن الكلمة فتقدم إلى الناس في صورة مرئية لله غير المرئي. وإني لأجرؤ على القول بأنه ما دام الابن صورة للآب فلم يمر عليه حين من الدهر لم يكن فيه الابن، إذا هو أزلي كالآب تماما. لانه عندما كان الله (الذي يدعوه يوحنا بالنور) موجودا لم يكن من المعقول أنه كان يفتقر إلى بهاء مجده الأمر الذي يمنع تجرؤ أي إنسان أن يقول أن للابن بداية كأنه قد مر عليه حين من الدهر لم يكن فيه؟ ثم متى كان هذا الحين الذي لم توجد فيه صورة الآب غير المدرك غير الموصوف غير المستحيل؟ وكيف يمكن أن لا تكون الصورة وهي الختم والكلمة الذي هو وحده يعرف آب؟ فليعلم كل من يجسر على القول: لقد مر حين من الدهر

لم يكن فيه الابن انه بقوله هذا إنما يقول: مر حين لم تكن فيه الحكمة ولم يكن فيه الكلمة ولم تكن فيه الحياة".

أما غريغوريوس العجائبي فقد دافع عنه من تهمة الهرطقة، وبين أن المسيح هو الآب والابن والروح القدس معاً في تعاليم أوريجانوس، وأن التباين بين مكانة الابن والآب ليس في المرتبة ولا في الزمان ولا في الطبيعة، بل هو تباين مجازي.

وظلت تعاليم أوريجانوس موضع خلاف بين اللاهوتيين حتى القرن السادس الميلادي، وقد حرم مجمع القسطنطينية عام ٥٤٣م كل تعاليمه، ولعن خمسة عشرة مرة واقترنت كل لعنة منها بذكر رأي له.

وإذا كانت تعاليم اوريجانوس الكريستولوجية قد أدرجت ضمن الهرطقات فان كتاباته عن حرية الإرادة الإنسانية جاءت مثار خلاف بين اللاهوتيين الأوائل، إذ ذهب إلى أن الله قد خلق النفس الإنسانية حرة ومنحها نعمة العقل لتوجيه إرادتها لما تشاء وعلى الرغم من التسليم بعلم الله المسبق بمصير الأنفس البشرية فانه لا يجبرها على فعل أو يسيرها لغاية، ذلك على الرغم من عنايته الشاملة بكل الموجودات التى تسعى دائما للخير الذي جبلت عليه، ويفسر أوريجانوس الشر بأنه خير في عيون الجهال والعاجزين عن فهم الخير الأعم والاستمتاع بلذة التعقل عوضا عن الشهوة الحسية. وأن السبيل لخلاص أولئك العاجزين عن إدراك الفضائل السامية بعقولهم هو الإيمان والفناء في حب المسيح والتنازل طوعا عن حريتهم للمشيئة الإلهية.

ويتراءى لي أن حديث اوريجانوس السابق يكشف عن منهج خطابه العقدي الذي ينقسم إلى مستويين، الأول : برهاني عقلي موجه إلي الخاصة، والثاني خطابي وعظي موجه إلى العامة، فهو في الأول فيلسوف مؤول للنص

المقدس محاولا الجمع بين النقل والعقل في سياق واحد، وفى الثاني معلم لاهوتي للأصول الحرفية للإيمان. ولعل السبب الرئيسي في اختلاف علماء اللاهوت حول تعاليمه بين مؤيد ومعارض هو عدم تمكن الفريقين من قراءة خطابه بمستوييه معا.

ولا غرو في أن الفلسفة الأوريجينية قد نجحت في تقديم خطابين متجاورين هما (أعقل كي أومن)، (وأومن كي أعقل) وقد تأثرت جل الاتجاهات الفلسفية واللاهوتية المسيحية اللاحقة عليه بهذين الخطابين في العصر الوسيط بداية من شراح فلسفته وعلى رأسهم جيروم ورفينيوس ومساجلتهما حول تفسير كتاب "المبادئ" الذي حوى تعاليم أوريجانوس اللاهوتية، ومرورا بكتابات القديس أوغسطينيوس حول القدر والحرية الإنسانية وثنائية الخير والشر ونهاية بتوما الأكويني الذي حاول التوفيق بين الفلسفة واللاهوت في جل كتاباته. ويمكننا أن نلاحظ الأثر الأرسطي والأفلاطوني والفيلوني في تعاليم أوريجانوس، بالإضافة لمسايرته لنهج أستاذه أمونيوس ساكاس في عرض الأفكار ومعالجة القضايا، وأكليمندوس السكندري في حديثه عن حرية الإرادة الإنسانية. وإذا ما طرحنا جانبا التهم التي وجهت للفيلسوف السكندري وأدرجته ضمن الملحدين سوف نجد شهادة خصومه قبل تلاميذه تضعه في مكانة عالية تتوج فلسفة اللاهوت المسيحي، فقال عنه جيروم "لم يكن اوريجانوس مجرد كاتب عذب المشرب، أم مجرد مؤلف تفوق على اقرانه، بل كان – بلا جدال – المعلم الأول لجميع الكنائس بعد الرسل ولا ريب في أن آراءه إنما تعبر عن الأرثوذكسية التي لم يشوبها ضلال أما الذين ألهب الحسد قلوبهم فاتهموه بالابتداع فانهم كلاب تكالبوا عليه". ووصفه ديديموس الضرير السكندري بأنه المعلم الثاني للكنيسة بعد الرسل وأنه أعظم المؤولين والمفسرين للتعاليم المقدسة. أما

ثيوفيلوس Theophilus أسقف الإسكندرية ٣٩٩xم فقد قال بالهام من كتابات أوريجانوس التي هاجمها سلفا اتقاء لغضبة الكنيسة "أن الله كما قال أوريجانوس روح لا يدركه الفهم وليس مجرد إنسان عظيم الشأن"، "أن الله، والله وحده، يجب تنزيهه عن المادة...وأن الله ليس كمثله شيء ولا يطرأ عليه اي تغيير أو تحويل، وهو وحده دون غيره سرمدي" وذلك في كتابه "ضد المجسدين Cantra Anthropomorphitos" الذي كتبه قبيل وفاته. وعلى مقربة من آراء أوريجانوس نجد أوسابيوس Eusebius الانطاكي يجعل الفلسفة مدخلا للإيمان - كما أشرنا سلفا - وحاول التوفيق بين المفهوم الفلسفي للوجوس والمفهوم العقدي للكلمة وذهب إلي أن فلسفة أفلاطون الإلهية تتفق في عديد من الأوجه مع اللاهوت اليهودي حيث الوحدانية وخلود الروح ومع اللاهوت المسيحي أيضا ولاسيما في حديثه عن ضرورة تطهير النفس من دنس الشهوة المادية ليتحقق خلاصها. غير انه يؤكد أن أفلاطون لا يعدوا أن يكون نبيا أو مرشدا صالحا استطاع بحكمته الوقوف على بعض الحقائق الالهية ولكن المؤمن المسيحي هو الذي ظفر بالحقيقة الكاملة وذلك عن طريق الاتصال المباشر بالمعلم الأول أو المخلص ابن الرب الوحيد يسوع المسيح، وقد تأثر بهذه النظرة التوفيقية كل من غرغوريوس العجائبي الذي قال في أوريجانوس" ولقد خيل لي أن جمرة نار قد وقعت على نفسي فأشعلتها وألهبتها بالمحبة الجياشة للكتب المقدسة ولهذا الرجل المفسر لها. ولقد اتقدت هذه الجمرة إلى شعلة في داخلي حتى لقد أنستني كل ما كان يهمني في ما مضى فلم اعد اعبا بدراساتي السابقة ولا بالقانون الذي كنت شغوفا به بل لقد نسيت بلادي وأقاربي والسبب الذي لأجله جئت إلى قيسارية والغرض من أسفاري".

وقد أجمعت جل الدراسات المعاصرة التي تناولت فلسفة أوريجانوس

على أن آراءه الكريستولوجية وتأويلاته الرمزية ومحاولاته التوفيق بين الفلسفة واللاهوت وتحليلاته لقضية الخير والشر قد أثرت تأثيرا مباشرا في كتابات كل من: باسيليوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م) وغريغوريوس النازيانزي (٣٣٠-٣٩٠م) وغريغوريوس النيصي (٣٣٥-٣٩٥م) وأوغسطينيوس وديونسيوس الأريوباجي وبونافينتورا (١٢٢١-١٢٧٤م) وتوما الاكويني ودونس سكوت. الذين لم يحاولوا تبرير الحقائق الكريستولوجية تبريرا عقليا واكتفوا بالتأكيد على أن الفلسفة قادرة على توضيح الصلة بين الله والعالم والبرهنة على وجود علة سرمدية عاقلة أوجدت هذا الكون، وأن جميع الفلاسفة عاجزون عن البرهنة على الحقيقة الكريستولوجية أو اصطناع نسق عقلي يفسر عقيدة التثليث ومن ثم يجب الفصل بين قضايا الفلسفة وقضايا اللاهوت في الفكر المسيحي، وقد تأثروا في ذلك بأقوال أوريجانوس التي جاء فيها "إن العقل يقدر أن يصل انطلاقا من الخليقة إلى الإدراك أن الله موجود ولكن دون أن يدرك حقيقة ذات الله ويبدو ذلك في الصفات السلبية التي يلحقها بتصوره للجوهر الإلهي مثل غير جسد ولا نهائي ولا محدود" "أن الفلسفة استطاعت أن تبرهن على خلود النفس وتميزها عن البدن ولكنها لم تفلح في التعرف على عالم الملائكة وحلول اللاهوت في الناسوت وتجسد الكلمة" وأننا يجب أن نحتكم إلي الوحي عند تعارض التصورات العقلية والحقائق الإيمانية وذلك لان الوحي له منطق عقلي أعم وأشمل من كل التصورات العقلية الجزئية فعندما نقول (أؤمن لكي اعقل) فإننا نقرر بضرورة تسليمنا بالعقل المطلق لكي نصل إلى العقل المحدود أي هي حركة من العقل الفعال إلى العقل المنفعل، " إن الإنسان الكامل لا يمكن تصور وجوده الا في العالم السماوي ومن ثم يجب على الإنسان الأرضي أن يتأمل ذاته ليدرك المعوقات التي تحول بينه وبين بلوغ هذه المكانة وأن الإيمان بالمخلص والعمل من اجل التطهر هما البوابة الحقيقية

المؤدية لهذه الغاية.¨ وقد تأثر بهذه الآراء القديس بونافنتورا ولا سيما بحديث غريغوريوس النيصي عن نهج أوريجانوس في الانطلاق الروحي صوب الحقيقة الالهية - تلك الرحلة التي تبدأ بالتطهر ثم الاستنارة العرفانية ثم الاتصال المباشر بملكوت المسيح - ونهجه في تأويل مزامير داود تأويلا رمزياً باطنيا يتوائم مع منهجه الحدسي في العرفان الإلهي .

وتنزع الباحثة إيريس حبيب المصري إلى أن المنحي الصوفي الأوريجيني قد تبلور في كتابات ديونسيوس الأريوباجي الذي جمع بين قيمة الخير والجمال والحب في شخص المسيح الذي يحل في أرواح القديسيين وذلك عندما يصل العاشق الأرضي إلى درجة مثلى من التطهر والعرفان النوراني الذي يؤهله للإتصال بذات الرب. وعلى الرغم من تأثر كتابات ديونسيوس بالأفلاطونية المحدثة الا أننا نجده يفصل تماما بين الحقائق اليونانية وفلسفة اللاهوت ومن ثم يسلم بكل ما جاء في الكتب المقدسة حيال شخصية المسيح وطبيعته وصفاته والنظريات المكملة للعقيدة الكريستولجية مثل الخلاص والإفخارستيا والقيامة والعودة ويضع كل ذلك في دائرة الإيمان.

أما دائرة الفلسفة فيضع فيها ما يمكن تفسيره والدفاع عنه من الحقائق الإيمانية ويبدو ذلك بوضوح في انتحاله المنحي الأفلاطوني في رده كل أشكال الجمال والخير والصلاح والنظام إلى مثل أعلى يمثله شخص يسوع المسيح الأمر الذي يجعل من الله المصدر الأوحد للنور الكلي الذي تصدر عنه كل الفضائل والحقائق بواسطة الخلق المباشر وليس عن طريق الفيض مثل أفلوطين. كما نزع ديونسيوس بأثر من أوريجانوس إلى أن وسيلة الاتصال بتلك الفضائل الكلية النورانية والحقائق المجردة هي الحب، فالعشق الإلهي يؤهل الإنسان لحلول الواحد أي المسيح المخلص بداخله فيصير ابنا لله. ويبدو أن مسحة ديونسيوس الصوفية قد دفعته إلى القول بوحدة الوجود

الرواقية ويتضح ذلك في قوله" إن الله هو البداية والنهاية في كل الموجودات، البداية من حيث علتها، والنهاية من حيث هو غايتها القصوى" "إن حب الله لخلائقه هو أساس حب الخلائق له به تشتاق إلى العودة إلى الله الذي نبعت منه وفاضت عنه وسكنت فيه" ويرى ديونسيوس أن وجود الشر يرد إلى نقصان الخير أو الانحراف عنه فالخير هو الأصل وهو الوجود الحقيقي فهو نابع من ذات الله أما الشر فوجوده غير حقيقي وانه يمثل الجانب المظلم الجاهل من الوجود المادي الذي ضل سبيله إلى النور الإلهي، وإذا كان الشيطان هو رأس كل الشرور فانه من الخطأ الاعتقاد بان شره اصل فيه بل هو عرض على طبيعته وذلك لان الشيطان من خلق الله والله لم يخلق شرا ولكن جهل الشيطان ونقصان الجانب النوراني فيه هو الذي ألحق الشر به وقد حاول ديونسيوس بذلك نقض الثنائية الغنوسية.

وقد أثرت هذه الرؤية الصوفية في العديد من فلاسفة اللاهوت الأوائل والعصر الوسيط من أمثال:

يوحنا سكوت إريجينا (نحو٨٣٠ - ٨٧٨م) الذي قام بصياغة الطبيعة الكريستولجية صياغة مفعمة بالروح الأفلاطونية الرواقية الديونسيوسية إذ ذهب إلى أن قسم الطبيعة إلى أربع طبائع هي:" الله أولا، وهو الطبيعة غير المخلوقة الخالقة، أو مبدأ الأشياء، والابن ثانيا، وهو الطبيعة المخلوقة الخالقة، أو كلمة الله المتضمنة لمثل الأشياء، أو عللها الأولى، أو العالم كما يتصوره الله، والروح القدس ثالثا وهو الطبيعة المخلوقة غير الخالقة أو العالم متحققا خارج الله، والله رابعا وهو الطبيعة غير المخلوقة غير الخالقة أو الله من حيث هو غاية ترجع إليه كل الموجودات".

وكذلك نجد اثر هذه المدرسة في حديث أنسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩م) عن الصفات الالهية الجامعة لكل المثل الكلية التي لا يمكن تصور وجودها إلا في

ذات الله ذلك فضلا عن قوله بفطرية وجود الواحد في داخل الإنسان باعتباره الحقيقة الأزلية التي لا يمكن تصور اعظم منها ومحاولة توفيقه بين الايمان والعقل وذلك بمقولته الإيمان المتعقل أو التعقل المؤمن وتوجيه الفلسفة وجهة نقدية ودحض حجج الخصوم وتفسير ما يقبل التأويل العقلي من الأصول العقدية وربطه بين حرية الإرادة والانصياع إلى الجبلة الأخلاقية وفطرية الإنسان الفاضلة التي تمثل نعمة الله على البشر من جهة والعلم الإلهي الذي يحوي قدره ومشيئته التي خلقت الإنسان بإرادة حرة لتحقق الغاية التي أدركها بعلمه الأزلى (فالله يعلم نتائج الأفعال الإنسانية ولكنه لا يقدرها على الإنسان بمشيئته) من جهة أخرى وقد انتحى المنحى الأوريجيني أيضا في حديثه عن التثليث والخلاص وتجسد الكلمة وحلول اللاهوت في الناسوت.

وإذا ما انتقلنا إلى ألبرت الكبير (١٢٠٦ - ١٢٨٠م) لتتبع الأثر الأوريجيني سوف نجد أنه ساير ديونيسيوس في الفصل بين دائرة اللاهوت ودائرة الفلسفة في القضايا الإيمانية مع الاستعانة بآراء الفلاسفة لتفسير وتبرير بعض المسائل الكريستولجية فكان يعتقد بان السبيل للتأليف بين النقل والعقل هو جعل الأخير في خدمة الأول.

أما توما الاكويني فقد قام بشرح كتاب الأسماء اللاهية لديونيسيوس وتأثر تأثرا كبيرا بنظريته في الحب الإلهي والخلاص عن طريق العشق والشوق للسعادة الأبدية والاتحاد بالكمال المطلق والخير الكلي والجمال الأعم والنظام الأعظم وأخذ عن أوريجانوس علاقة التجاور بين اللاهوت والفلسفة التي تمنع الخلط بينهما (أعقل كي أومن، وأومن كي أعقل) .

ولم نقصد من العرض السابق لبعض ملامح فلسفة ديونيسيوس إلا للتأكيد على أنه كان حلقة الوصل التي حملت آراء أوريجانوس إلى فلاسفة العصر الوسيط.

ولا غرو في أن مدرسة أوريجانوس تعد القاعدة الأساسية التي شيدت عليها العديد من الأنساق سواء في فلسفة اللاهوت أو التفسير والتأويل الرمزي للكتب المقدسة أو في المباحث الأخلاقية والكريستولوجية التي تبلورت في العصر الوسيط. وإذا كنا نعتبر أوغسطينوس هو حجر الزاوية الذي ربط بين اللاهوت والفلسفة فإننا يجب أن نسلم بان أوريجانوس هو العقل الفعال الملهم لكل التيارات الفلسفية المسيحية اللاحقة عليه. وحسبنا أن نستشهد في هذا السياق برأي إيريس حبيب المصري عن فلسفة أوريجانوس ووصفها إياه بأنه "أول من وضع الأسس التي قام عليها تفسير الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد وأول من عنى بكشف غوامض الأسرار المسيحية وأول من مهد الطريق أمام كل من يريد أن يسمو إلى إدراك العزة الإلهية. وان شخصية بلغت هذا التفوق لابد أن تستثير المحبة والكراهية معا - فليس بغريب أن تثار حولها المناقشات العنيفة. ولقد تألب الحسد والسياسة والسذاجة جميعا على أوريجانوس وتآمروا على مناوأته. لهذا نجد بين آلاف المعجبين به من شذ على هذا الإعجاب فحاول الحط من مكانته بتشويه مؤلفاته". فمعظم الكتابات التي أدانت تعاليمه كانت تفتقر إلى الدقة العلمية تارة وتغلب الخصومات الشخصية تارة ثانية والخوف من السلطة السائدة تارة ثالثة شأن أبيفانيوس أسقف سلامين بقبرص الذي اعتمد في نقوضه لكتابات أوريجانوس على أراء الخصوم دون أدنى تمحيص لفكر من يطعن فيه. وثيوفيلس تلميذ أوريجانوس الذي تنكر إلى فلسفة أستاذه عقب الحملة التي شنت على الأوريجينية، ذلك فضلا عن المثاقفات التي دارت بين اللاهوتيين المتفلسفين في أخريات القرن الرابع حول القضايا الكريستولوجية فحشرت الفلسفة الاوريجينية في آتون الخصومة والصراع ويتجلى ذلك بوضوح في كتابات يوحنا ذهبي الفم نحو (٣٥٤ - ٤٠٧م) الذي انتحى

المنحي الأوريجيني في كتاباته اللاهوتية والأخلاقية والرهبنة فاتهمه خصومه بالتجديف عام ٤٠٤ م بإيعاذ من الساسة ونساء البلاط الإمبراطوري ونكاية من ثيوفيلس البابا السكندري الثالث والعشرون.

وتختم الباحثة إيريس حبيب المصري حديثها عن فلسفة أوريجانوس بقولها "أن من يمعن التأمل في حياة أوريجانوس يجد أنها تتلخص في انه رأى نور المسيح مواجهه فعكس هذا النور الإلهي الخاطف على اخوته في البشرية واندفع ببريق هذا النور نحو بلوغ الكمال المسيحي".

- لوقيانوس الأنطاكي Lucianus نحو ٣١٢م

هو رأس مدرسة أنطاكية اللاهوتية ورائد الاتجاه اللغوي الدلالي فيها، فقد عمد إلى تفسير العهد القديم بعد تحقيقه وتنقيح نصوص أسفاره التي كانت تدرس في أنطاكية والقسطنطينية، واضحت المتن الذي اعتمد عليه المترجمون بعد ذلك للكتاب المقدس، وقد أجمع المؤرخون على انه عمدة المعلمين اللاهوتيين الأوائل بهذه المدرسة، بيد أن الاتجاه المسيحي المحافظ يشكك في عقيدته، لان مدرسته هي التي لفظت العقيدة الآريوسية، ثم أصبحت معقلا لأنصارها بعد مجمع نيقية الذي قضى بتحريمها واعتبرها من البدع والهرطقات - كما بينا سلفا -، وقد وصفه الأسقف أثناسيوس بأنه الآريوسي الأول قبل آريوس نفسه، كما يرد المؤرخ ماجولياس علة ذيوع أراء بولس السميساطى الكريستولوجية إلى تعاليم لوقيانوس بوصفه تلميذا مخلصا له ويضيف أن كتابات نسطوريوس وأوتيخوس على تباينها لا تخلو أيضا من أثر لتعاليم لوقيانوس. ويصفه يوسابيوس بأنه كان واحدا من اعظم اللاهوتيين وأكثرهم دراية بعلوم عصره. ويقول نفيل دوانى أن لوقيانوس قام بتحقيق وتنقيح نصي التوراة في اللغتين العبرية واليونانية - و ذلك أثناء

مراجعته للترجمة السبعينية - وأعاد صياغة أسفارهما صياغة دقيقة الأمر الذي جعل من نسخته المنقحة المصدر الرئيس الذي اعتمدت عليه كل الترجمات الحديثة لأسفار العهد القديم .

أما تعاليمه الكريستولوجية فتتمثل في إيمانه بوجود الله الواحد الأزلي المجرد الذي لا مثيل له ولا شبيه وهو خالق كل الموجودات بما في ذلك الكلمة والحكمة العقلية والجوهر الأول الذي تجسد في صورة المسيح ومن ثم فيسوع الذي ولد ولادة بشرية من مريم وتعمد ثم صلب كان إنسانا مخلوقا وعليه يكون جوهره غير مساوي لجوهر الله فالابن لا يساوى الآب في الوجود العلم والقدرة فيسوع هو ابن الله بالتبني أو على سبيل المجاز تقديرا لإخلاصه في تبليغ الرسالة وتبشيره بملكوت الرب فالمجد الذي ناله يسوع هو هبة ونعمة من الله الواحد.

وتبدو أهمية لوقيانوس في إرثائه قواعد التحقيق العلمي للنصوص المقدسة فلم يركن في فهمه لنصوص العهد القديم وأسفار العهد الجديد إلى التفسير الحرفي بل إلى التفسير الدلالي المجازي الذي يستند إلى تحليل بنية النص في ضوء الثقافة التي لفظته والمعاني الاصطلاحية والإجرائية للتراكيب اللغوية التي صيغ بها النص الأمر الذي جعله يقوم بتنقيح الترجمة السبعينية -كما أشرنا - وذلك بعد مقابلة المعاني الدلالية الإجرائية المستخدمة في اللغة العبرية واللغة اليونانية المعجمية الاصطلاحية وكذا اللهجات الشائعة في مصر وقيصرية في الفترة التي تمت خلالها عملية الترجمة وانتهي من هاتيك المقابلات إلى أن ألفاظ أب وأبن والروح القدس كانت تستخدم في الكتابات اللاهوتية بدلالات مجازية فالأب هو الإله والأبن هو الرسول والمبارك والروح القدس هو الوحي وأغلب الظن أن كتاباته التفسيرية وشروحه التي أوضح فيها هذا المنحى قد فقدت ولا سيما بعد حرمانه قبيل وفاته وإدراج

اسمه ضمن قائمة المبتدعين والجدفين فقد نعت بأنه الشارح الأعظم لهرطقة بولس السميساطي والأب الأكبر للبدع الأريوسية والنسطورية. وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد العديد من الكتابات المعاصرة تشيد بعلم لوقيانوس وسعة ثقافته الفلسفية واللغوية والتاريخية وتؤكد أثره البالغ على ديودوريوس الطرسوسي ويوحنا فم الذهب وثيودوريوس الموبسيوستي. وقد تناولنا ذلك بشيء من التفصيل في الفصل الأول من هذه الدراسة عند حديثنا عن مدرسة أنطاكيا.

- **أوريليوس أوغسطينوس** Aurelius Augustinus (٣٥٤ - ٤٣٠م)

يؤكد أميل برهييه أن أوغسطينيوس هو أول من عمد أفلاطون وألبسه الصليب أي حشره في زمرة القديسين المبشرين بمقدم المسيح وذلك بانتحاله فلسفته وتوظيفها لتفسير وتبرير النسق اللاهوتي المسيحي ولا سيما في كتاباته الأولى، فعلى الرغم من إشارات أوغسطينوس العديدة لأوجه الإختلاف بين التعاليم الأفلوطينية حيال قضية الثالوث والتعاليم الإيمانية المسيحية إلا انه يعود ويؤكد على أن فلسفة أفلاطون وأفلوطين هي اقرب الفلسفات إلى الروح المسيحي ومن ثم يجب الاستعانة بها لتبرير الإيمان الكنسي تبريرا عقليا.

ويضيف أميل برهييه أن أوغسطينوس كان حذرا إلى حد كبير في محاولة ربطه بين اللاهوت والفلسفة وقد تأثر في ذلك بسابقه أمبروسيوس وبتجربة ترتليانوس الذي حاول انتحال الفكر الرواقي وتوظيفه في النسق اللاهوتي المسيحي.

ولا غرو في أن أوغسطينوس يعد بلا منازع حجر الزاوية الذي ربط بين الفلسفة الأفلاطونية واللاهوت المسيحي من جهة وفلسفة اللاهوت

والمعرفة الإشراقية والحياة الرهبانية من جهة أخرى، وترجع أهميته لأثره البالغ على معظم فلاسفة العصر الوسيط بداية من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر. أضف إلى ذلك أن أثره لم يقف عند الحقل الفلسفي بل تغلغل أيضا في كتابات اللاهوتيين والرهبان والقائمين على أداء الطقوس الكنسية، الأمر الذي يجعلنا نصفه بأنه القديس الفيلسوف والفيلسوف القديس. وقد نجح أوغسطينوس أيضا في وضع الخطوط العريضة للنسق الفلسفي المسيحي الذي يتمثل في ضرورة تطويع النظريات الفلسفية لخدمة العقيدة الكريستولجية وتأويل النصوص المقدسة بالقدر الذي يجعلها مقبولة عقليا مع جعل الإيمان هو المصدر الأول للحقائق والمدخل الرئيس للتعقل والأصل العقدي الثابت الذي يجب الانطلاق منه لمناهضة الهرطقات والكتابات الجانحة (أؤمن كي اعقل) .

وقد بلغت مؤلفات القديس أوغسطينوس المائتي كتاب وأهمها:

كتاب الاعترافات الذي يحتوي على خطراته ونظراته وتأملاته في قضايا اللاهوت والفلسفة وذلك بأسلوب أدبي رفيع يجمع بين قالب السيرة الذاتية وحديث الذات والبوح بمكوناتها وأسرارها دون تحفظ.

الرد على الأكاديميين ورسالة في خلود النفس وشرح سفر التكوين ومحاورة المعلم والثالوث - وهو يحوي تعاليمه الكريستولجية - ومدينة الله وفي الحياة الطوباوية ومحاوراته في الحياة السعيدة ومناجاة النفس والنظام.

وإذا ما أردنا التعرف على نهج أوغسطينوس في التوفيق بين اللاهوت والفلسفة سوف نجده قد تأثر بمعظم رواد فلسفة اللاهوت السابقين عليه ويبدو ذلك في انتخابه مقدماته التوفيقية من النصوص المقدسة فقد استلهم قول أشعيا (٧:٩) (لو لم تؤمنوا لم تفهموا) ليضع قاعدة (أومن كي اعقل) فالإيمان عنده هو القارب الذي يحملنا إلى المعارف اليقينية وسط بحور

الفلاسفة، وينقذنا من أمواج الشك العاتية ورياح السوفسطائية المهلكة ويخلصنا من عذابات القلق والخوف من المجهول، الأمر الذي يبرر تعويل أوغسطينوس على المعرفة الحدسية القلبية للوصول إلى الحقائق اليقينية وذلك عن طريق الاتصال المباشر بالمسيح باعتباره المعلم الأول، فالحقيقة واحدة ولكن الأعين المدركة متعددة تبعا لتفاوت قدرات أصحابها على النظر والتأمل ونقاء سرائرهم التي تمكنهم من كشف الحبك والاطلاع على الأسرار وقهر الظلمات للوصول لعالم الأنوار حيث الخير الكامل والجمال المطلق والسعادة الأبدية، ويقول في ذلك (إن مفتاح باب الحقيقة بداخلك فلا تبحث عنه في الخارج ومن ثم يجب عليك أن تفحص نفسك وتزيل كل ما يحول بينك وبين الوصول إلى هذا المفتاح، وإذا لم تجده اعلم انك لم تحسن البحث عنه ولم تخلص في تطهير نفسك من الأشياء التي تحجبه عنك ولم ينبض قلبك شغفا به، فالمجاهدة والبحث المستمر والصبر على المتاعب هو الطريق الأوحد، فباب الحقيقة موصد أمام الأشقياء العاجزين عن ارتشاف قنينة العشق) . والتفلسف عند أوغسطينوس هو تعقل الأنا وفحص الذات للوصول إلى الجوهر النوراني الذي يصل بين النفس الإنسانية والله. ومن أقواله في ذلك (نحن نعقل الأشياء ولا نرجع في ذلك إلى كلام يطنطن من الخارج بل إلى حقيقة حاضرة داخل النفس وما الكلمات الا منبه إلي معناها الظاهر. نرجع إلى المعلم الذي قيل عنه انه مستقر في الإنسان الداخلي وهو المسيح - أي قوة الله الدائمة والحكمة الخالدة، ترجع إليه كل نفس ناطقة لكن لا ينكشف لها الا بحسب قدرتها وإرادتها الحسنة أو السيئة، وخطأ احدهما ليس خطأ الحقيقة التي يرجع إليها، إذ لا يخطئ النور الخارجي بل تخطئ أعيننا الحسية، هذا النور الذي يرشدنا الأشياء المرئية بقدر ما نستطيع التمييز بينها.)

وتبدو أهمية كتابات القديس أوغسطينيوس في فلسفة اللاهوت بوضوح في استخدامه كلمة الإله كمرادف ليسوع المسيح المخلص الأب والابن والروح القدس دون الخوض في إثبات هذا السياق لذا يعد كما يشير أستاذنا الدكتور حسن حنفي بوابة الفلسفة المسيحية.

فلم يناقش القديس أوغسطينيوس القضية الكريستولجية بالمنحي اللاهوتي السابق عليه الا خلال حديثه عن قضية التثليث وقد حرص على انتهاج المنحي الأفلاطوني في جعل المثال أو الموجود الغيبي في دائرة التسليم بالوجود الحقيقي لا في العقل بل في الواقع أيضا، فوجود الله عندهم من المسلمات البديهية التي لا تقبل الشك أما التدليل على وجوده بالبراهين العقلية يأتي في سياق الدفاع ضد منكري النعمة من الوثنيين وعلى العكس من ذلك الحديث عن صفاته وحقيقة جوهره فلا يستطيع الإنسان أن يعبر عن الذات الإلهية بالحس أو بالعقل بل بالبصيرة والأريحية والنور الفطري الكامن في السرائر مع القدرة على تبرير وتفسير النصوص المقدسة التي تثبت وحدانية الإله وأزليته وأبديته وحياته وعلمه وقدرته وإرادته.

وقد وجه بذلك المنحي النسق الفلسفي المسيحي في العصر الوسيط صوب التفسير والتبرير للمعتقد الإيماني ونقل دائرة التناظر من طور الاختلاف حول طبيعة شخصية المسيح إلى دائرة طبيعة الله الأمر الذي فصل بين المعارك اللاهوتية والعقدية وبين القضايا الفلسفية فظلت الدائرة الأولى تتصاول حول طبيعة المسيح (طبيعة واحدة أم طبيعتين، حلول أم امتزاج، إرادة أم إرادتين، تأليه الوعاء وتقديس مريم أم رفعها إلى درجة الألوهية باعتبارها أم الإله، العشاء الرباني حقيقة أم رمز) واهتمت الدائرة الثانية بقضية وجود الله وعلاقته بالعالم من جهة والنفس الإنسانية من جهة أخرى وكيفية تطبيق تعاليمه الروحية في المجتمع من حيث هي قيم أخلاقية وجمالية

وتربوية في مدينة أرضية تخضع إلى السلطان البشري وتحكم بالقوانين التي وضعها الساسة ذلك فضلا عن فلسفة الحب أو الرهبانية الصوفية التي تمثل طريق العرفان والاتصال بالروح الكلى الإلهية.

ويعول أوغسطينوس على نظرية الحب الأفلاطونية تعويلا كبيرا في حديثه عن ثنائية الخير والشر فينزع مثل أفلاطون وديونيسيوس إلى أن الخير هو الأساس وأن الشر مجرد انحراف عن هذا الخير ويرفض أوغسطينوس التأويل الغنوسي والمانوى للشر فلا يجعل له عالما أو مملكة مناهضة لمملكة الخير بل يرى أن الشر يرجع إلي فعل جاهل وحب زائف لأمور أو أشياء اقل خيرية من الفضائل الإلهية ومن ثم يمكن أن نطلق عليها القيم الدنيا أو اللذات المتدنية التي تستقر في درك الخير والإرادة الإنسانية هي المسئولة عن وجود الشرور أو خلق الأفعال الشريرة وذلك بموجب حريتها في الاختيار التي تسيرها الأهواء والميول والرغبات والنزوات الجاهلة، ويقول في ذلك " إذا أحسنت اختيار من تحب وما تهوى فافعل ما شئت فطريقك مفروش بالورود ومحفوف بأشجار الخير لأنه طريق الله فمن يحب المسيح ويخلص في حبه يتم خلاصه ويظفر بالسعادة فطوبي للعشاق الذين أفسحوا للرب كل قلوبهم "فإبليس وآدم في رأى أوغسطينوس لم يرتكبوا الخطيئة الا بانحرافهم عن حب الله فإبليس كان يحقد على آدم ويغار منه لأنه اخذ من حب الله ما لا يستحق، وقد انحرف إبليس بحقده على آدم عن نورانية الحب الالهى وسكنت الغيرة في قلبه فاقتلعت منه الرحمة، أما آدم فاحب ما كان يجهله ودفعه فضوله للعصيان فنقص حبه لله فضّل السبيل إليه، وقد أسهب أوغسطينوس في شرح ذلك خلال رده على بيلاجيوس(*) والمانويين. وقد

* هو راهب بريطاني نحو ٣٥٠-٤٢٣م وذهب إلي أن خطيئة ادم قاصرة عليه دون بقية الجنس البشري وان الإنسان يولد على فطرته الخيرة وأن في مقدوره الوصول إلى درجة الكمال الإنساني بابتعاده عن الرذيلة =

أثارت كتابات أوغسطينوس حول فكرة النعمة أو القدر الإلهي العديد من المناقشات حول طبيعة العلاقة بين الإرادة الإلهية وحرية الأفعال الإنسانية وذلك بداية من القرن السادس الميلادي حتى القرن السابع عشر. فقد نزع أوغسطينوس إلى القول بان أفعال الإنسان حرة بموجب الإرادة الإلهية التي تسير هذه الأفعال بمبدئي الخير والحب اللذان يمثلان النعمة الإلهية على البشر، فالذي يفعل الشر يفعله بموجب حريته التي قادته إلى حب ذاته والانغماس في الملذات اعتقادا منه بأنها خير. والإنسان الذي يفعل الخير هو أيضا يفعله بإرادته المنطلقة من إرادة الله فبقدر حبه وإخلاصه في عشق النور الإلهي تتوجه كل أفعاله صوب الخير، ويطلق أوغسطينيوس على الذين يحبون ذواتهم ويفضلونها على حب الله بسكان مدينة الشيطان أما الأبرار الذين يختارون طريق المسيح فهم سكان مدينة الله.

ويبدو أن ذلك الاضطراب النسقي في معالجة أوغسطينيوس لقضية الخير والشر يرجع إلى محاولته التوفيق بين الغنوسية والأفلاطونية والمانوية والفيلونية في سياق واحد. فالإنسان عند أوغسطينوس ينقسم إلى صورتين الأولى خارجية تتكون من بدن حيواني غرائذي وحواس وعقل يستمد

=

وعشقه للفضيلة الكامنة بداخله وقد أنكر بذلك عقيدتي الخلاص والفداء وكذب ما جاء في المزمور ٥١:٥ (هاأنذا بالآثام حبل بي وبالخطية ولدتني أمي) (بإنسان واحد دخلت الخطية إلى العالم وبالخطية الموت) وكذا ما جاء في رسالة بولس إلي أهل رومية ٥:١٢ (كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح يحيا الجميع) . وقد حرمه مجمع افسس المسكوني ٤٣١م ومن أهم مؤلفاته التي حوت آراءه في حرية الإرادة الإنسانية والخلاص الذاتي في الثالوث وكتاب الشهادات وموضوع رسالته إلى دمتريادس وشرح رسائل القديس بولس. وقد استطاع بيلاجيوس بعد هجرته إلى الشرق تكوين مدرسة من بعض أساقفة القدس تدين بآرائه وتبرئه من التهم التي نسبت إليه وذلك في مجمع عام ٤١٥م . وقد انبرى ثيودوريوس المصيصي نحو ٣٥٠-٤٢٨م للدفاع عنه ومهاجمة القديس أوغسطينيوس ولكن مجمع قرطاجنة الكبير أكد تهمة الهرطقة على بيلاجيوس وحكم بفساد تعاليمه انتصار لتعاليم أوغسطينوس. وقد قام اوغسطينوس كذلك بالرد على المانويين في مؤلفه ردا على فورتوناتوس المانوي،، ورد على ادعائات الدوناتيين اتباع دوناتيوس في خطبته في الإيمان والرمز وعلى الاريوسيين في رسالة في الرد على مكسيمونس.

خبراته من تلك الحواس والمعارف المختلفة المحيطة به التي يمكن أن نطلق عليها المدركات، وجميع أفعاله حرة تقوده إليها خبراته المكتسبة وانفعالاته ونزعاته وحبه وشغفه بالذات المادية تلك التي تعرضه إلى ارتكاب الشرور لجهل طبيعته بالخير الكلي والحقيقة النورانية.

أما الصورة الثانية فتتمثل في النفس الباطنية أو الجوهر الروحي وهي تتصل اتصالا مباشرا بالجوهر الإلهي عن طريق (mens) - أو البصيرة على حد تعبير أستاذتنا زينب الخضيرى أو الأريحية - التي تدرك القيم الروحية وتوجه الذهن إلى فعل الخير بموجب رابطة الحب والعشق والفناء الذي يربط بينها وبين المشيئة الإلهية التي تقودها بطبيعة الحال إلي النعمة والخير الأسمى وذلك جزاء لإخلاصها في الحب وفناء حريتها في القدر الإلهي.

ويبدو أن هذا التقسيم الذي أراد أوغسطينيوس من خلاله التأليف بين القول بالقدر أو النعمة الإلهية مع الاعتراف بحرية الإرادة الإنسانية قد أوقعه في تناقض اعظم وذلك أثناء حديثه عن عقيدة الخلاص وخطيئة آدم الأولى. فقد ذهب أوغسطينيوس إلى أن معصية آدم لله أثناء إقامته في الجنة من الخطايا التي لا يمكن غفرانها دون عقاب، لذا قضت المشيئة الإلهية بان يحمل آدم خطيئته وزوجته الملعونة إلى الأرض ويرثها نسلهما من بعدهما ولكن الله رأف بالجنس البشري الذي دنسته الرذيلة فهبط بنفسه وتجسد في صورة المسيح ليكفر عن هذه الخطيئة بدمه على الصليب وكتب بذلك الخلاص الأبدي للمؤمنين به ومن يشملهم بعطفهم وتبدو مغالطات أوغسطينيوس في عدم قدرته على الإجابة عن هذه التساؤلات:

هل كان آدم روحا وجسدا في الجنة؟ وهل كانت له الصورتان المادية والروحية؟ وهل معصيته تعنى غيبة بصيرته أو أريحيته؟ وهل هذه الخطيئة قد ترتب عليها وجود الشهوة في نسل آدم وحرمانه من البصيرة؟ وهل المرحلتين

السابقتين (الجاهلية واليهودية) على ظهور المخلص كانت شاغرة من الأبرار وأحباء الرب؟ وهل أنبياء العهد القديم لم يتم خلاصهم؟ وهل فداء المسيح لم يكن كافيا لخلاص العالم ولو كان غير ذلك فما هو المبرر لبقاء الحال أو الارتداد لأسوء ما كان عليه قبل نزول المخلص؟ وهل اللطف الإلهي لم يشمل الإنسان ولم تقع النعمة الإلهية على بنى البشر الا عقب الفداء غير المبرر؟ وهل الحب الإلهي له طريق واحد أم طريقان متباينان، وهل طاعة العبد وحبه للرب بعد إخلاصه في الإيمان يستوجب حب الله ولطفه ورحمته جزاء عادلا أم أن حب الله لعباده لا يرتبط بالجزاء ولا بالعدل بل يرد إلى الهوى الرباني؟ وهل الأبرار فضلاء بموجب نقاء سرائرهم وسلامة بصائرهم أم مجبرين على ذلك وفق المشيئة الإلهية واللطف الرباني؟ وهل المسيح الابن صلب وفق إرادة الأب أم اللطف الإلهي؟ وهل صرخة الابن على الصليب كانت تمثل اعتراضا على المشيئة أم جحدا للطف أو عدم شعور بالرحمة؟ كل هذه التساؤلات هي التي تضمنتها كتابات البلاجيين المعترضين على آراء أوغسطينيوس. وتنزع أستاذتنا الدكتورة زينب الخضيرى إلى أن علة عجز أوغسطينيوس عن ترميم ذلك التصدع في البناء النسقي لنظريته - في الخير والشر والخطيئة والخلاص - ترد إلى إصراره على تأويل المنقول بنهج معقول أي تفسير رسائل بولس في ضوء ثقافته الفلسفية ولا سيما دعوة بولس رفاقه إلى طلب المغفرة والخلاص للملوك والنتادة وكل الناس من المسيح المخلص الذي جاء لخلاص البشر ويهب السعادة إلى من يشاء "فاطلب أول كل شيء أن تقام طلبات وصلوات وابتهالات وتشكرات لأجل جميع الناس لأجل الملوك وجميع الذين هم في منصب لكي نقضي حياة مطمئنة هادئة في كل تقوى ووقار لان هذا حسن ومقبول لدى مخلصنا الله الذي يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون لأنه يوجد اله واحد ووسيط واحد

بين الله والناس: الإنسان يسوع المسيح" تيموثاوس ٢: ١ - ٥، فيبدو من حديث بولس إن إرادة المسيح المخلص ترمي إلى خلاص كل البشر بما في ذلك غير المؤمنين من الملوك والقادة الرومانيين وأن الخلاص مرتبط بالعمل ويتحقق بالإيمان وبدعاء الأبرار وبمشيئة المسيح.

* * *

ولا غرو في أن كتابات فلاسفة اللاهوت من المؤولين - على اختلاف مدارسهم - التي حاولوا فيها وضع الأسس المنهجية لتفسير وتأويل الكتاب المقدس من جهة وتحديد العلاقة بين اللاهوت والفلسفة من جهة ثانية والاجتهاد في انتحال المناهج العقلية لتبرير الأصول العقدية مثل أدلة وجود الله والعناية الإلهية وخلق العالم وحرية الإرادة الإنسانية والاتصال الروحي عن طريق الاتحاد أو الحلول في الرهبنة المسيحية من جهة ثالثة وانتهاجهم المنهج الجدلي في الرد على خصومهم من المتشككين والهراطقة من جهة رابعة ووضع صيغة مرنة للعلاقة بين الكنيسة والدولة من جهة خامسة. تلك الأفكار والرؤى هي التي انطلقت منها جل فلسفات العصر الوسيط التي حاولت الإجابة عن السؤال المطروح "أومن كي اعقل أم اعقل كي أومن؟" ويعني ذلك أننا لا نستطيع الوقوف على أصول الأفكار العقدية والفلسفية والقضايا المطروحة في العصر الوسيط دون الرجوع لكتابات فلاسفة اللاهوت في القرون الخمسة الأولى وليس أدل على ذلك من الأثر الانطاكي على الفكر الكاثوليكي والفلسفة التوماوية والأثر الأوريجيني الأوغسطيني على كل المدارس الفلسفية التي ظهرت منذ القرن التاسع الميلادي إلى القرن الرابع عشر.

وصفوة القول أن قضية الكريستولوجى التي تناولها اللاهوتيون والهراطقة وفلاسفة اللاهوت هي القاعدة الرئيسة التي انطلقت منها كل

القضايا اللاهوتية والفلسفية التي شغل بها فلاسفة العصر الوسيط ثم انتقلت بدورها إلى المباحث الأخلاقية والميتافيزيقية وفلسفة الدين والفلسفة السياسية في العصر الحديث، ثم تطورت فلسفة التأويل التي وضع أصولها فلاسفة اللاهوت على يد النزعات التأويلية المعاصرة مثل البنيوية والتفكيكية والتأويل الحداثي ونقد النقد.

* * *

تعقيب

بقلم/ محمد احمد سليمان*[1]

منذ ما يقرب من اثني عشر عاما كنت طالبا بالفرقة الأولي بقسم الفلسفة بكلية الآداب وكانت اول محاضرة لي في مادة علم الكلام وكان المحاضر هو الدكتور عصمت نصار، ولم أكن اعرف وقتها من هو الدكتور عصمت سوي انه استاذ الفلسفة وبالتحديد –حسب اعتقادي - استاذ علم الكلام، وتحدث ساعتها طوال المحاضرة باستفاضة عن المشاكل الكلامية واسباب نشاة علم الكلام والفرق الكلامية .....الخ، من الموضوعات المطروحة على مائدة المساجلات الكلامية في هذا الموضوع.

وبعد انتهاء المحاضرة لم اتذكر شيئا سوي أنني قمت بكتابة المحاضرة باكملها وقمت بإعادة قرائتها فوجدت صعوبة في فهمها نظرا لما تحويه من الفاظ باللغة العربية الفصحي أجمع زملائي علي انها ترد علي حاسة السمع والبصر لأول مرة، إلا أنني وجدت فيها روحا جديدا وأسلوبا مغايرا لما يقوم به أساتذة الفلسفة آنذاك، الأمر الذي دفعني لقرائتها عدة مرات محاولا الاستفادة من دقة اللغة وسلامة العرض وقوة الأسلوب وبساطة الأفكار.

ولم يقتصر الأمر علي مادة علم الكلام وحدها حيث كان الدكتور عصمت يقوم بتدريس مواد أخري للفرق المتقدمة منها مادة مدخل إلي الفلسفة والفلسفة اليونانية والفلسفة اليهودية والفلسفة المسيحية في العصر الوسيط وتاريخ العلوم والفكر العربي الحديث والمعاصر، هذا بخلاف

* باحث في الفلسفة الغربية في العصر الوسيط

الموضوعات والمشكلات الفلسفية التي كان يتعرض لها ويناقشها أثناء إثارتها داخل المحاضرة.

وقد وجدت أنا وزملائي في تلك الفروع العديدة من موضوعات الفلسفة مع الدكتور عصمت أسلوبا جديدا لأستاذ الفلسفة المثالي الذي تحرر من النمطية والتقليد والركون الي الأساليب الهشة في معالجة القضايا المطروحة وكذلك حرصه علي معالجة القضايا الفلسفية من منظور نصوص أصحابها بمنأي عن الشروحات والتعليقات الفرعية التي لا تزيد الموضوع الا لبسا وتعقيدا. أضف الي ذلك حرصه علي ان نقوم بنقده بعد كل محاضره وتوجيهاته الدائمة بان كل انسان يؤخذ منه ويرد عليه مما فتح لنا المجال للتحرر من الأساليب المدرسية القائمة علي التلقي دون وجه اعتراض علي الموروث الثقافي الذي بحاجة الى اعمال العقل واعادة قراءته من جديد، وكذا عدم الاستسلام للقيود المفروضة من قبل الآخرين وتقبلها علي علاتها دون أدني تمحيص.

أضف إلى ذلك أن حديث الدكتور عصمت في كل مادة كان يقوم بتدريسها لنا كان يأخذني الي القول بانه متخصص في هذه المادة دون غيرها وعكف علي دراستها عشرات السنين وذلك من شدة تمكنه منها وإلمامه بكافة أبعادها.

وبمرور الأيام تمنيت ان اكون تلميذا في مدرسة الدكتور عصمت الفلسفية ليس لغزارة العلم فحسب بل لأنني وجدت فيه الإنسان بكل ما في صفات الإنسان، فتعامله معنا لم يكن من منطق الأستاذ لتلاميذه بل كان من منطق الأب لبنيه والراعي لرعيته الذي لا يبخل عليها بشيء لدرجة تصل الي الانفاق عليهم وتحمل مصروفات الكتب الدراسية لمن يعجز أو ليس عنده المقدرة لشرائها.

كل هذا - وهو القليل من شخصية الدكتور عصمت - جعلني أقف امامه عاجزا عن فهم هذه الشخصية التي تعشق العلم للعلم وتتفاني فيه بعيدا عن الماديات، ومنذ ذلك الحين ربطني بالدكتور عصمت رباط الابوة والصداقة التي تزداد عمقا وصلابة بمرور الايام.

وثمة نقطة هامة لا يمكن تجاوزها وهي أن الدكتور عصمت هو الذي زرع بداخلي حبي للفلسفة وعلي وجه الخصوص الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط وشجعني علي الاستمرار في دراستها حتي انتهيت من دراستي الجامعية وحصلت علي درجة الليسانس بتقدير جيد جدا وبترتيب الاول علي الدفعة وبعدها اكملت دراساتي العليا حتي انتهيت من السنة التمهيدية للماجستير وكذلك الماجستير في فلسفة العصر الوسيط .

وثمة مشكلة كبري كانت تواجهني منذ دراستي بالجامعة وعلي وجه الخصوص في فلسفة العصر الوسيط ألا وهي عدم وجود مصنفات فلسفية باللغة العربية في هذا المجال بصفة عامة وأبحاث تربط بين الفكر اللاهوتي والتيارات الفلسفية بصفة خاصة، حيث كان المتاح وقتها هو كتاب الاستاذ عبد الرحمن بدوي (فلسفة العصور الوسطي) والاستاذ يوسف كرم (تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط) وكتاب الاستاذ حسن حنفي (نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط - أوغسطين - أنسلم - توما الأكويني) وبعض الكتب الثانوية الأخري منها كتب الاستاذة زينب الخضيري (اثر ابن رشد في فلسفة العصور الوسطي) و (ابن سينا وتلاميذه اللاتين) و (لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين) .

وقد حاولت جاهدا اقناع الدكتور عصمت نصار بضرورة عمل مصنف يكون البوابة التي ننفذ منها الي فلسفة العصر الوسيط أعني ان نجمع بين فكر الاباء وفكر الفلاسفة في بوتقة واحدة حتي يتسني لنا معرفة القضايا

المطروحة من قبل الفلاسفة والتاصيل لها من فكر الاباء.

وثمة نقطة هامة في هذا الموضوع وهي انه لا يمكننا دراسة الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط وفهم قضاياها بمنأي عن القضايا اللاهوتية التي اثيرت في القرون الاولي زمن الحواريين، فليس من المعقول أن نجد كلا من انسلم وتوما الاكويني وبونافنتورا والمعلم ايكهارت ودونس سكوت والبير الكبير يتحدثون عن النعمة واللطف الالهي والخطيئة والتجسد والصلب والفداء والخلاص دون ان نرجع الي بويس وكليمنت واوريجين ويوحنا الذهبي الفم وهيبوليت وترتليان وامبرواز واوغسطين.

من هنا كان من الضروري ايجاد عمل يجمع بين الفكر اللاهوتي (فكر آباء الكنيسة اللاتين واليونان) وفكر الهراطقة والمفكرين المؤولين حتي يمكننا التاصيل لفكر الفلاسفة في العصر الوسيط فيما بعد.

وقد بذل الدكتور عصمت نصار قصاري جهده من اجل وضع مصنف يجمع في ثناياه بين كل التيارات السابقة فكان من ثمرة هذا المجهود هذا الكتاب الذي بين ايدينا الان وهو (نظرات في فلسفة اللاهوت المسيحي) وهو من باكورة الاعمال الفلسفية التي تجمع بين الفلسفة المسيحية في مهدها مع الاباء ومرورا بالتيارات المضادة والفلسفات التاويلية تمهيدا لظهور الفلسفة المدرسية في العصر الوسيط.

ولم يبخل علي الدكتور عصمت نصار بمطالعة هذا العمل ومنحي شرف الانتساب له في ان اخط بيدي بعض الملاحظات علي هذا العمل الجليل وذلك ايمانا منه بضرورة التواصل وفتح باب الحوار بين الاجيال (جيل التلميذ وجيل الاستاذ) وكما علمنا دوما وكان حريصا معنا بالا نستسلم للموروث بل لابد من تنقيحه وان العلم ليس حكرا علي احد ولابد من فلسفة الحوار الايجابي التي تضفي علي العلم قدسيته وهالته

المستنيرة من اجل خلق جيل جديد لايستسلم للموروث الثقافي في قالبه الجامد بل قادر علي النفاذ الي بواطن الأمور بدلا من الخمول والسلبية التي لا تاتي الا بالرجعية وجمود الفكر.

ولا تعني قراءتي ووجهة نظري تجاه هذا العمل الكبير اني أوتيت العلم في نقده بل هي رؤية اثرت ان اكتبها محاولا ايضاح ما اريد قوله وليس علما زائدا علي ماكتب في تلك الصفحات.

فإذا نظرنا الي كتاب الدكتور عصمت نجده يبدأ بعرض واضح ومبسط للعقيدة المسيحية بعيدا عن التعصب الدينى الذي لا يؤتي ثماره وكذلك توضيح اثر العلاقة بين الدين والدولة والعكس مما يوضح لنا ان جدلية العلاقة بين الدين والدولة ليست وليدة العصر الوسيط وحده بل هي قديمة قدم العقيدة وانبثقت من رحمها. كما ينبهنا الدكتور عصمت الي نقطة هامة وهي ان القديس اوغسطين هو الذي فتح الباب علي مصراعيه لتدخل رجال الاكليروس في السياسة.

وثمة نقطة لا اريد قولها نقدا بل لا تتعدي وجهة النظر الخاصة وهي ارجاع فكرة المخلص الي الديانات الشرقية وخاصة ديانات الهند لان هذا يعد مغايرا لجوهر العقيدة المسيحية نفسها وكذلك المقابلة بين شخصية المسيح والشخصيات الاسطورية في الديانات الاخري مثل الاوزورية والديونوسيوسية والسيرابيسية سواء عند اللاهوتيين او الهراطقة او الفلاسفة لان هذا يعد ضربا من المجازفة الفكرية لان لكل ديانة طبيعتها الخاصة ولا يمكننا المقابلة بين الديانات الاسطورية والديانة المسيحية حول فكرة المخلص لان لكل منها طقوسها وشروطها الخاصة.

وكذلك الحديث عن شخصية المسيح ياخذنا الي القول ب (لا واقعية العهد الجديد والاناجيل) مما يجعلنا نقع في دائرة القول بعدم عودة المسيح

اخر الزمان طالما ان مخلصي الديانات الاخري غابوا عن مسرح الاحداث ولم يظهروا لتابعيهم من جديد.

وفي حديث الدكتور عصمت عن اثر الفكر الهرمسي علي العقيدة فانه يمكننا القول ان الفكر اللاهوتي أو فكر الهراطقة وليس فكر الآباء المحافظين هو الذي اتخذ الثوب الهرمسي في فهم قضية الكريستولوجي، كما ان نظرية جيوردانو برونو لا تستند الا علي تشابهات ظاهرية فقط مع العقيدة، ولا يمكننا القول معه ان الهرمسية هي اصل كل الديانات. وفيما يخص الغنوصية فانه لا يمكننا التاصيل للفكر المسيحي بها، لانه من الواضح حسب الروايات التاريخية ان انجيل يوحنا قد كتب للرد علي الغنوصيين.

كما ان فكر الفيثاغورية لا يتعدي الروايات الاسطورية ولا يمكننا المطابقة بين شخصية الحكيم الفيثاغوري وشخصية يسوع الناصري.

وفيما يخص المدارس الفلسفية اليونانية والرومانية فانها لم تضف شيئا او لم تتسلل الي المساس بالعقيدة كما لا نغفل منهج العرض الجيد الذي اتبعه الدكتور عصمت في ذات الخصوص.

وجملة القول ان تاثير المدارس الفلسفية المختلفة كان اثرا فلسفيا ولم يكن اثرا دينيا، اي كان تاثيرا علي الفكر اللاهوتي ولم يتسلل الي ثوابت العقيدة.

وفي الفصل الثاني من هذا الكتاب نجد اجادة تامة في استخدام المنهج التاريخي في معالجة الاحداث وربطها بثبات العقيدة داخل النفوس المؤمنة وكذلك التنبيه علي الدورالخطير للجدل الفلسفي الذي استعان به اللاهوتيون في الدفاع عن العقيدة.

وما اود قوله في هذا السياق ان رجال الدين المؤمنين قبلوا التعاليم الانجيلية بمنحي عن العقل اما المتفلسفون اللاهوتيون فهم اللذين قاموا

بالربط والتوفيق بين الفلسفات الوافدة وعقلانية العقيدة مما ساعد في استخدام العقل للدفاع عنها.

كما انه لا يمكننا القول ان العلاقة بين رجالات الدين الاوائل والفلاسفة لم تكن علاقة وفاق، لانها وان كانت تبدو متباعدة من الظاهر الا انها كانت علاقة تبادل وسجال فكري استفاد منه كلا الطرفين، فاللاهوتيون ورجال الدين استفادوا من الفكر الفلسفي العقلاني في الدفاع عن قضايا الدين، أما الفلاسفة فقد استلهموا من رجالات الدين الاسس الثابتة للايمان والتي كانت بمثابة مقدمات وثوابت ايمانية لحل القضايا التي طرحت علي مائدة اللاهوت الفلسفي فيما بعد.

كما ان الهرطقات لم تتناول العقيدة المسيحية في جوهرها بل تناولتها من منطق الافكار الوافدة، لذا يصعب اعتبارها او القول بانها هرطقات مسيحية بقدر ما هي فكر اراد التغلغل داخل العقيدة لاضعافها من الداخل.

وختاما لا املك بعد تلك الملحوظات الصغيرة الا القول باننا امام عمل فلسفي يستحق الوقوف امامه للاستفادة منه في فهم فترة انتقالية لتحول الفكر من التيار الوثني اليوناني الي كنف الفلسفة المسيحية وتمهيدا لظهور الفلسفة الغربية في العصر الوسيط.

أهم المصادر والمراجع

١ ـ أهم المصادر العربية

إبراهيم فارس : سبيل المسيح، دار منهل الحياة، بيروت – لبنان، ١٩٨٩

أبكار السقاف : الدين عند الإغريق والرومان والمسيحيين، دار العصور الجديدة، القاهرة، ٢٠٠٠

أبو البركات المعروف بابن كبر : مصباح الظلمة في إيضاح الخدمة، مكتبة الكروز، القاهرة، ١٩٧٠

أثناسيوس : تجسد الكلمة، الترجمة الجديدة عن اليونانية، المركز الأرثوذكسي للدراسات الأبائية، القاهرة، الاسكندر ية، ٢٠٠٣.

أثناسيوس : رسائل القديس أثناسيوس الرسولي عن الروح القدس، مدارس الأحد، الجيزة،، د.ت.

أحمد راتب عرموش وآخرون : موسوعة الأديان الميسرة، دار النفائس، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.

أرثوذكس ويكا : يوحنا الذهبي الفم، www.youtube.com/watch?v=9skjtvbvjp8, 2008.

أسد رستم : كنيسة مدينة الله في ثلاثة أجزاء، دار النور للمنشورات، بيروت، ١٩٥٨.

أغريغوريوس : عن الأبيونية، الكلية الإكليريكية بطنطا، د.ت.

الأنبا بيشوي : محاضرات في اللاهوت المقارن، الكلية الإكليريكية بطنطا، ١٩٩٩.

ألبير بايه : أخلاق الإنجيل (دراسة سيسيولوجية)، دار الحصاد للنشر والتوزيع، سوريا- دمشق،١٩٩٧.

الخورى بولس فغالى : الأبانا في تفسير تيودوروس المبسوسطي.
www.sawa-soft.com, 2008.

الخورى عيسى الأسعد : الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية، د.ن، حمص، ١٩٢٢.

اللاهوتية القديمة للاهوتية : كنائس الله المسيحية،
www.logon.org, www.ccg.org, 1999.

المعجم العلمي للمعتقدات الدينية : تعريب وتحرير سعد الفيشاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧.

أندراوس عبد المسيح الأنبابولى : أصول الإيمان القويم للمسيحيين الأرثوذكسيين، مطبعة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٩ .

أند رو ملر : مختصر تاريخ الكنيسة، من البداية إلى القرن العشرين، مكتبة كنيسة الاخوة، ١٩٧١.

إميل برهييه : الآراء الدينية والفلسفية لـ"فيلون الإسكندري"، ترجمة محمد يوسف موسى، وعبد الحليم النجار، وزارة المعارف العمومية، القاهرة، ١٩٥٤.
تاريخ الفلسفة، الفلسفة الهلنستية والرومانية ج٢ دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٢.

أوريجانوس : الرد على كلسس، ترجمة مرقس داود، مكتبة المحبة الأرثوذكسية، القاهرة، ١٩٧٣.

أوغسطينيوس : اعترافات القديس أوغسطينيوس، ترجمه الخوري يوسف المعلم، المعهد الاكليريكي الفرنسيسكاني الشرقي، الجيزة، ١٩٨١.
محاورة المعلم، ترجمة حسن حنفي حسنين، مقال في كتاب نماذج من الفلسفة المسيحية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨.

إيسوذورس : الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة، إعداد وتعليق: ميخائيل مكسي أسكندر، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٢.

إيريس حبيب المصري : قصة الكنيسة القبطية، القاهرة، د.ن، ١٩٦٩.

باخوم حبيب : عصر المكابيين، دار العالم العربي للطباعة، القاهرة، ١٩٨٠.

باسليوس أسحق : دراسات تحليلية للفترة الأخيرة من حياة المسيا، د.ن، ١٩٦٩.

بطرس فرماج اليسوعي : مروج الأخيار في تراجم الأبرار، د.ن، بيروت، ١٨٨٠.

بيشوي فؤاد واصف : دراسات لاهوتية عقائدية وطقسية، كنيسة السيدة العذراء، الأسكندرية، ٢٠٠١.

جان كامبي : تاريخ الكنيسة، دار المشرق، بيروت د.ت.

جلانفيل داوني : انطاكية في عهد ثيودسيوس الكبير، ترجمة ألبرت بطرس، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت – نيويورك، ١٩٦٨.

جورج طرابيشي : معجم الفلاسفة، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٧.

جورج فيرجسون : الرموز المسيحية ودلالتها، ترجمة يعقوب جرجس نجيب، معهد الدراسات القبطية، نيويورك، ١٩٦٤.

جون ستوت : المسيحية في جوهرها، دار يوسف كمال للطباعة، القاهرة، ١٩٧٨.

جيمس أنس : علم اللاهوت النظامي، الكنيسة الإنجيلية، القاهرة، ١٩٩٩.

حبيب سعيد : تاريخ المسيحية، فجر المسيحية، ج ١، دار التأليف والنشر للكنيسة الاسقفية، د.ت

ديلى : أنا هو الطريق والحق والحياة – ترجمه الأب جرجس ماردينى – المطبعة الكاثوليكية بيروت،١٩٧٥

رأفت عبد الحميد : الدولة والكنيسة، ج ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢
الفكر المصري في العصر المسيحي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٠

زكي شنوده : العالم قبل المسيح، مكتبة الثقافة المسيحية، القاهرة، ١٩٥٦
المجتمع اليهودي، مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت

موسوعة تاريخ الأقباط، ج٦، مكتبة الثقافة المسيحية، القاهرة، ١٩٦٧

زينب محمود الخضيرى : لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٢

سانت موس : ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٨

ساويرس : والدة الإله، إصدار الكاتدرائية الأرثوذكسية، القاهرة، ١٩٦٩

سليمان مظهر : قصة الديانات، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٠

سميث فانديك : تفسير الكتاب المقدس
www.jesusnazareth.com, 2006

سيداروس عبد المسيح : أين ولد المسيح، مطبعة القاهرة الجديدة، القاهرة، ١٩٨٠

شارل جنبير : المسيحية، نشأتها وتطورها، المكتبة العصرية، بيروت، د.ت

شفيق مقار : السحر في التوراة والعهد القديم، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، د.ت

المسيحية والتوراة : بحث في الجذور الدينية لصراع الشرق الأوسط، رياض الريس للكتب والنشر، لندن - قبرص، ١٩٩٢

شنودة الثالث : محاضرات عن الاريوسية لطلبة الكلية الإكليريكية (أنا الكرامة الحقيقية وأبى الكرام)، القاهرة، ١٩٩٥

شنودة السرياني : الكنيسة المسيحية، لجنة أصدقاء الكلية الإكليريكية، القاهرة، ١٩٧١

ط .ب. مفرج، وآخرون : موسوعة عالم الديان، ج٨، نشوء المسيحية واضطهادها وانتشارها، دار النشر والتوزيع noblis، بيروت، ط٢، ٢٠٠٥

عبد الشهيد، نصحى : الخلاص عند القديس أثناسيوس. المركز الأرثوذكسي للدراسات الأبائية القاهرة الاسكندرية ٢٠٠٤

عزت أندراوس : مدرسة أنطاكية ومنشأ الفكر النسطورى
www.encyclopedia.com, 1994
عوض سمعان : الله بين الفلسفة والمسيحية، د.ن القاهرة، ١٩٧١
غريغوريوس : مذكرة علم اللاهوت المقارن الكلية الإكليريكية اللاهوتية للقبط الأرثوذكس
www.coptichhistory.org, 2007
فردريك كوبلستون : تاريخ الفلسفة المجلد الأول اليونان وروما ترجمة: أمام عبد الفتاح إمام، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢
فريبل : من أقوال العلامة القديس أكلمنضس الإسكندري، ترجمة عن الفرنسية يوسف حبيب ومليكة حبيب يوسف، مكتبة امبرويس براي، باريس، ١٨٦٥
قاموس آباء الكنيسة : كنيسة مار جرجس اسبورتنج، الأسكندرية، ٢٠٠٨
كريستيان فان نيسبن : فلسفة عصر آباء الكنيسة، كلية العلوم اللاهوتية والإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٨
كيرلس الاسكندري : رسائل القديس كيرلس إلى نسطور ويوحنا، مترجم عن اليونانية، في جزئين، مؤسسة القديس أنطونيوس الانطاكي، القاهرة، ١٩٨٨
كيرلس الأنطوي : تاريخ المجامع، مكتبة الثقافة المسيحية، القاهرة، د.ت
لويس برسوم الفرنسيسكاني : تفسير الأناجيل المقدسة، المعهد الاكليريكي الفرنسيسكاني، الجيزة، ١٩٧٠
لويس غرديه وجورج قنواتى : فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية، في ثلاثة أجزاء، ترجمة صبحي صالح وفريدجير، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٦٧
ماسه أسامه احمد رؤوف : أثر الفلسفة اليونانية في الفكر المسيحي المبكر بحث غير منشور، رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعه الأسكندرية، كليه الآداب.
قسم الآثار والدراسات اليونانية والرومانية، ٢٠٠٧
مجدي الكيلانى : المدارس الفلسفية المتأخرة، المركز الاستشاري المصري للتدريب ونشر البحوث العلمية، الأسكندرية ٢٠٠٦

محمد أبو الغيط : بولس والمسيحية، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ١٩٨٠
محمد احمد سليمان احمد : فلسفة القانون والسياسة عند مارسيل دي بادو، كلية الآداب قسم الفلسفة جامعة بنى سويف، ٢٠٠٧
محمد احمد محمد بيومى : علم الاجتماع الديني، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ٢٠٠١.
محمد جمال كيلاني : الفيثاغورية الجديدة أصولها وأثرها على فلاسفة العصريين الهلينستي والروماني، دار مكتبة الإسراء، طنطا، ٢٠٠٧
محمد طاهر التنير : العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، د.ن، بيروت، ١٩١٢
محمد عطا الرحيم : المسيح عيسى والتوحيد، عرض تاريخ للمسيحية والأناجيل، ترجمة عادل محمد حامد، مركز الحضارة العربية، ط١، القاهرة، ٢٠٠١
محمد مجدي مرجان : المسيح إنسان أم إله، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت
مصطفى النشار : مدرسة الإسكندرية الفلسفية بين التراث الشرقي والفلسفة اليونانية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٥
معجم اللاهوت الكتابي، أشرف على طبعه : الأب سيداروس اليسوعي وآخرون، دار المشرق، بيروت، لبنان، ط٤، ١٩٩٩
مكسيموس مظلوم : الكنز الثمين في أخبار القديسين، في ثلاثة أجزاء، د.ن، بيروت، ١٨٦٦
منتديات الجامعة الإسلامية : إنجيل سري لمرقس، www.invisionboard.com, 2004
منذر نزهة : الكنائس المسيحية وتاريخها في سورية، www.syrandp.com, 2007
منسى يوحنا : طريق السماء (أنا هو الطريق والحق والحياة)، مكتبة المحبة، القاهرة، د.ت
منقريوس عوض الله : مقالات الأنبا بولس البوشي، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة، ١٩٣٨

موريس تاوضروس : اللوغوس مفهوم "الكلمة" في كتاب العهد الجديد، دار الناسخ الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣

موسى واصف : لاهوت المسيح (ضد الاريوسين)، الكلية الإكليريكية اللاهوتية للأقباط الأرثوذكس، طنطا، ٢٠٠٤

ميشيل جرجس : الكنيسة المصرية، د.ن، القاهرة، ١٩٥٨

نجيب بلدي : تاريخ مدرسه الأسكندرية وفلسفتها، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢

نصري سلهب : في خطى المسيح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٠

وليم أدى : الكنز الجليل في تفسير الإنجيل، الجزء الثالث، شرح إنجيل يوحنا، بيروت، مجلس كنائس الشرق الأدنى، ١٩٧٣

يوسابيوس القيصري : تاريخ الكنيسة، ترجمة: القمص مرقص داود، مكتبة المحبة، القاهرة، ط٣، ١٩٩٨

يوسف اسعد : العذراء في التاريخ الكنسي، مطبعة دار العالم العربي، القاهرة، ١٩٧٤

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط، دار القلم، بيروت، د.ت

٢ ـ أهم المصادر والمراجع باللغة الإنجليزية

Adolf Harnack	: History of Dogma, Constable and Company, London, 1961.
Backhouse	: Early Church History to the Death of Constantine, London, 1968
Carrington (Philip)	: The Early Christian Church, vol. 1, Cambridge, 1957
C.B Caird	: Saint Luke, Penguin Books, 1963
C.F Potter	: The Lost Years of Jesus Revealed, Fawcett : Publications, New York, 1963
C.H Dodd	: According to the Scirbtures, Fontana Books, 1963
F.C. Grant	: The Gospels; their Origin and their Growth, Faper and faper, London, 1957
Fisher	: The Bigginings of Christianity, London, 1897
Gregory of Nazianzen	: against Apolinarius, (the second Letter of Cledonius) (Ep.C2) , NPNF. 2nd. Ser., Erdmans Puplishing Company, 1979
Hefele, G.J.	: A history of the Christian Councils From the original Documents to the close of the council of Nicaea, Translated From the German and Edited by W.R. Clark, M.A. Edinburgh, T.&T. Clark,38 George St., 1894
J.C Fenton	: Saint Matthew, Penguin Books, 1963
Kelly (Herbert)	: A History of the Church of Christ. Vol.1, London, 1901
Kevin Knight	: Athenagoras, 2008 Life of St. Augastine of Hippo, 2008 St. Ambrose, 2008 St. Athnasius, 2008
Latourette	: A History of Christianity, New York, 1953

٣ ـ مقالات الإنترنت

http://www.newadvent.org/cathen/01296a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/01383c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/01712d.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/02035a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/02042b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/02084a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/02300a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/02330b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/03144b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/04045a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/04012c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/04595b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/05009b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/05498a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/05617b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/06780a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/07010b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/07016a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/07015a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/07268b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/07644a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08130b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08341a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08459b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08452b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/11138a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/11306b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/12219b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14464b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14520c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/04423f.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/0160a.htm.

٤ ـ مراجع توضيحية للتوسع

http://www.newadvent.org/cathen/01299a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/01593c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/01746c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/02293a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/04165a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/04583b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/05011a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/06417a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/07360c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/03404a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08565a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08580c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/08736a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/09154b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/10336a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/10598a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/11436b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/11457c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/11771a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14118.b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14165c.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14332a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14574b.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/14625a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/15414a.htm.
http://www.newadvent.org/cathen/15439b.htm.

الفهرس

الفصل الثالث

أهم المصادر والمراجع